رواية

رجاء عالم

سِتْر


المركز الثقافي العربي



سِتْر

رجاء عالم

الكتاب
سِتْر
(رواية)

تأليف
رجاء عالم

الطبعة
الأولى، 2005
عدد الصفحات: 264
القياس: 14.5 × 21.5
الترقيم الدولي:
ISBN: 9953-68-091-4

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 ـ 2307651
فاكس: 2305726 ـ 2 212+
Emai: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

سِتْر

مرت بلسانها على شفتيها، دغدغة من رغوة القهوة لا تزال عابقة هناك، تحب أنفاسها مضمخة بالقهوة، تشعر أن إغراء شفة مغمسة بالقهوة لا يُقاوَم، تذكر شفتيه في آخر رشفة قهوة، يسقيها كل صباح لعقة، لينهبها كافيينها طوال غيبته، بابتسامة سكرى أخفت ذاك المذاق.

مُخَدَّرة بَدَتْ حركاتُها حين رجعت من المقهى، اجتازت حوض السباحة الواقف بسكينته بين المعبر وذلك الباب الزجاجي العريض، وراء ذلك الزجاج لا تزال خيوط من بخور العود جامدة في الهواء من ليل أخيها، يسهر كل ليلة، يعاقر البخور والشعر، يكتب كلمات من جنس الألعاب النارية، توحي بالثورة لكنها لا تشعل ناراً حقيقية، يقتحم مواقعَ الحوار على شبكة الانترنت، يدخل في عراك لفظي مع كل الآراء الملتحية والمُحَجَّبة والمُحَزَّمة بالديناميت ومع نصال السكاكين على رقاب المخطوفين في العراق وأفغانستان، يبصق على كل الشعارات نافثاً كل الدخان العابق بصدره، يتنفس بخورَ خشبِ العود حوله،

«كإدمان الألماس. عَشِقَني خشبُ العود الذي يأكل حسابي البنكي لكن ليس مثله يُشعل قريحتي. بالبخور أنا كاهن من عالم آخر، أستطيع أن

ارسم لكم خارطةً مُفَصَّلَة عن مستقبلكم العربي، نحن أمة تؤمُّ الناسَ للخراب». يستفزُّ كلَّ من يحضر له مجلساً ويرجع لوكره، يُعَاقرُ المزيدَ من البخور حتى أصاب زوجته الجميلة بالعقم، واستبدل هواءَ المدينة بغمامٍ يغرقُ فيه ويتغرَّب.

أوصدت مريمُ حواسَها متجنبةً غمامةَ الغيبة تلك وبقايا الفرقعات النارية، اخترقت بموزاة صفوف الورد البلدي اللاجئة للسور من عنف نظرة الكاهن أو الخفاش المسكون بالليل/ مروان الذي لا يُغادر إلا لعمله ويتسلل مختبئاً لظلماته وبخوره وشاشته الفضية المفتوحة على صراعات الكون. صَعَدَت الدرجات العشرين للطابق الثاني حيث تُقيم ووالدتها، بهدوء اجتازت حجرة الجلوس المفتوحة على الصالون ومكتبته العتيقة، ما إن دَفَعَتْ بابَ حجرتها حتى لَفَحَها فولاذٌ، صَدَمَتْها الملامحُ الملتوية لوجه أمها قبل أن يقع الوجه في مرمى رؤيتها، لم تَخْطُ خطوةً في الحُجرةِ حين قَبَضَتْ رسغَها تلك اليد الحديدية:

«هو دوركِ الآن لترمينني بالغربة!» لم تفهم مريمُ مرارةَ ذاك الهجوم، ليس الكلماتُ وإنما كلاليب المرارة هي ما نهشها، أكملت الأم:

ضحَّيتُ كلَّ هذه السنين. حتى ملامحي روضتُها بحيث تعكس تعابير عماتكِ والجيران، نسخة مشوهة انتهيتُ، لم أكن نفسي قط حتى أخلع عن نفسي تهمة الغريبة التي أحضرها العقيدُ زوجة، تَنَصَّلتُ من لكنتي وملامحي الشامية لأذوب فيكم، والآن تأتيني الغربة من مقتل، منكِ، تسمحين لهم بالطعن في تربية الغريبة».

أيضاً لم تفهم مريم، كادت تضحك، لكن التقطيبة المتفصدة عرقاً على جبين والدتها منعتها:

«ألا تكفيني قطيعتي في مرض أبيكِ...».

لم تَرَ مريم لأمها مثل هذا الوجه المُبَرَّد بالمُرّ، تجزم أنها لو مدت لسانها لصعقتها لعقة من ذاك العلقم:

«يا لزمانٍ حَالَ لتنفردين بسمعتنا لتدنيسها! فريسة جاهزة للضربات، هاتوا مالديكم بعد، ماذا بعد غياب أبيكِ أو انشغال أخوتكِ أو طلاقكِ».
ودَفَعَتْها اليدُ الفولاذية للسرير، سَقَطَتْ مثل ورقة، من بقعتها على السرير بدت لها الحجرة وأحداثَها مثل حلم: حجرة كل ما فيها في حالةِ وَقْفٍ عتيق؛ خزانةُ الثياب بألوانها الربيعية في صحاري الجزيرة المُوَحَّدَة القناع، المكتبةُ الطافحة برؤوس مفكرين يُحرِّضون حتى النور في سقوطه على جسدها من شقوق جهاز التكييف، الفتحة الوحيدة التي يخترقها النور إليها بعد احتلال التكييف للنافذة، السرير الضيق ليسمح لرؤوس ثوار الكتب بالتنفس على مؤخرِ عنقها بلا حياءٍ أو وجل، كلُّ نفثةٍ ثعبانٌ صغيرٌ يلدغها لتكون سامة بأشرسِ وجوهِ الرغبة. الدببة المحشوة من طفولة مسكونة بالفراء الجاري لأسافل ساقيها وحتى أطراف أصابعها، الملصقات على الحائط من مُرَاهَقَةٍ لا تريد أن تتنحَّى لنجوم يأفلون كل لحظة لتلمع نجومٌ لن تلبث أن تأفل، تصيبها بحمى صعدةً النجوم وسقطتها، عدا تلك التفاصيل المخفية لاشيء مُميَّز في الحجرة غير الترقب، كل حياتها لم تكف مريمُ تترقَّبُ حدثاً جللاً يُخرجها من القطيع، كيف؟ لا تعرف! والآن هاهو الترقب يكاد ينفجر، ورغم ذلك تَلَهَّتْ عنه، يُشاغلها الآن الفولاذ في يد والدتها التي كانت أبداً وحتى تلك اللحظة من حرير مُضَمَّخٍ بحنانٍ وضعف:

«تتحركين في دنيا سائبة؟ أنظري لنفسك في المرآة لتري ما يرونه، أنتِ مطلقَّة». لكأن الطلاق وحمة أو شَجَّة مكان الغرة، راودها ان تتحرك صوب المرآة لترى ما تراه والدتها في تلك اللحظة، كانت على يقين أن الشجة التي تجري من مؤخر عنقها لمؤخرتها أخذت تبهت، بهتت يوم التقاها الرجل في منتصف الطريق، أي رجل، نَفَتْ كلمة (رجل) حتى لا تظهر لوالدتها على مفرقها، من مكان غطيس جاء تعليقها باهتاً:

«شكراً لتذكيري». لم يُسعفها غيرُ تلك العبارة، وكانت كافية لتفجير

الموقف أبعد، قفزت الأم صوبها مُوشكة على افتراسها، لتتجمَّد في الهواء تتأملها، شيءٌ في صدر الأم تَمَزَّقَ، تجزمُ مريمُ بأنها قد سمعت ذاك الصرير، تأملت في مريم التي كانت في غمام، لم تعتقد يوماً أن تُشارك مثل هذه المرأة المنزوعة السلاح خندقاً.

«تُرى ما تُخفي الشَقَّةُ التي ترددين عليها في حيِّ الحمراء؟» تَجَمَّدَ الهواءُ في الحجرة،

«هناء ابنةُ عمَّتكِ كانت هنا، عن صديقٍ، عن زوجها، عنها، عن يعلمُ الله مَنْ أيضاً، تنتقلُ فضيحةُ غيابكِ المتكرر بتلك الشَقَّة. يعرفون جيداً صاحبَها». وظَلَّتْ مريم مُحوصلة في فقاعةٍ، من المستحيل خرقها بكلمة أو حركة، استسلمت لصمتها بينما مَضَتَ الأم تستجدي:

«من هذا الذي أخرجكِ عن صوابكِ؟» وتَضَخَّمَ الصمتُ بشكلٍ يُهَدِّدُ بانفجارٍ،

«أنتِ طافية لكأنما في سماءٍ خارج هذا العالم». أَعجبتْ مريمُ مُفْرَدَةَ الطفو، شَعَرَتْ بجسدها يطفو في هذا السِرِّ الذي تَأَكَّدَ الآن وبعنفوانٍ وبلحظةِ افتضاحهِ، لو تعرف أمها الحيوية التي تتدفق من كلماتها في الفضيحة، كانت الأم لا تزال تصرخ، لصوتها شرخ مثل لسان أفعى صَعْقَتُه أَبْلَغُ من ألمه، لو أنها تُعَرِّض وتُعَمِّق النبرةَ لَتَسَبَّبَتْ بألم أبلغ.

«تَخيَّلتِ أنكِ تتخفين! أفيقي، رأسُكِ في السحاب لكن عيونهم على جسد النعامة! عرفوكِ رغم النقاب على وجهك، لجسدكِ لغةٌ يعرفُها كلُّ مَنْ وَقَعَ بصرُه عليكِ، مثل دمية خزف، أنتِ إعلانٌ متنقل عن الهوية، أنت فضيحة متنقلة!!!».

– «بعد أبي ليس لأيٍّ منكم الوصاية على سمعتي». العبارةُ صَدَمَتْ مريمَ قبل أن تَبْلُغَ والدتها، تراجعت الأم، بدا جسدها مثل قنفذٍ منتوف الشوك، مقذوف ومُتَكَوِّر في كتلة لحم مجروحة، وانفطر قلبُ مريم شفقةً، كادت تنهض لتأخذ والدتها بين ذراعيها.

«اسمعي، أبوكِ لم يَمُتْ بَعْدُ، لم يَحِن بَعْدُ انفرادُكِ بالسمعة والسلطة!».

«لم يَمُتْ!! فما الفرق بين قَبْرٍ ومَنْفَى حجرةِ المستشفى التي تآمرنا جميعاً لنسيانه فيها؟» جَحَظَتْ عينا الأُمّ في مريم، وتَقَاطَرَ الزمنُ حولهما، كان بوسع تلك العين حبسها وإلى الأبد في فزعها، ثم تَدَفَّقَ الصوتُ الأجشُّ ليُحرِّرها من جحوظ العين.

«أنتِ أيضاً لن تُغادري هذه الحجرة، هنا سجنُكِ، ولن تغادريه بعد الآن إلا للعمل وبرفقتي، أخفركِ في الذهاب والعودة...» ضحكةُ مريم جاءت مشدودة بين الشفقة والغضب، وقد أدركت ما وراء النبرة، صوتُ الأم غاص ملبوساً بأبخرة العود وسلطة الأخوة، صوت مسكون بقبيلة ذكور.

- «ياللمهزلة، أمي، أتعرفين من أنتِ، أنتِ الضحية الأزلية في هذا البيت والآن تريدين مُبادلتي الأدوارَ وتَقَمُّص الجلاد!» تحاشت تلك العبارة، بتاريخ الضعف فيها، في لمحةٍ بدت حجرة مريم هشَّة وقد غادرتها الأم، جدرانُها من فقّاعةِ ذاك السؤال الذي أخذَ يَتَمَدَّد (من الرجل؟).

وحيدة في حجرتها بَدَتَ لها أحداث الساعات الماضية مثل وهم، شَعَرَتْ مريم بخلخلة الفراغ حولها، مهزلة أن تتحول لسجينة عار، وفجيعة أمها تحفرُ في صمت الحجرة:

«لم يَمْضِ على طلاقكِ عام!!» كَمْ هو الزمنُ المُبَاحُ لِنَقْضِ رَجُلٍ وإقامةِ آخرَ؟ صوتٌ انبثقَ يُوَبِّخها:

«مريم التي أعرفها لاتليق بهذا المشهد، مُتَسلِّلة لغريبٍ بينما العيون ترصدها وهي في غفلة». وألَحَّ السؤالُ،

«مَنْ الرجل؟» لم تجرؤ مريم على مقاربة السؤال المنفلت في

الحجرة، لَو لاحَ الاسمُ في رأسِها لَقَبَضَتْهُ تلك الآذان المتربّصة، لَلَمَحَتْهُ تلك العيون، أحقاً هناك رَجُلٌ؟ وتُخفيه في سِرّ؟

«من أين تَخَلَّقَتْ تلك الفضيحة؟» نَبَشَتْ مريمُ في الكتب على الرف الأعلى بمكتبتها، في تلك المجلدات الخضراء تنامُ مراسلاتُها وبدر، وتلك الورقة الأخيرة التي تَشَاطَرَا سِرَّها.

«يقفُ شَعْرُ رأسي لِتَخَيُّلِ القفزة التي حَمَلَتْني لها مثلُ تلك الورقة». أخرجتْها من بين الصفحات، ورقة شبه رسمية، لا تجرؤ على قراءتها في بيت العائلة، شياطينٌ ستندلعُ من تلك الورقة، كُلُّ رؤوسِ الذكور ستنبثقُ لفضح سِرِّها، وبالذات كهرباء أبيها ستتحوَّلُ لصاعقةٍ تحرقُها والورقةَ، لم تجرؤ على فَضِّ الورقةِ واسترجاع ما فيها، تَحَسَّسَتْها بما هو أقرب لِلَّوعَة، في مثل هذه الورقة إجابةٌ وصدمة، ورقةٌ تَفْتَحُ لها شَقَّةَ الغريب، دسَّتُها بعنايةٍ في المُجَلَّدِ وأرجعتْها للرفّ. على مفرقها بَهَتَ خيطُ النور المتسلل من الشقوق حول جهاز التكييف.

«أين يمكن لمثلي أن تختلق مثل هذه الفضيحة؟» صارت لحياتها وجوهٌ غيرَ الوجه النمطي الذي مرَّ بسلام وببساطة بعيداً عن أي إضاءةٍ مسرحية، الآن ومحبوسة صارت مشاهدُ حياتها مثل عروض برودواي جديرة بالترويج وراء شباك تذاكر للعامة. جلست بينما صدى عامٍ مضى يَتَرَجَّعُ في المدينة حولها.

****

أمام عينيها انبسطت صورةٌ لشوارع لندن، بلاكويل، في ممرات المكتبة العظيمة تَتَنَشَّقُ روائحَ الكتبِ بلا عدد، تمنح لكلِّ تَخَصُّصٍ رائحتَه الخاصة، تشعرُ برائحةِ الشِعْر مِنْ على بُعْدٍ، مثل روائح لحاء النخل حين يُقْطَعُ للتو، روائح الفلسفة مثل الصابون، تجعل شَعْرَ أنفك يَحكُّ. روائح الدراما من العنبر مُرَّة وخازنة لفحولةٍ، وبوسعك شرب سَفوفٍ منها مع

حليب الصباح لتقوى على مُدَاوَرَةِ الواقع. كتب الغيبيات لها زيوتٌ طيَّارة تنفذ مباشرة للدم عَبْرَ مَسَامِكَ. كُتِبِ الأطفالِ تُهَدهد مثل نكهة الفانيليا البيضاء. سلسة المراهقين لها عَبَقُ الشوكولاته المُرَّة. تستريحُ مريم لكتب الفن، تترك حولها بِرْكَةً من رائحة جدران الطين بعد المطر في قرى نجد، هنا، وسط مزيج الروائح التي - لا تَنتهك حِمَىَ بعضِها البعض - يبدأ إيقاعُ مريم بالانتظام، مع الكتب فقط تتحرَّكُ مريم وسط عقول تعرفها، تُجيد مخاطبتها، لا يعود يعتريها قصور. هاهي مريم في غاية غايتها، مستسلمة بكُلِّها للمكان، (بلاكويل) المَبنى الضخم المرموز له بعجلة سوداء ضخمة (ربما هي عجلة التوق البشري للمجهول) يَعجُّ بالأفكار تشعر بها مثل أعاصير ودوامات تسري بجسدها وتشحنها بنشوة،

- «عقولُ المبدعين ليست كقلوبهم، لا تخذل...» طردت اسم بدر الشاعر والرجل الأول الذي نَفَذَ لقلبها دون طَرْقٍ، اخترق مثل فيروسَ لتجده هناك بينما كانت تغادر مراهقتها، مجرد التفكير في تقلباته القلبية تكسر الإيقاع داخلها، لن تستسلم الآن إلا لهذه العقول الجبارة والقادمة من آلاف السنين والذاهبة لخواتم التاريخ، افترشت الأرضَ، دَخَلَتْ دورةَ العجلة الجبارة، وبدأت تنبش في الأرفف، حولها شُبَّانٌ من كلِّ الألوان والأجناس يستغرقون في الكتب، الزمنُ واقفٌ في الخارج بينما الرؤوس والعيون تذهب في رحلاتها الطويلة، بدافعٍ خفيٍّ اختارتْ رائحةَ الصندل، هذا الصف من الأرفف بالزيوت الطيَّارةِ عن الروح والنَفْسِ، حاجةٌ ما قادتها اليوم لهذا الركن، لم تعرف عم تبحث بالضبط، لكن عينها تعلقت بالعناوين: (السلام موطن الروح الأخير) (الوسيط اللامرئي للعالم: الروح) (نحت وهندسة الأنا) (الغناء البدائي: صلاة الأولين) (الأسماء كمروِّض للذات) (اسمك وعاء الآخرين)، كلُّ عنوانٍ رسالةٌ شخصية موجهة إليها، كان بوسعها الجلوس هكذا للأبد تستنطق الأسماء، رأت أنها والأحياء حولها مُعَلَّقين في قطرة ماء بحجم الكون، بينما القطرة تفقد

صفاءها أو تُعزِّزه استجابةً لموجاتهم الروحية، وأن مشاعرَها السلبية تُسهمُ بشكلٍ جَلّي في ذلك التعتيم والتشويش.

«إن الطاقة المنبعثة من فكرةٍ طارئة برأسك كفيلة بإشعال حريقٍ فعلي أو إخماده...» تقرأ وتنساب برأسها صورُ أبيها، هكذا كان يتربع بها في حِجْرِه، ويحكي لها قصة الأمير الصغير لسانت أكزوبيري. كيف رَسَمَ كوكبَه وكائناته، الأمير الصغير هو حَجَرُ الفلاسفة الذي أقامت عليه عالمَها بأعمدة حكمته السبعة، حشرت الأميرَ الصغير بزاوية قلبها وصارت تقيس عليه المخلوقات، تبحثُ عن رجلٍ تَخْرُجُ من خطوطهِ الكائناتُ والعوالمُ، لتنتهي هكذا معزولةً مع حَجَرِها الصغير أو أميرها.

فَتَحَتْ لقلبِ كتابِ الغناءِ البدائي، واجهتْها تلك الصلاة التي يلجأ إليها الكهنة لتحريضِ الطاقةِ الجبارة لدى الشباب في طقس بلوغهم، تلك الصلاة هي آخر ما يسمعونه قبل دخولهم للعزلة في الغابة، وهي كل ما يرافقهم في رحلاتهم لاكتشاف الذات، ليس غير التعويذة يغتذون عليها يشربون عزائمها ويمضون في صومهم حتى تَخْرُجُ للشابِ نَفْسُه الحقيقية، عندها يعرف الحيوان الذي هو مجبول منه، خَطَرَ لمريم أنها مجبولة بلا شك من حيوان خفيف:

– «حيواني يصعدُ الشجرةَ بقفزةٍ واحدةٍ، لا ليس نسناساً وإنما أشبه بالسنجاب، ما أهمية سنجاب في التركيبة الكونية؟ يُضفي على الناظر بهجةً، إحساساً بالخفة، ما أهمية الخفة على الأرض؟! ربما فَرْطُ الثُقلِ يُغرقُ الأرضَ في ذاتِها فلا يعودُ بوسعها حَمْلَ المزيدَ منا...» أغمضتْ عينيها، تَتَبَّعَتِ تلك الكلمات التي تتحدثُ عن النارِ التي تصيرُ للمُحَاربِ عيناً تكشف له المسافاتِ وجناحاً يطيرُ به، النار التي تخرج من القلب وعليه أن يتبعها لكهفها في السماء، ويَحْذَرُ فلا يقع في جحيم النيران التي تقابله على الطريق،

– «بينما لم تُواصِل ناري رحلتَها، كان من السهلِ تضليلها وإغرائها

باتباع نيران هَوَت بها لا أعرف أين...» تابعت مريم الصلاةَ، كانت تبحث عن كلمة تُنقذ الروحَ في حالةِ ضلالها وتَعَثُّرها... لم تَعْثُرْ إلا على صوت:

(إيماهو هاي هو...) ذْكَّرَها بصوتِ (إلا هو) من تلقائه كان نَفَسُها يُرَدِّدُ ذاكَ الصوتِ/ اللهّاثِ، شَعَرَتْ أنها بحاجةٍ لتقف في الخارج وترفعُ أنفاسَها بذاك الصوت، ستشعرُ براحةٍ، لأن رابضاً داخلها سيضطرُ للمغادرة، سينزلقُ في الصوتِ اللهاثِ ويُخليها للسنجاب البالغ الخفة، في تلك اللحظة تَنَفَّس الصوت على مؤخر عنقها،

«إيماهو هاي هو...» دقّةٌ عملاقة انحشرت بقلبها ودارت بجسدها 180 درجة،

«بدر!!!».

«أأبدو كشبح؟!!».

«وفي وضح النهار يُكلمني...».

«لا تُفصح الأشباحُ إلا لساحرة مثلك، بهذا المعطف الأسود الطويل والشَعر الخمري يغمرك كوشاح...» تَأَجَّجتْ خِفَّتُها، بخطواتٍ راقصةٍ غادرتْ أمامه بلاكويل، قَطَعَت الطريقَ، كانت تُحَلّق فوق رؤوس العابرين، تنظر لهم من عُلّ، ويلهث للحاق بها، لهبٌ في خفَّتها يضطرب،

«أقصى أحلامي أن ألتقيكِ على طريقٍ وأطاردكِ متغزلاً...».

« تَتَرَصَّدُني؟».

«بل هو زُحَل غَادَرَ برجي ووضعني هنا، كان يجب أن أعرف أين أتَرصَّدُكِ، على أبواب مكتبات العالم...».

«أجئتَ بحثاً عني؟» صَدَمَها سخفُ سؤالها:

«مذ وُلِدتُ...».

«أنا جادة..».

«وأنا...».

«حاسَّةٌ ثامنة خطَّطَتْ للقائنا هكذا، وفي لندن، ولأول مرة بعد أعوامٍ من المعرفة مما وراء الحُجُب؟».

«أنا هنا في مؤتمرٍ للشِعْرِ، آخر ما خطر لي أن ألتقي جنيتي في هذه البلاد الباردة، توقعتُ أن يكون لقاءنا الأول - وجهاً لوجه وبلا سرقة ولا رقيب - في الربع الخالي مثلاً بقلب عبقر وجانه...».

تَوَقَّفَتْ، فَقَدَتْ مشيتَها في الهواء، اصطدمت بها أجسادُ مارَّةٍ مَرَقَتْ دون أن تُلقي عليها نظرة، فجأة صار السير معه على رصيفٍ فعلاً مُحَرَّماً.

«سأتركُكَ الآن، إنهم بانتظاري...» متجهة لإشارةِ قطارِ الأنفاقِ، كان إلى جوارها،

«تذهبين هكذا دون أن أعرف أين تقيمين؟».

«أسافر غداً للضواحي، ولا عنوان لي بعد...» تَعَزَّزت الحُمرَةُ على وجنتيها درجةً أعمق، كلاهما يعرف أنها تكذب:

«أُرافقكِ إذاً في القطار، أينما ذهبتِ أذهبُ حتى تبلغين غايتَكِ ثم أخليكِ وأرجع...» بدأتْ خِفَّتُها تَثْقُلُ مع أجواءِ الأنفاقِ العابقةِ في أحشاء المدينة من صمتٍ وعتمٍ وإضاءةٍ اصطناعية، بلمحةٍ كانت يديها بين يديه وجرَّها للعربة الأقل ازدحاماً، تجنَّبت المقعدَ الوحيد الخالي، ووقفت إلى جواره، تحررت يدها للامساك بالعمود بينما أغلقت أبواب العربات:

«أما زلتَ نِصْفَ الرجل؟» وطَغَتْ صَفَّارةُ القِطَارِ على السؤالِ. تأمَّلَ فيها طويلاً، لم تَعُدْ واثقةً ما إذا كان قد تَلَقَّى السؤالَ، إلا أنه بَقي هناك مستنداً بجذعه لجدرانِ القطارِ يتأملُ في وقفتِها إلى جواره. لم تجرؤ على تكرارِ السؤالِ، تَجاهَلَت نظرتَه، تَجاهَلت الرسالةَ وراءَ النظرةِ، ليس لوماً على الإطلاق وإنما مسافةٌ، درب لبَّانةٍ يُفْتَحُ لها في تلك النظرة لكي تذهب لآخر الكون:

«لا تَكفِّين عن الذهاب، لحيث تنتمين، للكائنات التي تشبهكِ والساكنةِ للغيب...» من السُخف أن يُؤكِّدَ لكِ أحدُهم أنكِ من كائناتٍ غيبية، ابتسمتْ، عرفتْ أنها ابتسمت من انعكاس ابتسامتها على وجهه، اللمعةُ في النظرةِ جَعَلَتْ وتراً داخلها يتقلَّص، رَفَعَتْها خفةٌ لا كالخفة، خفة تُتوقُ لمن يُثقلها، اصطدمتْ بسقف القطار مثل بالون مُعبأ بالهليوم وتتأمل في العربة تفرغ وتتعبأ بالأرواح والأجساد والعَرَقِ، بعضُهم يترك روحَه وراءه ويهبط في محطةٍ سابقةٍ لحلمه، المحطةُ الخطأ تَتَرَبَّصُ بالمسافرين في عجلة!

انشغلتْ بتأملِ المحطات، تنزلُ عادةً في أي محطة وتخرجُ للنورِ وتتجوَّل، هايد بارك، تَحَرَّكَتْ ولَحِقَ بها، من الممراتِ والأنفاقِ الأرضيةِ اخترقتْ للحديقة، تَلَقَّتْهما الخضرةُ اللانهائية، افترشتْ الحشائشَ، وبِصَمتٍ انضمَ إليها.

«وهذا لا يعني أنني لا أُحبُّك بكامل كياني، هنا حيث لا نصف، ليس إلا الواحد الكل...».

«لسنا في مقامٍ يسمح بهذا الآن».

«لا تخشيني، أنا والآن لا أطمعُ بشيء، ولاحتى بكلمةٍ منكِ، فقط أن تَمْضي بنا هذه الخضرة حتى تتحول كلُّ عُشبةٍ للأبيض وتذوي، حتى تتحول آخرُ شعرةٍ برأسي للأبيض، لو أشيخ معكِ ونحنُ في هذه البقعةِ أموت قريرَ الروح...».

تَشَاغَلَتْ بالكتاب، تَرَكَتْ إيقاعَها يسترخي حولَ مادةٍ غير مادةِ الشاعرِ إلى جوارها، كان يتكيء بحيث تكون هي في مسقط الصور التي تأتيه عن الحديقة، لم تشعرْ بحاجةٍ إلا للاستسلام لإيقاعها الداخلي، هذا الصامت المنبسط مثل بقعة الأخضر،

«نصف رَجُلٍ، هذا أنا، ولا أرضاه لكِ...» انبثقت تلك العبارة من لا مكان، كان بدر قد قالها حين وقع في حبها، بعد عشرة أعوامٍ من زواجه

المستقر جاء بدر ليسكنها، أو لعلها استحضرته لتتحصن باستحالته، التقت به في مهرجانٍ للشِعر بأصيلة المغرب، أصغت لشعراء من كلّ قُطْر حتى جاءت قصيدته، كلُّ بيتٍ ألقاه فَتَحَ لها بابَه لتدخله، لأول مرة يُؤويها بيتٌ من حميمِ طينها، كلُّ لَبِنةٍ فيه تُدفئها لتحكي لها سِرَّاً تعرفه عنها، من أعمق دخيلتها، من توقها وخوفها وبلوغها، لم ترَ نفسها قط بذاك الدفء في مرآة آخر، لم تر من قبل هذا الذي يُدوِّخُها! بختامِ اللقاء سارعت تُحييه، الكلمة الأولى التي نَطَقَتْها أوقعت قلبيهما في الشَرَكَ،

«أنا أعرفُكَ!» لتجاوبها قصيدتُه:

«حتماً حتفي!» بذاك الإيجاز استحضرتْه ليسكنها وتسكنه، بعدها، وكلُّ مجلدات الرسائل التي تبادلاها لم تفعل غير ترجمة ذاك الإيجاز، إعادة صياغته وتركيبه في تكوينات خارقة من القُربِ والانتماء، صار لها بيت من لحمٍ ودم تأوي إليه لتكون الروح التي تبعثه للحياة ويبعثها، صار لها قبرٌ تموتُ فيه وتُبعث.

«وبعد وصول الحَيِّ للحيوان المجبولة منه خامته، يصير عليه البحث عن كماله الأرضي، جِرَابٌ يَنْشَقُّ من جسدِ الرَجُلِ ليُخَلِّقَ كائناً هو القرينة، وبانشقاق الرجل عن قرينته يفقد كماله..» قرأتْ مريم واسترجعت الحوارَ الذي دار بينها وبدر:

«أيمكن للإنسان أن يقترنَ بنِصْفٍ غيرِ نصفِه الطالعِ منه، المُحَقِّقِ لكماله؟ أَمْ أن كُلَّ مَنْ نرتبطُ به هو نصفنا بالضرورة؟».

«ربما نخطيء في العثور على كمالنا فنقترن بالنصف الخطأ، لكن وفورَ مُواجهةِ النصفِ الحقيقي لا يعود بوسعنا تجاهله...».

«أو ربما هناك كائناتٌ لها أكثرُ من نِصْفٍ.. في حساباتِ النَفْسِ نجد (الواحدَ) لا يتكون فقط من نصفين أثنين، ربما من أربعة أنصاف أو خمسة...» ضحكَ بدر بدهشة:

«أي أنكِ تؤيدين التَعَدُّدَ...».

«وما تفعله أنتَ، أليس ممارسةً صريحةً للتعدد؟».

«صلتي بزوجتي مما لايمكن فصمها، الأطفال الآن هم اللحمة التي تربطنا..».

«فلِمَ تحشرني شوكةً غريبةً فيها؟!».

«حُبُّكِ لا خيار لي فيه ولا سلطان لي..».

«ومع ذلك بارع أنتَ دوماً في تحجيمه...».

«تحجيمُ العلاقةِ اليومية، الاحتكاك اليومي، الأرضية التي نتحرَّكُ عليها، أما حُبُّكِ فمُسْتَشرٍ بكياني مثل وباء لا سبيل لطرده أو مواجهته أو ترشيده...».

«أي أنكَ تُريد فِعْلَ التدفئةِ لا التكبل بمدفئةٍ إضافية، على الطريق تحرق مني حطبة هنا وحطبة هناك لتشحَذَ ركودَ مشاعركَ ومخيلتكَ..» تعرفُ أن مثل هذه التشريحات تؤلمه وتؤلمها، لكنه ودوماً يلجأ للتراجع،

«أظلُمُكِ بهذه العلاقة، أعرفُ، يشهدُ الله أنني لم ألهج بكائنٍ كما ألهجُ بكِ، لكنني وأبداً لم أعتبرني حجاباً يحول بينكِ والحب الكامل...» تحجيمه للأرضية هو صمام الأمان الذي يحرص على إغلاقه، فلا يتسرب منها لواقعه أو من واقعه إليها، يأتيها كما الحلم حين تتوفر الشحنة النفسية القادرة على تجسيده، لكن ليس لها من سلطان عليه، ليس بوسعها أن تغمض عينها يوماً وتستحضره، يحضر من تلقائه محملاً بما شاء من الدهشة أو المرارة أو البلادة أحياناً أو يغيب ما شاء الغياب. فما الذي أوقعها في عشقه؟ سَبَقَها للوجود بخمسة عشر عاماً، فما أن بلغت العشرين حتى لاحَ بغتةً ليحجبها،

«جاء لِيَتَخَفَّفَ بعشقي...» ظهورُه المباغت أفقدَها توازنَها.

«من ذا الذي يستطيع أن يُقَاوِمَ نُضرةَ العشرين...» لذا التصق بقلبها مثل سوسة تنخره ليمتص خمس سنواتٍ من عمرها.، حَمَلَها لعمر الخامسة

والعشرين وهي كاملة العجز عن اتخاذ خطوةٍ تجاه آخر.

****

ساعات من الغناء البدائي، أنفاسُها بدأتْ تَتَهَدَّجُ وِفْقَاً لتلك الترانيم والصلوات، الريحُ تُصلّي، حفيفُ الشجرِ، رقرقةُ البحيرة بين الأشجار، الدهشة في حناجر الطير المخفي، وَقْعُ الخطواتِ على الحشائش الجافة والطرية، إيقاعُ ماءِ العشبة غَيره في جفافها، تَدَاخُلِ إيقاع الماءِ مع الشمسِ له فِعْلٌ مُخَدِّر، الكونُ قائم في صلاته البدائية قبل الخليقة، أغنيةُ الطينِ أقدمُ من كلِّ أغاني البشر، حين ترقط العشب بالأجساد تنبَّهت لأغنية الطين في جسده المدموغ بالحشائش، كان بدر لا يزال صامتاً، بنصف اغماضة كان لا يزال يُثبتها كمُرَشِّحٍ لما يأتيه من العالم، أتحدَ إيقاعُ أنفاسهما، لكأنما يبدءان سباقاً للألفيِّ متر، وعليهما التوفيقَ بين إيقاعيهما ليواصلا التقدُّمَ للأشواطِ الختامية بثبات، بلا لهاث، مع أن اللهاث هناك، تشعر بحرقه من الدرجة الثالثة ببطانة جلدها، تختلج له أغنية العشب تحتها وعلى كاحلها الدقيق المكشوف الآن وعلى مطالع ساقيها. لم تشعر قط بمثل هذا السلام، بساطة الجلوس هكذا إلى جوار كائن يعرفها، يتبناها كأجمل ماتكون، يراها مما تحت الجلد، يصل منها للأجمل والأكثر قرباً، يجعلها ترى نفسها الأجمل، بلا حاجة لكلام أو تبرير، بوسعهما الجلوس هكذا والاغتسال بهذا الكمال، لم تشعر قط بكمالٍ يُضاهي كمالها في هذه اللحظة.

«ليس في هذا الوجه غير نفاذ العينين، مما يجعلُ الإفلات منهما مستحيلاً». فَكَّرَتْ مريمُ بصوتٍ مسموعٍ، أيمكنُ أن يَتَلَخَّصَ الوجه في عينٍ، ويصير فاتكاً بهذا العنفوان، لا تَحتاجُ أن تعشقَ أكثرَ من عينٍ في وجهٍ، لا تحتاج إلا عيناً تعشقكَ، لأن العينَ تقولُ كلَّ شيء، بينما اللِّسانُ يُخَاتِلُ، يأخذُ لمَوَاطِنَ غير التي تُخبئها النفسُ، أما العينُ فسردابٌ يقودُ

بخطفةٍ للمخبأ، في عين كهذه تستطيع أن تُمسك بالحياة، تتلذذ بتحرير مافيها من جِنٍّ وماء.

«مؤخراً بدأ الطنينُ بأُذني، أشكُّ بأنني أفقدُ سمعي، ماذا لو اتضح أنني معرضة للصَمم كما حدث لأبي، أجبنُ حتى عن مراجعة طبيبٍ للتأكد، ولا أعرف أين ينتهي بي هذا الأمر، أنا خائفة!».

من حيثُ لا تدري نَطَقَ ذاك الضعف، لأيام حرصت تنفردُ برعبٍ أن العالم ينغلق دونها، وأن في الأفق نقطة حين تبلَغها تنغلقُ الأصواتُ ولن تعودَ ذات الشخص الذي يتلذذ بالنبرة وما وراء النبرة، الشخص المكشوف لبصيرته الكلام، الكلام، الضحكة العالية أو الخفيضة، التنهيدة لن تجد طريقها إليها، حظَّرَتْ حتى التفكيرَ في الأمر، حتى أمها أبقتها بعيداً، معرفةُ الآخرين ستعزِّزُ هذا الفيروس الرابض على سندانها وطبلتها ويعزفُ مقطوعةَ الصمتِ التي ستطغى رويداً رويداً على المعزوفات، وتجرفها وراءها لحيث لن تطلع، لعنةٌ ما انتقلت من الأب إليها.

«إسمعي مثلك لا يمكن أن يكف عن التقاط أصوات العالم".

«عاملُ الوراثة ربما لاسبيل لتفاديه».

«ما الذي تمَّ مع أبيكِ؟ هل من علاج؟».

«لا سبيلَ للتحكُّم بالتدهور، في النهاية هناك السماعات التي تُضخمُ العالمَ وتقودكَ للجنونَ».

«نبرةُ الضحيةِ نشازٌ في صوتكِ، نظرتُنا للمعوقات هي التي تجعل منها مدمرة أو باعثة، مامِنْ عائقٍ يُغْلِقُ دونكِ العالمَ، أنا لا أتخيلُ أن أُسْلَبَ متعةَ أن تسمعيني». هذا الصوت هو الأجمل في معزوفة الكون، دوماً أَسَرَها، مهما قال يجيء طاغياً بهذه الخامة الغنية، خامةٌ من مخملٍ تهدر بالعصب، ربما لو ظَلَّ يتحدث هكذا فلن تجرؤ على فقد سمعها، لولا يصمت لكَفَّتْ معزوفةُ أبيها على طبلتها.

«مرعبٌ هذا التَوَقُّع للصمتِ، لكأنني أتقدمُ مسلوبةَ الإرادةِ صَوبَ

غيمة، حين أخترقُها سيخرسُ كُلَّ شيء، وأكون فيها وحدي».

تَقَلَّصَ عَصَبٌ على صدغه، ذاك البريق قَدَحَ على وجهها، جحافلُ محاربين سَرَتْ من نظرته لوجهها تُحاربُ الغيمةَ، يعرفُ حاجتَها لِنُطْقِ الغيمةِ لتجسيدها خارجَ قلبها، خارجَ منطقةِ الهشاشة، منطقة الرعب.

«حين بدأت حاجتي لنظارة قراءة عرفتُ نعمة أن اقرأ بلا حاجة لآلة خارجة عنا، حين يقومُ الجسدُ بآلته من غير أن يحتاجَ آلةً خارجةً عنه يَفْقِدها فيقعُ فريسةً للعجزِ، السمعُ ربما هو أعظم الحواس لأنه يقرأ العالَمَ في العمق، في منطقةٍ أبعدُ من كلِّ المناطق التي يمكن أن تصلها العين، الشم يليه...» يحلو لها أن يستطرد هكذا وراءَ مُجَرَّدٍ، وراء نظريةٍ يتشاغلان بنقضها أو ترسيخها. «لذا يَتَخَلَّقُ سمعُ الجنين في شهره الخامس ليلتقط الموسيقى كإبن الأربعين، يبدأنا السمعُ مبكراً ويُغادرنا متأخراً، ينتظرُ السمعُ لِما بَعْدَ مُغادرةِ المشيعين للميت، يسمع حتى ما وراءَ الخاتمةِ لِوَقْعِ نِعَالِ المشيعين».

«وربما لما بعد، إذ يَتَلَقَّى السؤالَ والحسابَ...».

«وربما يتحول كاملُ جسدنا لسمعٍ، فنسمعُ بأطرافِ أصابعنا وبظهورنا الغارقة في التراب».

«كما أسمعكِ الآن من عيني لآخر غَرْقَةِ أطرافي في العشب...».

«لم يخطر لي أن ننفرد يوماً هكذا تحت سماءٍ وأشكو لكَ ضعفي...».

«أنا من ضعفُكِ كما جمالُكِ، كما قوتُكِ».

«لا يجب أن نلتقي هكذا».

«أطمعُ ألا تفارقينني، لكنني أعرفُ أنني لا أملكُ منكِ غير هذه اللحظات، لذا دعينا لا نُثْقِلُ لحظاتنا بما يجب ومالا يجب. دعينا نَلِجُ للأقصى في الآن». غَزَتْ جسدَها رعشةٌ ألجمتها.

أحاطهما تغريد طيرٍ غريب، غناء يفتح الجسدَ لما حول فلا تعود

بينهما مسافة، رذاذُ غيم وشمس كان يسقطُ من أعلى الأشجار ويجمعهما في وَجده. نظرتُه في عيْنها كانت تطلبُ الإذنَ، ولم يرفع بصره صوبها، صار على خطِ الأفق ويحملها لتجاوز لحظة الضعف/ لحظة الجسد تلك.

في لمحةٍ قامَ وجَرَّها من يدها، على بابِ الحديقةِ كانت سيارةُ الأجرة، صعدا على عجل، لم تشأ أن تسأل إلى أين، انتهيا أمام صالة البرت هول رويال حيث حفلات (البرومز) الموسيقية، لم يكن يملك تذاكر للدخول، طوابيرُ الداخلين تجعلُ من المستحيل التفكير في الاقتراب، راح يتمعن في الواقفين، رجالٌ أقربُ للتشرد يتسكعون بجوار طوابير عاشقي الموسيقى الأنيقة، أحدهم أقترب منهما،

«المقاعد الجيدة تحتاج من يدفع».

في لمحةٍ حَصَلَ تَبَادُلٌ بين بدر والمتشرد، وكانا في مقدمةِ الداخلين، القاعةُ مرعبة في جمالها، المقاعدُ تتسلَّقُ بحمرتها الجدران الدائرية، واقفة في السماء، الناسُ حين احتلوا مقاعدهم بدو مثل نقط معلقة هي الأخرى في الجدار السماوي، ومن قلب تلك الشلالات البشرية صعدت الموسيقى، صوتُ الأسطورة أريثا فرانكلين ينوح بالشموخ المذهل للخالقِ، أغاني (القوسبل) الدينية التهبت صاعدة للجدران والحلوق صيِّرت القلوب لهباً، للمحة لم تعد تلك الصرخات من جريان الحيوان تأتي من الأذان كانت تطلع مما تحت قدميٍّ مريم، تهدر دَاخِلَةً جسدَها من كلٍّ مسامه.

«هنا ليس بوسعي أن أصاب بالصمم». شدَّ بدر في تلك اللحظة على يدها، للمحة وتَلاشَت يده، تركتْ وراءها تياراً يتقدُ وتيارَ الموسيقى. في الحلبة في الأسفل شيوخٌ وشُبّان يقفون في طقسِ تضحيةٍ، يقدمون أجسادَهم حطباً للموسيقى.

ما أن غادرا للطريق حتى بادَرَها،

«لاتتوقفي، دعينا نسير كل هذا الليل والمطر، أرجوكِ. . .» بدا لها

مثل غريقٍ يتشبثُ بقشَّة، هي أيضاً تُجاهد للطفو في تعقيدات تلك العلاقة التي لا تقود لمكان، انتهى بهما المطاف في ليستر سكوير، مسرح التسول المحترف، حيث فرق الممثلين والعازفين وحلقات الرقص الأفريقي تُقَدِّمُ عروضها وتطاردكَ قبل أن تجرؤ على التلاشي دون أن تدفع، أي شيء يكفي، بنساً، جنيهاً، عملة أجنبية أي شيء يُشخلل في قبعةِ الطائف بالحشود.

حين أقبلَ بدرُ بمريم كانت حواجز قد أقيمت أمام سينما الأوديون، وجمهورٌ عريض مصطف وراء الحواجز بدفاتر صغيرة، بقبعات جاهزة للتوقيع، بمناديل، بأية قطعة ورق، وكانت عربة التليفزيون تُعلنُ عن وجودَها وسط الساحة، وفريقها من المقدمين يراجعون أصباغَ وجوههم مع عاملة للتجميل تروح وتجيء تُجَدِّدُ طبقةَ الكمودِ على أنف المذيع الرئيسي والأكثر وسامة،

«هو تدشين لفيلم Kill Bell أقتل بيل» كل شيء بالأصفر كثياب البطلة المقاتلة، وكان يتصاعد بانتظار ظهور النجوم الذين سيتركون توقيعاتهم ولمعتهم حسرةً بقلوبِ الحشد، ثم ينضمون لجمهور العرض الأول للفيلم في لندن. تسَكَّعت مريم تتأمل في الحشد، وبَادَرَتها عجوزٌ مدسوسة في الحشد بلكنتها الاسكوتلندية،

«أنتِ مثلي حضرتِ على غير أهبة، لا ورقة لنا ولا قلم، لكنني أنوي أن أشارك الجمهور جنونه، حتى لو اقتضى الأمر حصولي على توقيع - لا أعرف من - هنا على جبيني ولن أغسل وجهي بعدها». ظَهَرَتْ واضحة سخريةُ المرأةِ من هَدَفِ تلك الوقفة، ضحكت مريم: «برأيكِ، أيصلح هذا المعطف الأبيض للتوقيع؟».

«لا يا عزيزتي، الجلد أكثر حيوية وحرارة ليحتمل برودة توقيع مثل هذه النجمة المسكينة، من هي؟ لا يبدو اسمها مألوفاً لي؟ أم لعلني أيها الشاب الوسيم أنا الخَرِفَة؟». موجهة سؤالها لبدر بإعجابٍ واضح: «لا يا

سيدتي، لا أعتقد، بيقيني أنكَ ألمع من أن تفوتكِ هويّة نجمةٍ حقيقية».

و ابتعدا منِ أقصى الساحة نَادَتْهم طبولُ تلك الفرقة الأفريقية، رجالٌ من برونز بأجسادٍ بالغةِ الكمالِ وبالأقل من الثياب، لا شيءِ يستر كمالهم سوى تلك الأربطة على عوراتهم، عدا ذلك فلم يكن من كِساء غير طبقات الوَدَعِ الأبيض على صدر الراقصة بلون خمري فاحم السواد، طبول تدويَ وتُدوِّخ، استجابت لها أجسادُ دائرةِ الجمهور، أطلقت لجنونها العنان، اندفعت فتياتٌ للمشاركة في الرقصة:

«هذه الأجساد تُذَكِّرني بحيوانٍ في رقصة حبٍّ، وتُثير في نفسي لوعةً لم أعرفها في نفسي من قبل».

«من هنا جئنا، من هذه الأجساد المنفلتة بين البشر والحيوان، تلتهم المسافة والحركة والوجوه والرغبات المحيطة...».

تمايلت مريم مع الأصوات القادمة من غابة قبل البشر، تسارعت أضواء فلاشات السيّاح يؤرخون لتلك القطعة من أفريقيا، أضواء كاميرات التصوير أججت التوق بعين مريم، لفَّ بدرُ ذراعه حولها وانطلق. بدأت الطبول تتراخى، كان على كل الفِرَق مغادرة الساحة للتمهيد للافتتاح، بدأوا في فضُ الحلقة حيث سيبدأ توارد النجوم، وبدأت إجراءات الأمن تُوسِّع دائرة حظر دخول تلك الساحة، تحرَّك بدر بمريم أبعد مخترقاً المضمارَ المفتوح عبرا (مثلجات هاجن داز) للزقاق الضيِّق يقود للمدينة الصينية بآخر الزقاق ولليمين وقفَ بها بدر:

«لنقرأ برنامج سينما الأمير شارلز الاستعادية...» كل الأفلام القديمة يمكن تَرَصُّدِها في هذه السينما الرخيصة والمكرَّسة لعُشَّاق الفن السابع، على يمين ويسار البوابة إعلانات الأفلام المعروضة خلال ذاك الشهر، وفي حاويات بلاستيكية مثبتة على الحائط قوائم بجداول العرض، على مساحة عريضة قابلتهما عينا الطفل في مساحة شاسعة من الأبيض يشقُّه حرفان يتداخلان (AI) الذكاء الصناعي .(Artificial Intelligence)

«ما رأيكِ، هو فيلم قديم لكن يستحق مشاهدته على شاشة سينما؟»
وَقَفَا بصبرٍ في الطابور الطويل لشراء التذاكر.

من السلالم الهابطة للقبو استقبلتْهما تلك الموسيقى التصويرية، كان العرض قد بدأ لتوه، موسيقى قادمة من أكوانٍ أخرى وتأخذ عميقاً في أصداء النفس المخفية. التقطت مريمُ أنفاسَها وفقط حين خرجا للميدان من جديد في مطر لندن، انسابت مع بدر في الرذاذ الخفيف، تركت خصلاتها لحبات اللؤلؤ الصغيرة، اعترته رجفةٌ حين أخرجت لسانها تتلقى دغدغة القَطْرِ، للمطر مذاق سماوي يوقظ شوقاً جارفاً، شَعَرَ بإطباقته في أطراف أصابعها، بحركة عابرة مسحت قطرة كبيرة عن طرف أنفه، أخذته فورةٌ تتدفق في جسده، شعر بخيط مِاءٍ ناري يمتد من اللسان الذي تلقف القطرة وحتى قاع جذعه، اضطرا للركض حتى المقهى (رانديفو)، جلسا وراء الزجاج يحتسيان الشوكولاته الساخنة ويراقبان المشاة يركضون أو يحتمون بمعاطف أو مظلات، أحمر أصفر برتقالي، امتلأ الميدان بألوان المعاطف الفاقعة والمظلات، حتى الآن لم يَنبس أي منهما بكلمة، من دفء الكاكاو تنفسَّتْ مريم:

«سحرتني الموسيقى التصويرية، تلك الأصوات لكأنما مدفونة بجسدي من دهور، في لحظةٍ من العرض أغمضتُ عيني وتلقيتُ الأحداث بموسيقاها، يا إلهي، خُيِّلَ إليَّ أنني ضالة في فضاءٍ سحيق، وتأتيني الأكوانُ والمخلوقاتُ لا بأجسادها وإنما بأصدائها العميقة، تعمدتُ ألا أُترجمَ كلمةً، أسمعها مثل موسيقى إلهية، هي أصوات مخزونة داخلنا، حين نسمعها تُعْزَفُ نعرفها، تعرفُنا المواطنُ المنسية التي طلعت منها، نعرف أشواقاً تُعذِّبُنا ولا تُفصح لِمَ ولمن...».

متشرد وقف بطاولتهما يقطر مطراً، لا يفعل شيئاً غير أن يبتسم، شعرت مريم برجفة، حريةٌ جامحة نادتها في ابتسامة ذلك المتخفف من الدنيا، مدت يدها لحقيبتها فسبقها بدر، ألقى بقطع من العملات المعدنية،

هزَّ المتشرد رأسه يمنة ويسرى، لكأن مراده لم يصلهما، القى على المكان والوجوه بنظرة أخيرة قبل ان يدس القطع في جيبه ويتوارى، استيقظ بجوف مريم توق، لكأنما حمل معه رسالة وغاب وقد فوتت فرصةَ قراءتها،

«غُربةُ الموسيقى من ذات غربة الإنسان عن قواه الخفية وذاكرته الأزلية...».

«فَرْطُ النورِ، وانفتاحُ المساحات، من هذا العصر لملايين السنين تجيء، من عالم البشر لعالم الآلة للدمار لعالم الطاقة التي تسري في حِزَمٍ تتشكل فيما شاءت من الأجساد...».

«اجعليني صبياً حقيقياً حتى تُحبني أمي ولا تُرسلني بعيداً!» تُقلِّد مريم صوتَ ديفيد الباكي يرجو حزمة الضوء التي أجابتْه: «لا يمكن لأمك أن ترجع، لأن ألفي عامٍ مضت وهي لم تعد تحيا...» عَلَّق بدر،

«رغبتُه أن تُحبَّه لم تمت، صَمَدَتْ لآلافِ الأعوامِ. كرغبتي أنا!».

«أليس آسراً أن يُبرمَج الواحدَ منا ليكون طفلاً ولا يفهم الكثيرَ من أحوال الكبار، فقط هذه الرغبة، رغبة أن تُحبَّه. بأي سحرٍ يمكن لنا نحن البشر الاستسلام لمثل هذا الحب البالغ البساطة، الحب الأولي، مثل أولية حاجتنا للغذاء والنوم والموت».

«عجيبة هذه الطاقة التي نسميها الحب، نُعيدُ تركيبَ الجسدِ وإحياءه من ذرَّةٍ، من نسيجٍ.. بوسعي استراجاعك من الموت برائحتك، هذه التي لا أكاد أقبض عليها لكنها ساكنة عميقاً فيَّ!» قَاطَعَتْه مريمُ بحماسة،

«أرجعتْها خصلةٌ من شعرها قَصَّها حباً فأخرجتْه من جَنَّتِها! إن فعلَ محبةٍ نقترفه بعفوية قد يتكفل بإرجاع مَنْ نُحِبُ، وإن أُسِيءَ فهمه في حينه...».

«فجأة أدركتُ أن رغبةَ حقيقةَ من دمية أو كائن أَحَبَّنا، أي أَيقَظْنَا مَحَبَّتَه الغافيه، أو تَعَلَّقنا به، كفيلةٌ بإرجاعنا من موتنا».

«مرعبٌ أن يُحذِّركَ الصانعُ فيقول: لا تُبرمج هذا الكائن، لا تحرك شفرتَه لتوقظه ككائن قابل للحب مالم تثق في قدرتكَ على تلقي محبته، على الاستجابة والإخلاص لها، لأنكَ وبمجرَّد برمجة عاشقَكَ وتسجيل أسمك في شريحة ذاكرته ورغباته فليس بوسعك التخلص من محبته وانتمائه...» قاطعها بدر:

«لكننا ونادراً ما نَحْذَرَ مَنْ نوقظُ لمحبتنا... دوماً نأخذ مشاعر الآخر كقربان نسفح دمه لتعزيز ألوهتنا، نفرح بها قرباناً لا نداً نبادله العصفة بالعصفة والأضحية بالأضحية، ننهلُ من محبة الآخر لنا بصرف النظر عن أهليتنا لتلك العاطفة، عن قدرتنا على المبادلة».

«فكرةُ الإحياءِ ليومٍ واحدٍ فقط أذهلتني، وتلك العبارة: إن نسيج الزمن يخزن معلومات عَن أدق تفاصيل ما كان في حياة الكائن الإنساني، ولكن لا يمكن استرجاعه إلا مرة واحدة، لذا فإن الذين أُعيدوا للحياة، لم ينجحوا في البقاء أحياء إلا ليومٍ واحد، حيث ما إن ينقضي نهارهم الأول، ويُغمضون أعينَهم ليناموا، ويَغيبون عن الوعي حتى يتلاشون في الظلمة الكونية، حيث لا يمكن استرجاعهم. لكأنما يوم اليقظة هذه هو رمز لكامل الحياة التي نُمْنَحَها على الأرض، فما أن نُغمضَ في ختامها حتى نرجع لسجلِّ الطاقة الكونية، يومٌ واحد يختزن كامل عمركَ، لو نجعل من أيامنا هذا اليوم...».

«احفظي هذا الوعد عنيّ...» تأمَّلتْ في تشكيلاتِ الكاكاو، هضاب وسهول وأجساد مثل تركيبات الطاقة فيما وراء البشرية وأزمنتها، بصوتٍ عميق كمن يقوم وجوده على ذاك الوعد هتف بدر:

«أملكُ منكِ ما يؤهلني لاسترجاعكِ حتى من الموت...».

تلك الليلة قطعا المسافةَ سيراً بطول البيكاديللي لنايتس بريدج. أمام هارودز خلاها وغاب، هناك وَقَفَتْ لزمنٍ بينما تَوَارَى خيالُه في شبكةِ الأنفاق. وَقَفَتْ تَتَلَقَّى ذاك الأخطبوط تَتَخَفَّفُ من وطأته، لَمْ يَعُدْ بوسعها

التَحَرُّكَ بعيداً، كادتْ تلحقُ به، فجأة فقدت المدينةُ سحرَها، أو فقدت مريم حدَّة حواسها، جزءٌ حيوي منها انسلخَ مع الذاهب، دمعة بقيت حائرة في شهقة النمر بعينيها، دمعةٌ فَقَدَتْ مَدَدَها، حاجةٌ للبكاء بَقِيَتْ تَجْرَحُ في جفافِ محجرها.

«ها هو يأخذُ المدينةَ التي أحبُّ ويذهبُ، لم يسلبني نفسي فقط وإنما المدينةَ التي ظلَّتْ ملاذي الوحيد». شوارعها، مقاهيها، صالاتها الفنية، متاحفها، أسواقها الشعبية، دوماً كانت المضمار الذي يأخذها بعيداً عن الهموم والاحباطات والتعب. كلما استزادت من الجمال صارت أقوى على الوحدة والتعب، الآن التقاها سارقٌ وسلبها الموَصِّلات التي تُعينُها على الاستقبال، أخَذَها فما عادت في المكان، صارت محمولة مُشَرَّدة فيه. تحوَّلَتْ لندن لمدينةٍ ماصة للدماء وللطاقة، شعرت مريم بطاقتها على الحياة تتسرب لثقبٍ ما، كل ما فيها في عطش للعثور من جديد وصُدْفَةً على بدر، هذا الرجل الذي تسلل مبكراً لقلبها ولم يُغادر، ظهورُه ثمّ غيبته المباغتة سَلَبَتْها حِدَّةَ حواسها، صارت لا ترى كلَّ ما تُحِبّ أن ترى، لا تسمع لا تعي، سَقَطَتْ منها الرغبة في التجوال في تلك الشوارع الحافلة بالأجساد المتسارعة لغاية، هي وحدها بلاغاية، قاعاتُ المعارض تحوَّلَتْ لنداءٍ لشَريكٍ يُشاطرها متعةَ تلك المعروضات، قاعاتُ السينما لها ذات النداء، التجولِ في طرقات الكوفنت جاردن، الضياع في كامدن تاون، كل شيء يواجهها بوحدتها: «الرؤيةُ بزوجِ أعينٍ مقطوعة لا كالرؤية بزوجين من الأعين، مثل قطبي البطارية سالب وموجب، وتسري بينهما الطاقة المضيئة». كل ما تراه يُشيع عتماً صارخاً داخلها. كان عليها مقاومة تلك العتمة، كشطها، دحرها لحيث انبثقت، فيما تَلَىَ من أيام قَسَرَتْ مريمُ جسدَها على قَدْحِ أي مصدرٍ للطاقة، وجاهدت لتسترد شهيتها للحياة، جاهدتْ لقسر نفسَها على التلقي، حاسة القلب لم تجد لها أثر، سقطت في مكان سحيق، لا شيء يُمْتِعُها، لا يهم، يكفي أن تتحرك وتختزن ما

يجري في تيارها، لو كفَّت عن الحركة تضيع في هذه المدينة وتُنفَى، يجرفها الإيقاع اللامبالي للسائرين، كمحاولةٍ للخفة عادت للانضمام إلى هذا البرنامج عن تصنيع الفخار،

«حين أغوص بيدي في الطين لا تملك إلا أن تستيقظ حواسي». ثلاث ساعات يومياً تعجن الصلصال الحي وتشحذُ كاملَ عضلات جسدها الرقيق لتدير الدولاب، خرجت من دولابها أجسادٌ بلا عدد، كلما خرج جسدٌ رَدَّ عليها حاسة، استردت حاسة اللمس، ثم الذوق وأخيراً السمع، طلعت الحواس وأول ما نادت بدراً، تُضيِّق عليها الخِنَاق صوبه، حتى سَلَّمَتْ.

****

الساعة الخامسة، ساعة الشاي الإنجليزي، بدت لندن مثل لطخة من لوحات فان كوخ عن السحب والغربان، احتمت مريم وراء زجاج قاعة الشاي المطلة على الهايدبارك بفندق الهايدبارك، لهذه المساحة المطلة على خضرة قادها رئيس السقاة بثيابه المنشاة وابتسامته العارفة. جلست تنتظر بينما السقاة يروحون ويجيئون يُخمنون من تنتظر هذه المرأة مثل دمية صغيرة. كانت ترشف من كوب الشاي بنكهة الخوخ، حين أطلَّ بدر والتقت أعينهما من على الباب، لكأنما هناك رادار مثبت برأسه يترصدها، توقف كوبها في الهواء، وجاء بدر مباشرة لطاولتها، جلس، وبادره الساقي ببراد شاي طازج، لم ينطق، ملأ كوبه بالشاي وارتفعت سحبُ الإيرل جراي، رشف رشفة:

«هذه المرة أي سحرٍ جاء بكِ إليَّ».

«سحرُكَ..» قالتها ضاحكة، لكن النظرة في عينيه ارتعشت، أخذت رشفة من كوبه، يُحب عادتها تلك في السطو على أشيائه:

«أشربُ من أثركَ فأتبعكَ أينما ذهبتَ، هذا ما تُؤكده أمي».

«لو كان الأمر لي لما تركتُكِ تذهبين أبداً».

«حقاً جئتُ أبحثُ عنكَ».

«نجحتِ حيثُ فشلتُ، فارقتِني لأتجول في المدينة أتبع خيالاً لساحرة في وشاحها الأسود، سحرُكِ أسود...».

«ليست المرة الأولى التي أُخرجُكَ مثل إبرةٍ من كومة قش».

«عديني بألا تكون الأخيرة!» ورشف من حيث رشفت:

«الآن أنا من سيتبع، تسترجعيني أينما غبتُ!» لم تشأ أن تُفصح عن البُعْد الذي خاضتُه إليه، كمن يتحرَّك في نومه كانت على الهاتف مع مكتبه بجدة، وزودوها بعنوانه، وهاهي تمشي إلى جواره وأينما وطئا استردت لندن سحرها.

في غيم قادها لصالة عرض (الفن بالديناميت) للفنان الصيني (Cai Guo Qiang) عَبَرَ بها النهر على مركب، الرذاذ البارد يطش في جفاف عينيها، مطر خفيف، يتأملها الملاحُ، لا ترفع معطف المطر ليغطي شعرها، تترك رأسَها دوماً للسماء تنقشه بالماء، تاقت أصابعُ بدر شفتاه لقطف ذاك الرذاذ، نقوش وديعة ترسم جبهتَها، كُلُّ قطرةٍ كلمة تهمسُ في جسدها سِرّاً، تركتْ وجهَها وشَعرَها للصمت القادمِ من الضفة الأخرى ولنظرات بدر المترعة.

وصلا قبل العرض بنصف ساعة، صالةُ العرض كانت مغلقة، في الداخل كان الفنان ومساعدته الجميلة يُعدان مسرح العرض الصغير، في تمام السابعة فُتحت الأبواب وسُمح للجمهور بالتقدم، سيدة بدينة همست «تقدموا لأول الصفوف لا تدعو العرض يفوتكم»، عصفور خفيف الحركة شقت مريم طريقهما للمقدمة، شابٌ بضفائر سوداء حذّرها،

«انتبهي وراءكِ، اللون لم يجف...» خلفها كانت الشجرة الصينية تشتعل بالأحمر والأزرق، وأمامها جسدُ بدر، تميل وتسكنها الشجرةُ. صدر الصالة مغطى بورقة ممتدة من السقف للأرض بحجم الحائط، على

الورقة كانت الشجرة مرسومة بأسلاك الديناميت، والفنان العجوز الممشوق يروح ويجيء مع مساعدته الجميلة، يُدعمان تثبيت الديناميت باللواصق والدبابيس، بين المشهد والجمهور ينتصبُ حَبْلٌ مانعٌ يُبقي الجميعَ على مسافةِ خمسة أمتارٍ عن اللوحة، في المسافة كانت سيدة توزع الأدوارَ على متطوعين من الجمهور: ثلاثةَ رجالٍ وفتاتين! دربوهم على كيفية استخدام المكانس الطويلة المُغَلَّفة بِلَفَّاتِ القماش السميك، كانت ثمة ثلاث مراوح ضخمة كتلك المستعملة في خلق إعصار. بدأ المشهدُ حين تَقَدَّمَ الفنانُ وأشعلَ جذرَ الشجرة، في لمحةٍ خَطَفَ الديناميتُ الشعلةَ وأرسلها في كامل الشجرة، انفجارٌ عظيمٌ ونارٌ جبَّارة رَسَمَتْ شجرةً جحيمية للمحةٍ ثم كانت ترمي الجمهور بشرر وألقتْ بالمرأة (التي مثل دمية خزفٍ دقيقة) للجسد العريض وراءها، المتطوعون كانوا يلاحقون النار التي تخرج عن الطوق ويُخمدونها، بينما مابين المرأة ورجلها لا يُخْمَد، عشر دقائق من الحرب بين رغبة النار في التخليق والتحرر وبين سيطرة البشر، ثم سكتت، ودفعة واحدة، الشجرةُ، تركتْ على الحائطِ جُثَّتَها تتفحَّمُ كإنها الشجرةُ خيالُ النار، تُسقطه من فحم على جدار، للشجرة كانت الكلمة الأخيرة: تَرَكَتْ لهم جثةُ شجرة. للفنِ كانت الشجرة الأولى والأخيرة. دخان عظيم انتصب في مَرَدَةٍ بأذرع جبَّارة وتأخذ بخناق الجمهورَ، فتحوا الأبواب الزجاجية نحو المطر، المراوح تسحب بأقصى طاقتها والدخان يريد أن يبصم شجرته في الرئات الحية، لم ترَ مريم مثل هذا الدخان التنيني، دسَّها بدر في معطفه بأنفه لخصلاتها القصيرة، رائحة دهن العود استشرت تطرد تنين الدخان عن أعينهما ورئتيهما، بينما الفنان العجوز يتحرك بتآلف مع التنانين، يعبُّ لرئتيه بنشوة، والمراوح في جنون لطرد الأشباح الرمادية والمطر بدأ يهب للداخل ليُشارك في رسم الفوضى ونشوتها، والليل بدأ يهبط من أعالي السماء للمشهَد.

من مخبئها أخذت مريمُ تتأمَّلُ في الفنان، تَذَكَّرَتْ كيف وَقَفَ ثابتاً

لانفجارِ الشجرةِ بينما قَفَزَ الجهورُ بالكامل خطوات للوراء مرتطماً بعضه بالبعض، حتى مريم قفزت لانفجار الحياة وهاهي مسكونة بدخانها، حتى تم اسقاطُ الخيال في نارٍ متبوعة بفحمٍ على نصاعة الحائط،

«تلخيص لحكايانا: نار ثم رماد». تقدمت مريمُ بالكتاب الذي أقتنته عن سيرة الفنان،

«مدهشة هذه الرغبة في التفجير..» وكان على سكرتيرته الجميلة أن تُترجم،

«التدمير جارٍ في عروقنا وفي كلِّ لحظة».

«هذا ما أيقظتَه فينا بهذه الشجرة، أراها الآن وأشعرُ بجريانها في جسدي».

«المهم ألا تفوِّتي لذةَ ثانيةِ الانفجار إذ بعدها ليس غير الرماد».

«وَقِّع لي على كتابكَ رجاءً». ووقع ترك كلمةً صينية وحيدة، بدتْ لمريم مثل:

(YC) رسماً أكثر منه كتابة، كرَّر الكلمة/ الرسم في السطر الذي يليه والذي يليه، نَقَشَ برشاقةٍ وبابتسامة خبيثة، ثم أشار لسكرتيرته بأن تُترجمها:

«النار المولودة من نارٍ لنارٍ لجحيم كُلِّي». أو (للنار تتسلسل من نار لجحيم كلي) وختم فراغ الصفحة العريضة بخطوط مثل أجساد السُحب باهتة لا تكاد تُعلن عن نفسها، حين خرجت مريم لعتم الخارج بدت لها الصفحة خاوية، مثل راحة كفها، كما أية بقعة من جسدها تُظهِرُ فراغاً وتُضمر شجرة تتأهب في كل ثانية لانفجار وتعقب برماد.

****

على الإفطار وجدها بانتظاره في نفس الزاوية المواجهة للحديقة، قادته لمسرح شكسبير المقام بتدويرته على شاطيء التايمز، كان الوقت

ضحى حين قطعا الجسر وجريان التايمز سيراً على الأقدام للضفة الأخرى، في الداخل كان عرض للعشاق من هواة مسرح شكسبير، الذين جاءوا توزعوا بين المقاعد الدائرة بالمسرح أو افترشوا الساحة أسفل الخشبة، جلسا جنباً إلى جنب على الأرض الصلبة، مدت ساقيها واسترخت تتأمل في المُخْرِج على الخشبة، كان يعرض على الجمهور المشاركة في تمثيل شخصيات ماكبث، أيدي المتطوعين ارتفعت، لا تعرف كيف شاركت يدها التطوع، نشوةُ هذا الجسد المتوجِّه بكليِّته إليها كفيلة بحملها لفعل المعجزات، للمشي على الماء أو في السماء! لم تُصَدِّق أن تُنْتَخَبَ لتمثل دور (ماكبث)، صعدت على الخشبة، تلقت التعليمات بسلاسة، تركت لموجة الإثارة الباطنية داخلها أن تطفو للسطح وتنتشر في الوجوه حولها، استسلمت لهم حين أخذوها لوضع وشاح ماكبث على كتفيها، رائحة السنين والرطوبة تفوح من القماش، انتقلت في الوشاح لقرن آخر، لم تكن هي التي دخلت المشهد، تَقَمَّصَها شاب متوفزٌ ويتحرك في الوشاح، قال كلماته، تطوَّحَ جسدُه بالكلمات الحارقة مثيراً عاصفةً من التصفيق، حين هَبَطَتْ مريمُ لَحِقَتْها عيونٌ، وحين خُتِم العرضُ حَرَصَ المُخْرِجُ أن يتحدث معها، عن دراستها لشكسبير، عن ذهوله أو شكه من قدومهما من أرض الغياب، الجزيرة العربية لا مكان لها على الخارطة الحضارية هنا، رغم حضارتها القديمة لا وجود لها في القاموس فيما وراء البحر الأبيض، تقف على حافة البحر الأحمر وتتلاشى في هباء، وجودها في قاموس المال ربما والنفط.

غَادَرَا المسرحَ الشامخ بهيكله القديم على التايمز، بشرر مكان القلب. دعاهما المخرج لتناول السمك عبر الجسر.

تلك الليلة وقفَ تحت نافذتها يودعها، بخطوةٍ تفصل واحدهما عن الآخر، كلٌّ شديد الوعي بمجاله الحيوي، وبرجفة دنو المجال من المجال وصعقة التَمَاسِّ والاقتحام والزلزلة وانجراف السالب للموجب، الجامد

بالجاري، الجبل للوهدة، حين غرقت الأصابع في زغب العنق تاهت في شهقة وأمطرت، لا تعرف أين ولا يعرف.

مثل عصفورٍ بَاغَتَتْه ضربةُ مطرٍ طَوَتْ جناحَه لدويِّ صدره، عصفور وجناحه المُبَلَّل انطوى وانطوت، كلما تقوس العصفور برأسه للخارج لفحَه بردٌ ففَزِعَ للجمرة، ما أن انفلتت حتى باغتها عُريُّ الكون في جسدها الصغير، عُري كبير وطيرُها في عماءٍ يَتَخَبَّط، تَجَمَّدتْ مبهورة بالليل الذي صار من جسدها، أخافَها بقدر ما هيمنتْ وتركها عاجزة تنبض ترجف. وكان لابد وأن تنجو، انفلتت في تلك الطريق المحوطة ببيوتٍ كمدت لقرون لتشهد تلك الصعقة، بيوت تحبس أنفاسها في ليلٍ طويلٍ بينما هي في إعصار لا يلوي على شيء وراءها، لحقتْ بها تلك الخطوات الراكضة،

«لا تذهبي هكذا، مهلاً... هنا...» تَقَطَّعت همساتُه فيها حين لملمها إليه، برحابة راحته أخذ بدوي رأسها لصدره، آذِناً لرجفة أوراقها أن تتهدج رويداً رويداً، آذِناً للغشاوة أن تكمل صعودها من الأسافل للأعالي وتهمد، كلُّ ورقةٍ من ذاك العصف ترقرقت على جذعها واستكانت، كلُّ عَصَبٍ جاهدَ لمجراه ولتياراته في تهاديها الأبدي.

حين فارقها كان فجر والطريق لا تزال خالية وبرد، أكثر ما حولها البرد، والخوف منها وفيها.

في اليوم التالي كان عليها أن تتبدد من تلك السموات، وكانت على الطائرة المتجهة لجدة، الجمرة تحولت لحرق يكبر، تدافعها ذكرى الأمس، موجة دمع تتبعها ابتسامة تغرق. الراكب إلى جوارها التفت بكامله مسحوراً للمعة الابتسامة في عينيها، أجمل مافيها ابتسامتها، تلك التي تُشرق من نشوة النمر، تضرب كبرق ثم تتمدد كحزمة شمس، لملمت ابتسامتها، لم تطاوعها، أغمضت عينيها، شعرت بهيكل الرجل يميد صوبها عَبْرَ الممرِ، له نفس صلعة أبيها اللامعة تعتمرها تربيعةُ رأسه،

«لاجرح أعمق من رقدة أهدابكِ على الوجنة...» كلما أغمضت عينها أغفلَ قلبُ بدر ضربة ضربتين عشرة وكاد يتوقف.

«في النساء من طبع المدن تُسلِّم للغازي!» راجعتْها عبارةُ أبيها المفضلة تلك، «هو الطبع التي أردتُ كسره فيكِ!».

«أينكَ يا أبي لترى الثائر يطرح حيث زَرَعْتَه: في جلد ابنتكَ...» كلما صدَّت من ذكرى بدر تسللتْ كلماتُ أبيها،

«الثور والمصارع كلاهما موت، ينجو من الحلبة، وفقط هذا الذي يُجِيدُ أَسْرَ اللحظة ويُمَدِّدُها لتصير فردوساً، ستائر الدم على ظهر الثور تقول لكِ اللحظات التي نهدرها في مطاردة سراب، الوشاح الأحمر ليس العدو، ليس الهدف، لكن عماء الثور يجعله يقضي شعلةَ عنفوانه في قنصه، الوشاح يُخفي النصل الذي سيختم المشهد، ففيم إصرارنا على كشفه؟! أن ندع لأحدهم أن يسوقنا بوهج زائف؟ الوهج الأصيل، كل الوهج، في سواد الثور ويطارد الأحمر! لا تَدعي لهم تضليلك بالأحمر...» كانت في الثانية عشرة حين دعاها أبوها لحلبة مصارعة الثيران، رافقتهم الأم في حفلات الفلامينكو، لكنه حرص أن ينفرد بها في حلبة المصارعة، في وقفة الموت عند الغروب، مع ختام قتل الثور الرابع كان الظلام قد بدأ يهبط على نصف الحلبة بينما النصف الثاني في حمرة، السماء فوق رأسيهما كانت تعيد تمثيل الثور والوشاح، ومع تقدم الموت كانت الغلبة للسواد الأصيل بينما تقلص الأحمرُ، وفي العتم حين خلت المدرجات حولهما كان الدرس الأعمق تتلقاه عنه. رائحة الدم، بخار العنفوان من أنوف الثيران كان لا يزال يحوم فوق رأسيهما، اجتمع غمامة على مقعديهما، عمال التنظيف غادروا الحلبة بأجراسهم الصغيرة ولسعات السياط على ظهور البغال، غمامة الحياة والموت، وللآن وبمجرد إغماض عينيها تراجعها تلك الغمامة من أسود وأحمر، تشعر بوهجها في وجهها، زاد ميل جسد الراكب عبر الممر، المضيفة قطعت بمرورها الغمامةَ، صار

بوسعها فتح عينيها بعد إزالة اللمعة، صار بوسع الراكب أن يعتدل في جلسته.

«المصارع والثور والجمهور مَاهُم إلا أدوات لتحقيق الموت، حين تنفصلين عن المشهد يصير بوسعكِ الخروج من هذا الموت الجماعي ورسم موتك الخاص، إياك والتعميم في الحياة والموت، ما لايجب أن نُفَرِّط به هو الخصوصية في الألم والفرح والحياة والموت».

غصَّت مريم بالسؤال:

«ما ينجو من خصوصيتنا في التعلق بنصف رجل؟!».

أقبلت المضيفة بعربة طافحة بالفواكه، لو أن بدر هنا لصار لحكاية طقس الفاكهة مذاقاً جديداً، استحضرت حزن الوجه الذي ودَّعها حتى نقطة الجوازات بمطار هيثرو، الوجه الذي تلقى وجهها في آخر نظرةٍ لها للوراء، وضعت الوجهَ أمامها وحدَّثَتْه،

«كنا نعرف بدخول الصيف من غزو الفاكهة لبيتنا، لبساتين الطائف عَبَقٌ نفَّاذ يرقد في ريقكَ، لكلِّ فاكهةٍ عطرٌ أستطيعُ تمييزه بالخَدَر على ذقني، أعرفُ بدخول الصيف من خَدَرٍ في الشفتين وأسفل، من زغب الخوخ يأتي الصيف، أشعرُ بعصارات الأسيد الصيفي على لساني وسقف حلقي.» اندسَّت في بطانيتها عميقاً بالمقعد، شوبان يُحَلِّق بالطائرة، وبالطبق الاستوائي في حجرها، وبأصابعها المجردة تتناول الشرائح الحية، تقضم ويسيل العصير الأصفر الحلو للكف، يترك بقعاً لزجة هنا وهناك، يلذ لها أن ينفتح جسدها للملامسة المباغتة، لقرصاتها التي تجيء في غير مكانٍ في غير زمان وتنقلك لحقلٍ بانتظار أن يُحْصَد ويُبْذَر، كلُّ التوق لمحراثٍ يتيقظ فيها مع كلِّ رُشَاشٍ يطير لقضمة، لا يمكن التكهن أين يقع رشاش الصيف - أينما وَقَعَ أوقدَ....

****

في رجعتها من لندن حاولت مريم الانغماس في الرفيقات والصغار والعمل بلافائدة. ليس كصديقتها طفول تمحو التعب بضحكة بسخرية تبدأ بالذات وتنتهي بالقبائل. جدة مدينة أنثى من رطوبةٍ تُدمنكَ وتُدمنها، تحمل لقب عروس البحر بعفوية مغوية، ميادينها شوارعها قصورها ساحاتها المسكونة بالتحف الفنية تتلوى مثل افعوان وترفض الخطوط المنكسرة الحادة، كل ما فيها يسبي حتى أخلص عشاقها، تركتْ جُرحاً من فخرٍ بقلب عمدتها الأشهر الفارسي، يتحدَّث عنها بتوقٍ أقرب للحسرة، كمن تَسَرَّبت من بين أصابعه جِنيّة، يقول:

«تأملوا فيها، هي على ما حلمتُ لها: جسدٌ على هيئة أنثى، حرصتُ لكل ما فيها أن يتدوَّر وينساب، الميادين الطرقات القصور، تختنق الآن لأنها استكثرتْ من العشَّاق، تَنَادوا لغزوها لسكناها من كل أطرافِ الرمل، جاءوها عاشقين فخنقوها واختنقوا». تكاثر العُمَدُ على المدينة، تركوا بصماتهم في اقتلاع علامات تأنيثها تارة وتارةً في طي أجنحتها من السماء، وفي تقليم أو إهمال متاحفها المفتوحة في الهواء، وفي امتلاكها بتبديل مواقع أنصابها كحجارة شطرنج، وفي الحد من إغواء تدويراتها وتذكير طرقاتها، محاولات للامتلاك أو للمسخ انجلت لتترسَّخ تلك الأنوثة العميقة صامدة بوجه كل تغيير أو تذكير.

في عودتها من لندن صارت مريم أكثر وعياً بأنوثة المدينة المختنقة عشقاً، لامدينة تُضاهي عروس البحر في عمارتها الخاطفة، فيلاتها تُباغتك بطُرزٍ لا تتكرر، لاشيء فيها ينسخ الشيء الذي يليه، لا بقعة تكرر سحر الأخرى، مدينةٌ تَكَاثَر الخاصةُ لامتلاك بحرها حتى حجبوه عن العامة، صار أطفالُ الأفغان الذين يتسولون على إشارات المرور يسبحون بثيابهم كاملة، معلقين مثل دمى في فترينات كورنيشها المحظورة. مدينة تسترخي بكسلٍ يُخفي جذوة ناجعة للاستطباب من الحبِّ والغضب، ولم تجد مريم عزاءً إلا في الاستسلام لإيقاعِ المدينة ليجرفها روتينُها اليومي، عفوية

إقبالها على البحر ونكوصها عنه، سماحتها الكسول المُخَدِّرَة.

اجتمعت الرفيقاتُ الثلاث في مقهى (أوركيد) بسوق حراء، عرائشُ النخل والإضاءة الخافتة تُسَكِّنُ إيقاعَ النهار الصاخب، الساعة الواحدة هي وقت خلع فوضى الصغار وتبادل حكايا الكبار، تهتف طفول،

«نحتاج حكاية تنقذنا، تختطفنا وتدوِّرنا حولها لنشعر بالحياة. . الحكاية ستجرجرنا لحبكة وللحركة خارج هذا الملل. . والوحدة بِلا رَجُل. . ». تضحك عفاف وتُكرِّر لازمتها النجدية،

«الحقيقة!!!» تكرر هذه الكلمة للاعتراض وللتعجب وللتوبيخ وللاستحسان، صالحة لكل شيء، تكمل،

«خاتمة صبري تضحكون عليَّ بحكاية..» عفاف وبعدَ أسبوع زواج اكتشفتْ الفِصَامَ الحادَ الذي يُعانيه زوجها، ولقد استغرقَت عاماً لَإقناعهَ بتطليقها، ثم لم يكف يسعى لإرجاعها، كلما رفضتْ أو فَكَّرَتْ في الزواج بآخر هَدَّدَ بحرمانها من ابنتها، لذا تقيم في محطةِ تأجيلِ أبدي.

«حكايتي أنني سأتركُ ريما مع أمي وأُسافر للغردقة مع أخي، لن أسمح لفالح باستعمال ريما كحبل في عنقي، يجره ويربطني...» صيفَ شتاء يرفضُ الأبُ المُنفَصم وبإصرار التصريح لابنته بالسفر برفقتها،

«لا يتذكر ابنته حين يأتي الأمر للنَفَقَة، تنخسه الأبوةُ وفقط حين يحتاجها كحبل مشنقة حول عنقي، هذا الرجل لا شاغل له غيري، الله يزوجك يا فالح ويَفكُّنا من غَثِّكَ».

«أما أنا فحكايتي الرجال، للآن طلقتُ أربعة بلا سلام ولا كلام، حبر على ورق وبصمات أهلي، وكل ما أريده يا ناس قلباً يركل وينطح مثل ثور في حلبة مصارعة..» حذَّرتْها عفاف،

«إحذري ماتتمنين لئلا يصادف ساعة استجابة». لم تعرف مريم حكاية تتحوصل حولها، حاولت تقريب تلك الحرب الصامتة في محيطهم الأرستقراطي،

«حكايتي هذه الحرب بيني وأبي واخوتي، يريدونني.. أرأيتِ كيف تكون القطط الحديثة الولادة وأول فتحها لعيونها، كيف تَفِحُّ وتنفخ كلما قاربتها يد، يريدونني هكذا..» ضحكت عفاف،

«قُطيطة..» حولهما سكتت الوجوه لكأنما وقعت في جُبٍّ، المكان مزخرفٌ بالأسود من عباءات النساء المنقوشة بعناية، تعريقات خرزٍ وطواويس ومساحات من الحرير الملون تتداخل مع الأسود في رقصة، لاتعود العباءة حجباً وإنما نداءً صاخباً للأبيض، نسبة الأبيض تنحسر وتتهاوى أمام عنفوان الأسود، ثلاثة ذكور فقط وأحدهم يتجاوز الستين يتوزعون مثل نجوم باهتة بين النسوة، على السلالم النازلة مراهقات يتضاحكن ويَهْرَعن لأجهزة الكمبيوتر لمراجعة بريدهن الإليكتروني والمداخلة في (مواقع الشات). المسؤولُ التونسيُّ الشاب كان يرمق مريم بدفء، منذ يومين وحقلُ طاقةٍ لا يزال يُخدِّر جانبه الأيمن حيث جَاوَرَتْه أمام جهاز الكمبيوتر ليُعينها على حل مشكلة تقنية في بريدها، بساطة اللغة التي يتكلمها جسدُها، العفوية في حواره، القرب الجميل بلا تبعات، كلها حيَّة لا تزال بذاكرته، اعتبر جسدُه أن له صديقة في غربة المدينة، بإيماءةٍ طفيفةٍ من رأسها ردَّت على دفء التونسي، دارَ رأسُ طفول 360 درجة لتلحق بتلك الإيماءة، الابتسامةُ الشيطانية التي لَفَحَتْه جعلته يتوارى مُتحصِّناً بمكتبه ولا يطلع،

«هنا خطر...» هذا ما بَعَثَتْه نظرةُ طفول بجسده. بعد صمت رشفت مريم من عصير الليمون بالنعناع، تركت للخضرة أن تغسل جوفها، سمحت للسِرِّ داخلها أن يَتَمَدَّدَ ويحتلَّ كاملَ أطرافها، بدأ خدرٌ يسري بأطرافها من مزيجِ تعبِ اليومِ والسِرِّ المكتوم داخلها، قاطعتْ طفولُ تلكَ الهدأة بحسم:

«ببساطة أريد أن أُحِبَّ...» ضحكتْ عفاف، خطر لمريم أن مايؤلم هو توقها لأن تُعلنَ عن حبٍّ، وبدلاً من إدخال رفيقتيها في سِرِّها هتفت:

«الدكتور السويدان الكويتي جاء لجدة في دعوة خاصة، قام بمقابلة عدد من الأزواج في محاولة لمساعدتهم على مواجهة مشاكلهم الزوجية، أنا ومن باب الفضول حضرتُ واحدة من جلساته حيث قال: آدم، الرجلُ مخلوقٌ من طين من مادة ميتة باردة مصمتة، بينما حواء المرأة مخلوقة من ضلع آدم، من مادة حية من لحم ودم ونبض، لذا تجيء استجابتهما مختلفة تماماً للحب، استجابة اللحم والدم غير استجابة الطين... من هنا تجيء احباطات الحب بين طين ولحم». قاطعتها طفول بتوقٍ:

«مذ كنتُ طفلة وأنا أعشقُ قَضْمَ طينِ بيوتِ قرى حائل حين يُنديها المطر، للطين رائحة مسكرة ومذاقه خارج هذا العالم، من هنا يجيء ضعفي تجاه الرجل...» ضحكت الرفيقتان، عصف بمريم توقٌ لقضم حفنة الطين المخفية عميقاً بقلبها، بدر هذا السر الذي تواريه كلما واجهت العالم، تحركت أسنانها تطحن ذاك الخيال الذي يُخاتلها، يُشاكسها، يطفر ليفضح سِرّه كلما أمعنت في دسّه، السر يوجد عند الخطوة الأولى لفضحه، إذ لا يكون سراً مالم نُعلن عن وجوده ونرسل الفضول لفضّه، قاومت مريم تلك الأفكار المشتتة، تنهدّت، بدر سيبقى من المستحيلات، والأعوام تجري وهما في نفس البقعة: عائلته أولاً وأخيراً، وهي مثل عيادة طبيب نفسي، لا لتكن عادلة: طبيب روحي يأتيها ليسترد لياقته ويواصل حياته كزوجٍ وأب لبنتين.

هتفت طفول بتوقٍ:

«هل يُعْقَل أن أشعر بكل هذا الضعف دون رجل؟» بتحدٍ للذات علّقت مريم،

«الضعف الحقيقي مع رجل، وبالرجل، أسأليني».

«كلما انغلق قلبي على رجل ارتعد حباً وفزعاً، فالحب لا يجيء وحده، يجيء في دورةٍ مثل دورة الحياة من الولادة والتألق والشباب فالشيخوخة فالموت، وقلبي لايُطيق الموت وأنا على قيد الحياة.. أسوأ ما

يعتري القلب الفتور أو الشيخوخة التي يبلغها الحب وبسرعةٍ مذهلة!»

«جسدي مصنوع للحب، وأتركه معطلاً هكذا، حرام...».

«ولاتصبحين كياناً كاملاً إلا برَجُل؟!» جاء السؤال مُوَجَّهاً لقلبها أكثر مما للرفيقتين.

«اسمعي، أنتِ، لقد سحبوا منكِ الغُدَّةَ من زمن...» انفجارُ ضحكات أرسل العيون صوب طاولتهن، دمعت عين مريم، صارت مثل برق، وقف النادل مسلوباً لعينيها. صرَّحَت طفول:

«الحقُّ أقول أن فيصل كان يُدَوِّخُني، مثل رولر كوستر..» قاطعتْها عفاف ساخرة،

«دورة الرولر كوستر يا حليلها قصيرة، ثلاثة ريالات وكوبون ووِنْ وِنْ لَفَّة ويهبطونك...».

«بالضبط وِنْ وِنْ وقَطَعَ التيارَ الكهربائي وسَرَّح العمال والمدوخين وذهب ليُدير مطحنة قمح، ترك لأمه اختيار الزوجة والجسد الذي يقتل الدوخة، أنجبت له مطحنة القمح ثلاثة صغار، جاء بعدهم يتوسل رجعتي ويشكو فراغ زوجته وزواجه، صدقيني، الآن وحين يكلمني أسمع قرقعةَ المطحنة وصدَاها ولا أرى طحيناً! فيصل لم يجدني أهلاً للزواج والآن يجدني الأمثل لعلاقة خلف جدران المطحنة».

بلهجة بدوية مبالغٌ فيها وبتحريفِ أدلتِ عفاف بخبرتها:

«يا حبيبتي هي ذي الدنيا خلايقها غريبة، بِبونها كلها من شُرَا لِمُرَا لحارة الفقرا: مِطْحَنَتَنّ وورلرن كوسترن، زوجْتن وحبيبتن وعشيقتن ومسدوحتن ومدبوحتن ومنفوختن بالذَرّ والفَرّ ونسوان الخلايق على وَتَد هالغضنفر مجموعتن...» انفجار ضاحك، وهي لا تستطيع التقاط انفاسها أردفت طفول:

«فيصل هذا ظاهرة، يلعب بعقلي لعب الله وكيلك، يُكر ويفر ويحفر

برأسي: الذَكَرُ مصنوعٌ للتَعَدُّدِ، انظري مملكةَ الحيوان..» علّقت عفاف ضاحكة:

«يا حيوان!!!».

****

لمست الطائرةُ أرضَ مدرج مطار الرياض وانفلت قلبُ طفول يخفق، غيمة من بخور العود أحاطتها بخندقها، تأملها الشيخ في بياض إلى جوارها، حرير عباءتها يذوب في ثناياها الممشوقة، الطرحة مطهمة بنقرات الفضة وتحيط بنجمها ذاك الوجه، تنافس لمعةالعينين، ما إن حطَّت الطائرة حتى سرا من جسد تلك الفتاة ما خلخل هواءَ الطائرة، تململ المسافرون، اختلج نور الطائرة المصفرّ، فكَّر،

«هي فتاة في عشقٍ، كلُّ ما فيها يذوب، يجيش ويذوب، لا دليل كهذه اللمعة في العين، عين لا تستقر إلا للداخل لصورةٍ في القلب تتآلف أطرافها حولها مثل محارة...» اندفع الرُكَّابُ لبابِ الطائرة بينما انفتح بابٌ لليمين وظهر منه فهد، لطلته تَعَثَّرَ قلبُها بدَقَّةٍ بحجم دوائرِ المزارعِ التجريبيةِ المحيطة بالرياض، وفاح عودها، «طفول...» اندفعَ التمثالُ الكاملُ النحت مثل طوفان صوبها، أخذ بيدها لشفتيه،

«لا أصدق أنكِ هنا، أسمعي...» دسَّ يدها لصدره.

«آه قلبي! نظرتُكِ تنشبُ بالقلب، ما نهبني مثل هذا الفرح من قبل، جمالك يدوِّخ...» ضحكتُها تهدَّجتْ تحت أعين المضيفات الملمومة على لهفة رَجُلها، تَلَذَّذَت بمذاق الكلمة في فمها: «رَجُلي...».

في إعاصير صغيرة مدوخة تَطفَحُ لهفتُه، ولا تترك لها فرصة للتنفس، كفان حائرتان تتبركان على ساعديها على خاصرتها على كتفيها حتى هبطتْ سُلَّمَ الطائرة، قادها للعربة الخاصة بانتظارهما على أرض المطار، كانت المرة الأولى التي تقع عيناه عليها، معرفتهما صوتية وتَمَّتْ عَبْرَ الهاتف،

صديقةٌ لهما ذكَّتْها له، وحين هاتفها لأول مرة أمسكت تلك البَحَّةُ في تحيتها (ياهلا) بتلابيبه، وحين ناضل للإفلات رمته بشرر الطوفان المخفي في الصوت الضحوك، للأصوات تراتيل وللتراتيل جنيات من أقدم فتك الجن، جِنيّة تومىء بعشقٍ قتَّالٍ، وجِنيَّةٌ ترمي بحنانٍ يُغْرِقُ في طحلب يُذيبُ بحريره، وجنية تتلولب على صحن بطن الذكر وتُنَوّمه لتبعثه من موته لعشقها، كل ذلك قَالَه صوتُها فلم ينجُ منها، وحين عرض الزواج طارت أمها فرحاً، شخللت مسبحتها التي غامت نصاعةُ حبَّاتها،

«ولد شيوخ، كانت لهم إمارة ونهي فيما مضى، هذه بَرَكةُ دعواتي لكِ بالستر».

«يا للبدو ونشبتكم بالحلق.. تَرَوِّي يا حُرمة، فربما حين يراني يختلف الأمر..».

الذعر في عين والدتها أثار زوبعة ضحك وَبَّختها: «استعيذي من إبليسكِ، وإلا طَيَّرَ لكِ هذه الفرصة كما طَيَّرَ فُرَصَكِ الخايسة قبلها». كلُّ فرصها (خايسة) الآن في نظر والدتها قياساً بهذه الفرصة، لذا تآمرت معها مبيحة لها، رغم تحفظها الصارم، السفر للرياض لرؤيته أو إذعاناً لرغبته في رؤيتها:

«بالبديع أبدعُ مَنْ صوَّر، جِعْلِك سالبتن لُبَّه...» دعوة أمها تتجسد أمامها الآن، فما أن وقعت في بصر فهد حتى أثارت بركاناً: «معكِ حقائب؟».

«لا، فقط هذه..» وتَنَاوَلَها ليضعها بعنايةٍ في المقعد الخلفي، قادها للجلوس إلى جواره بينما اخترقا شوارع الرياض، الرياض مدينة لم تكمل تَجَسُّدها، وقفت بين الرمل وبين الحي، بين البشر والوحش، جسدها من أطراف ظبي في سباق لفرط خطفِه تناثرت أطرافه في مساحات شاسعة من الصحراء، ظبي يركضُ لعقودٍ سبعة ولما يلتفت ليُلملم أطرافه، مدينة يُطاردها صيادون يرفعون الأسوار الشاهقة في طريق الظبي وفي جسده،

حتى لايعود بوسعك اختلاس نظرةٍ لانسياب ساقيه ولكحيل عينيه وأنوثة انفلاتته، أنوثة محبوسة في الرياض فلايطفوا منها للناظر إلا تذكير صارم بين الرمل والوحش، مدينةٌ جسدٌ لا يُرحِّبُ بعابر، لا يُوطِّنُ عابراً، لكن في جسد طفول ظبي شرود يقرأ دواخل المدينة في رملها، استرعاها برجُ الفيصلية وعلى امتداده برج المملكة، برجان لاهيان في زمنٍ لا تُوحي الأبراج فيه إلا بقيامةٍ تتآكل الحديد والزجاج تطحنهما في ذَرور بسكويتة عملاقة! تشاغلت طفول عن الوهج الساري من الجالس إلى جوارها بتأمل البرجين، كتمت ابتسامة، راجعتها الرسالة الهاتفية المحظورة والتي تصور المملكة كجسد مقلوب بساقيه في الهواء وبالفيصلية تخترق مركزه كمركبة فضائية! في البرجين تنفسَّتْ المدينةُ الشَرود، الرياض يُدلِّلها سلمان بينما أكسجينها الوليد، لمملكة الأكسجين خلع إنسانُها أسوارَه وجاء لتنظر العينُ في العين تُغازل، تعشق، تُوَطِّن، كل من يشعر بغربةِ المدينةِ يجيء البرجين ليتوطَّنَ في وجهٍ أو نظرة! استرخت المملكةُ داخل المملكة المقلوبة بساقيها في الهواء، يكاد الظبي يكمل تجسده الأنثوي في جسد المدينة! بوصلةُ البدوي نَبَّهتْ طفولَ للمسار الذي يسلكانه رغم جهلها بطرقات المدينة الشاسعة والمبعثرة:

«أنحن في الإتجاه الصحيح؟ بيتُ أختى في حي الورود...».

«ستمرين على بيتنا أولاً...» كلمة بيتنا قوضَّت جسداً داخل جسد طفول، زرٌّ صغير انبعث ينبض بعنفوان ويضخ لأذنيها، انحشر قلبُها في الحلق، بصوتٍ راجف اعترضت،

«لكن أختى بانتظاري، لقد تآمرت معي، لم تبعث بسائقها، لتُتيح لنا اللقاء وفقط مسافةَ الطريق من المطار...» استدار إليها مثل طوفان، الطاقة المنبعثة من ذاك الجسد البديع تُدوِّخ، تطويها مثل عصفور في هَبَّةِ نار،

«اسمعي، أكاد أجن من شوقكِ، لا أستطيع مفارقتكِ هكذا، أريد أن أراكِ بلا تشويش، بلا عباءة ولا غطاء، أن أشعرَ بكِ في حجرتي، أن يبقى

خيالكِ حولي أرجع إليه في غيابكِ، ستبقين هنا يوماً واحداً فقط، بعدها تغادرين وتتركينني لشوقكِ، أريد أن أحفر في رأسي تفاصيل شَعْركِ، رائحتكِ، لفتاتكِ، أن أشعر بكِ كأمراة لا مجرد صوتٍ على هاتف». القسر في صوته أرسل قلبها يدوي حتى أصابع قدميها، حين وصل بها لتلك الفيلا القديمة انتابتها رجفة خوف ممن؟ من طفول ربما،

«ما سيقول أهلُكَ، لا تفضحني».

«ليس غير أمي، ولا تغادر طابقَها العلوي، حجرتي في الأسفل، ندخل بهدوء ولن تشعر بنا...» دوي عظيم صمَّ حواسها عن تفاصيل تلك الدخلة، التسللُ عبر تلك الحديقة المرصوفة، نباح الكلب من حجرة السائق لليمين، النوافذ العمياء من البيوت المطلة بترفُّعٍ، الليل والهجر الواضح في المكان كله أسهَمَ في إثارتها، شعرت بحرقة في أطرافها لاقتحام ذاك المنع، لتخترق للطرف الآخر بكامل جسدها، عبرا مثل خيالين مُبهَمين في ليل المدينة المتكتمة، صعدت الدرجات القليلة وراءه، أمامها جسده مصبوب في تمثال كامل النحت، بطل فلوريدا في كمال الأجسام،

«أشبه بالغزو الفضائي، يَدُكُّ دكاً...» داخلها صوتٌ يحثها على التحصُّن من ذاك الغزو بينما أصواتٌ تتنادى وتتأجج للغزو، تُحرِّض مرابضَ للوحشِ فيها لمنازلته لاحتوائه بكامل بركانه! فاحت لجسدها رائحة لم تعرفها من قبل، رائحة طينة مطلة على نار تئز وتتهاوى للهبه.

بدت المسافةُ بين الباب الخارجي وباب الفيلا مثل بئر تهوي فيه بل رجعة، حجرته انفتحت لهما عن يمين البهو العريض، كان عليهما تفادي العيون الطارئة للخدم والأم والجدران المصمتة بتحفظها، برجفةٍ عظيمةٍ انغلق عليهما باب تلك الحجرة، حين احتواها انطوى جسدُها بعد طول تيهٍ لمأوى، بقيت هناك تغوص، لا تعرف كيف انبسطت على تلك الأرض القاسية، وكيف تَعَنقدت في كفه،

«كل مافيكِ مسبوك لينام في هذه الكف...» ضحكتُها نشبت في الشهقة، أن تُصاغ كفٌّ لتقولبها!!

«أذهبي الآن، بوسعكِ أن تذهبي بيقين أنكِ مثل طعنةٍ بجسدي، مقتلة فيَّ منكِ».

«إنهم بانتظاري!» وحولها تمددت عراقةُ البيت، تنفث عزّاً قديماً، تنفث فضولاً وترصد أدنى زلة،

«ليذهبوا للجحيم، أنت امرأتي، بوسعي إغلاق هذه الحجرة عليكِ ولمن شاء من أهلك أن يُقاضيني، بوسعي تفجير فضيحة هنا، أترضينني قريناً؟ أختطفُكِ، لا يهمني البشر، أمام الله نُحضر شيخاً ونُتَمِّم، بإيجابكِ تسقط ولا يتُهم عليكِ...» كانت تلهث خلفه:

«اسمع لن يعترضكَ أحد من أهلي وأنتَ ما أنتَ عليه. هي أنا، تُغريني الفضيحة لكن يكسرني كسرُ قلب أمي، الآن وقد ارتوى قلبي بكَ أشعر بسماحة الكون تجاه كامل القبيلة وخاصة تلك المرأة التي لم تكف تحلم لي، أريدُ لها أن تفرح، أن تُغيظ الحساد، أن تتباهى بنا في عرسٍ تتحدث عنه المدينة، هذه المرأة لم يبقَ لها ما تراه، تستشهد للتمسك ببصرها لهذه الساعة، لهذا العرس الذي بدا مثل مستحيل».

«لعينكِ أُخْلِي سراحَكِ». وطاف بها في الحجرة،

«انظري، مذ عرفتُكِ وهاجسي أن تطئي هذه الحجرة حافية، أن تتجولي أمام أرففي، تري معي هذه الكؤوس التي ربحتُها في مسابقات دولية لكمال الأجسام، تأتين إليَّ وأنازل على بطولة العالم، أعرفُ أن وجودَ امرأة مثلكِ إلى جانبي هو ما يلزمني لكسب هذا اللقب». حولهما صور له وصديقاته من الأمريكيتين، بلا عدد وفي لقطاتٍ عاصفة، تجاهلت الغصة في كل لقطة ضاحكة في كل ذراع ملفوفة على جذعٍ أشقر،

«إن شاء الله». تلك الليلة قادها مرغماً لبيت شقيقتها، فيلا أقرب لقصر

كما يُتَوَقَّع من رجال الديوان الملكي، البوابة انفتحت لمجرد ظهور السيارة وآذنتهما لمعبرِ طويل على حوافه سيارات من كل طراز، هبطت طفول على عجل في فسحة تقود لخلفية المشهد، على الباب الخلفي استقبلتها حصَّة مع ابنتها زينة في الثالثة، سارعت زينة تتعلق بساقي طفول التي رفعتها عالياً في الهواء وقبَّلتها، شعرت بجسدها يسبق جسد الصغيرة للسماء مثل سحابة متخمة برذاذ، فكَّرت: (هكذا أنا في الهواء)، افاقت لشقيقتها حصة تتأمل في وجهها بشك، بفراغ صبرِ قادتها لمجلس النساء،

«عبد الله يستضيف اصدقاءه من عمله بالديوان.." وفي مجلس النساء باغتت طفولَ الأرائكُ النبيذية الوثيرة، وطبقاتُ الستائر المبالغ فيها، علّقت:

«ذوقُكِ لا يتنفس بعد؟» ورَجَّعَتْها المرآةُ على شكل قوسِ محوَّطٍ بالنباتات بصدر المجلس:

«تُريحني الأشياءُ الراسخة مثل زوجي عبدالله».

«أشهد أن أثاث هذه السنة أكثر جرأة، دوماً ملتِ للفواتح هي المرة الأولى أرى حلكة الغروب على خضرة».

«ما لنا حيلة في موضة هذا العام». وشاغَلَتْ طفولَ حماسةُ الطفلة بعبق الفانيليا، لَفَتَها ثوبُ باربي العاري الكتفين والظهر على جسد الطفلة الصحراوية بعينيها نافذتي السواد،

«باربي النفود، وبعد، رائحتكِ مثل آيس كريم، آخذ قضمة». وعلت ضحكات الطفلة، انتزعتها حصة بصعوبة، وقادتها للباب،

«أذهبي لحجرة أخواتك البنات، خالتكم ستأتيكم بعد قليل لدينا مانقوله من كلام الكبار!» ودفعتها خارج المجلس، لحظة خلت بطفول عَاجَلَتْها موبخة:

«إياكِ...» ضحكت طفول للتحذير،

«لا تخافي...».

«أسأليني، يخطفون الخطفة ويتلاشون في سراب الرياض». كان واضحاً ما تعنيه حصة.

«لا تخافي..» كرَّرتها طفولُ ضاحكة:

«أنا، من كاد يخطف الخطفة، صدقيني، لولا خفارة الأم وضيق المكان والزمان لهوت رؤوس وسالت دماء..».

«أنتِ مجنونة، هذا لا يُثمر مع رجالنا، أحفادُ كَرٍّ وفَرٍّ وغزو، لا يركبون إلا الصعب، ولا يَشغفهم شيءٌ كتدريب صقرٍ شَموس أو مناورة شِهابٍ وَاقِب». رائحة الأرز (السليق بالخرفان) فاحت وفوَّحتْ جوعاً بجسد طفول، أدركت أن لقمة لم تدخل جوفها منذ ليلة البارحة.

«بإذن واحدٍ أحد فإن، صقري ناشبٌ نارَه في عضاه... والآن أسعفوني بهذه الرائحة المدوخة، بالمنبهات والمغذيات...».

في رجعتها من الرياض أنقضَّ عليها في مطر نيازك، تُلاحقها هواتفُ فهد أينما اتجهت. ذاك الصباح اندفعت من الملعب الداخلي، لوجهها برقٌ شيطاني، جَرَّتْ مريمَ لحجرة الاستراحة الصغيرة، وفي الفسحة وراء الباب أخرجت هاتفها النقَّال المحظور تداوله ساعات العمل،

«أسمعي، فهد يُجَنِّني. هاهو يُحَرِّضني لأصوغَ وَلَعي في كلمات. يشتكي أنني لا أُفصح عما بي منه، فما أن أفضح مابي حتى يفرَّ، أعرفهم». وقرأت عليها رسالته الهاتفية.

«رسالة بعد رسالة، هكذا نحن منذ عودتي من الرياض، هو يُزبد ويفيض وأنا أتروى...» رَجَتْها مريمُ:

«ابعثي بالرسالة لهاتفي، قد تنفعني في ساعة حشرة». وانشلغتا بتبادل الرسالة. تنهدَّت طفول بحسرة ووَلَع،

جلستا بمواجهة النافذة الطويلة المطلة على ملاعب الرمل، العُشَّة

الجيزانية واقفة للشمس مثل حُبلى مضفورة بعرق الرجال المتوجين بالكادي، بوسع مريم من جلستها وراء الزجاج التقاط روائح السهل البعيد ذاك، روائح البحر التي لا تتكاثف في طينٍ كما تتكاثف على جلود الجيزانيين فتدبغها بقتامتها.

«كلامه يُهَيِّج فيَّ ريح السَمُوم، له عندي جواب يرميه، وأكتمه، كلمة ويجفل مرتاباً في حشمتي، أُحجمُ ويستجيرُ مني: أنتِ لا تُحبينني، مافيكِ مما فيَّ! صارت قضية غضب، فيه من نار العبيد وفيَّ من شغف الحديد للسبك، كما تعرفين أمه من معاتيق الشيوخ، تَحرَّرتْ بولادته، ماذا أفعل، حركةٌ واحدة لحجر الملكة ويسقط العسكر والقلاع وتصهل الخيل وتنتهي اللعبة بغبار فراره، حبكةٌ حَفِظتُها. دبريني!» أصغت مريم الملوَّعة باستحالة بدر،

«لدي اقتراح، لا أعرف مدى فعاليته لكن، جربيه...» بلهفة نشبت بها طفول،

«أسعفيني، وإلا ما ردَّني إلا إبليسي...».

«لا أعرف، ربما أغنتكِ الاستجارةُ عن الرد، به منه، استجيري، صُبّي جوابَكِ في نفثةٍ بصدره، راوغيه بالشكوى منه، قولي: أرحمْ، لكلماتكَ شُهُبٌ عميقةٌ بجسدي، كلمةٌ تَنْطِقُها تُرسلُ فيَّ رجفاً، تُحَرِّكُ سواكناً تُخرسني، لو نَطَقتُ أُفتضحتُ، تُغَيِّبُ صوتي وتوقظُ ما لايُقال.... وتلومني...» في اليوم التالي، أقبلتْ طفولُ بذهول،

«منذ البارحة لا أُصدِّق صعقةَ نصيحتكِ! أنتِ.. جنيٌّ أزرق!! ما أن استجرتُ حتى تهاوى صرحي العتيد: يا حبيبتي... شَهَقَها شهقةً، وكادَ يقتحمُ سماعةَ الهاتف إليَّ، لم أر رجلاً يتهاوى بكلمة كما كلمتكِ يا سُهُنّ يا مريم الجِنّ!» ضحكت مريم محرجة،

«الدَوِي يغلبُ السحرَ، عبارةُ جدتي الأثيرة».

«بلى وكلا وألف، جَنْدَلَه وفرسانَه وقبيلتَه».

****

تَلاشَتْ أمُّها من الحجرة لكأنما هرباً من مواجهتها. ارتعدت الساعةُ المُرَبَّعَة على رفِّ المكتبة الأوسط، تماماً حيث تنام مؤلفات جلال الدين الرومي والبسطامي والسهروردي، وابن عربي، ما الذي يمكن أن تستشعره تلك الأرواح القديمة في ساعةٍ عصريةٍ تُحرِّكُها أصابعُ من الطاقة تَفْرَغُ كُلَّ شهر، تَوَقَّفَ العقربُ الصغير على العقرب الكبير على الواحدة تماماً، عقربُ الدقائق وعقرب الساعات يتطارحان الحُبَّ على الرقم واحد، بينما عقرب الثواني بدأ يرتجف مثل حشرة عالقة في وحل الرقم سبعة.

«كل ظهيرة وفي تمام الواحدة تبدأ وَقْعَةُ الحُبِّ تلك...» قامت مريم لتبديل البطارية الوحيدة الرفيعة مثل إصبع، رَفَضَ العقربُ النهوضَ عن عقربه، لكأنما مشلول بسموم تُذهبُ صوابَه وزَمَنَه المخزونِ في فِعْلِ الحركةِ الدائرية الأبدية،

«لو تَوَقَّفَ العقربُ عن الدورانِ فَارَقَهُ زمنُه وخلاه يموت». الزمنُ هو الحيّ، حركتُه هي الحياة، ووقفتُها هي ما وراء الحياة. يجب أن يعي العقربُ هذا لِيَكفَّ عن تكرارِ وقفته الآنيّة هذه كلَّ ظهيرةٍ للحُبِّ. لم تنجح في بَعْثِ الحركةِ في العقرب حتى دَفَعَتْه بسبَّابتها للساعةِ الثالثةِ عندها دبَّتْ فيه الوِحْدَةُ فصار يلهج على وجه الساعة وأرقامها يُفَتِّشُ عن رفيقٍ لا يلتقيه على رقم.

جَلَسَتْ مريمُ في عتمِ حُجرتها تَتَبَّعُ تَكَّاتِ العقرب في وحدته، يومٌ، خمسة، أسبوعٌ، أسبوعانِ، ثلاثة، لا يهم، مَضَتْ منذ رجعتها من لندن وغياب بدر، تشعر به في كل أطرافها، تشتاق رواحهما ومجيئهما في مطر لندن، تؤرقها رائحته، تُخرجها من نومها ضحكة خجلى ترسلها نظرة منه، تلك النظرات التي مثل سنارة تحبك القلب للقلب، التواصل بينهما يفتر وفقاً لالتزاماته، هاهو ومن أقصى القُربِ يغيب، عقدةٌ من الوقت وَقَفَتْ في شريانها الأورطي وتَجَلَّط فيها بدر، يومٌ أو مائة تمضي لا يهم لولا هذا التجويع، هذا البتر عن جذع بدر، لا يجري الوقت إلا حين تُسابقه داخلنا

رغبةٌ أو جُرحٌ أو حلمٌ، وإلا تَحَجَّر الوقتُ ومات، خارج السباق لا حياة للزمن. تأملَتْ مريمُ في الزمن حولها، النافذة الوحيدة الموصدة للأبد لا تُبْقِي للضوءِ من خَيَارٍ في مُزاحمتها الفراغَ الضيّق بالحجرة، تشعر بالعتم يسري على وجنتها، تغمض عينيها وتطفو صورة الأب المخلوع، تتحاشى مغادرة حجرتها للاصطدام ببقاياه في الخارج، منذ خرجته الأخيرة للمستشفى شعرت مريم بالدار تضيق حولها، صارت تتجَنَّبُها، من البابِ الخارجي لبابِ حجرتها تلهثُ لِقَطْعِ المسافةِ بأقصى سرعةٍ مُمكنة، تَتَجَنَّبُ روائحَ الأب، تَجَنَبَّتْ حجرةَ الطعام، تَجَنَّبَتَ وجباتَ العائلة، صارت تتناول وجبات مبعثرة في مواقيت غامضة لتضمن ألا تجلس لتلك المائدة المسكونة بهيمنة الأب. أكثر مابقي في الدار من أبيها ذلك الإيقاع المضطرب، مضى على حبسه في حجرة مستشفى عام كامل ولا تزال الطاقة الكهربائية الصاعقة حية في المكان، وتأخذ تلك الطاقة بالتردد والتذبذب والصعق كلما اخترقتها مريم، وخصوصاً كلما دخلت حجرةَ مكتبه، هناك ينتظرها بركان كامن من الطاقة المكبوتة تركها الأب المخلوع،

«أيمكن أن تخلع أباً؟» أخواها، مروان وأنور، فعلاها،

«لن أسمح لكم بحبس الرجل في حجرة مستشفى مع وجه غريب يمتص آخر ذكرياته».

«حسناً، تخلي عن عملك والزمي البيت، الزمي حجرته لضمان ألا يفجر رأسه في الجدار، تعرفين أن نوبات الهياج ومحاولات إلحاق الأذى بالذات تتلاحق، تعرفين كيف ضرب ممرضه بالأمس وانفلت هائماً في الطرقات ولم نجده إلا بالصدفة قبل أن يرتكب جريمة، أبوسعكِ مُجَالَسَته في نوباته أم بوسعكِ تقييده والجلوس على المقعد المواجه للفرجة؟» وبعد جلسات صراع استسلمت وتركت لهم القرار، أخذوا جسدَ الأب وتركوا لها هذه الطاقة تكمن لها في كل زاوية بالبيت، تنتظرُ دَخْلَتَها لتنبعث بالحياة

والمقاومة، دوماً كان يقاومها، كاملُ وجودِه تَمَحْوَرَ حولَ مقاومتها ومحاولات تحجيمها لالشيء وإنما لافتتانه بالطاقة الكامنة فيها والقادرة على اكتساحه.

تسترجعُ آخرَ جلسةٍ لهما قبل سقوطه في الخرف، تأتيها أدقُّ التفاصيل بجلاءٍ عجيب، تَتَذَكَّرُ ملمسَ السُجَّادِ العجمي في مكتبه، السُجَّاد كان عشقه ويُدَرِّبها على قراءةِ عُقَدِه الدقيقة، «ستون، تسعون، ثلاثمائة عقدة في السنتيميتر المربع». حين يذكر لها تلك الأرقام كانت تشعر بأصابع مئات الفتيات الصغيرات تتزاحم تحت قدميها، اعتادت أن تطأ سجادته الأثيرة تلك حافية، صار للسجاد أينما وطئته حياة آدمية وتُدغدغ باطن قدميها، رَبَّت تلك الرهبة تجاه السجاد وخاصة تلك المستطيلة بين قدميه، تتقدم واعية بكل أُنمل بكل حلم يسكن الأنمل الرقيق، بكلِّ حركةٍ طائشةٍ تُحَرِّرُ ورقةَ شجرٍ على تلك الشجرة السماوية بقلب السجادة، مجرد دخولها الحجرة يُهيِّجُ الإيقاعَ، تعرف مريم ذلك التبدل في طول الموجات، تتجاهله، بجسدها الصغير تقترب من الرجل القصير المحبوك الجسد،

«مرحبا..» وتطبعُ قُبْلَةً خفيفةً على رأسه، تسقطُ القُبلةُ على الصلعة التي تتناوشها خصلات بيضاء، تعرف أن العقيد يحيى يُحب أن تطبع قبلتها على رأسه، مذ كانت طفلة أعجبها أن تستهدف تلك الرأس الضخمة. ورغم اللامبالاة السطحية تشعر مريم بهذا الوجه الأسمر المربَّع يتقلص ويُخرج أسلحته الصغيرة وإنما الفتَّاكة، مجرد نظرة كهذه النظرة الجانبية تنزع عنها إنسانيتها، تقول لها،

«أنتِ إعصار، أيفخر الإعصار بالدمار الكامن فيه؟» نظرةٌ واحدةٌ تلومها على العنفوان، استدارةُ تلك الكتف صوب المدفأة تقول لها:

«ألتقطُ رائحةَ الفكرة الطائشة برأسك، لن تُفلت مني!».

وترٌ في ذاك الجسد يتأهب لإطلاق السهام المسمومة، لذا تلزم مريم الصمتَ، تُحوِّل جسدَها لنقطةٍ على الجدار، لنقش في ذاك المقعد الوثير

أمام جهاز التليفزيون، تحرص ألا تُصدر النقطةُ ولاحتى نَفَس، وتتأمل بحواسها الباطنية ردودَ فعل الأب، على الشاشة تظهر طفلة فلسطينية مبقورة البطن، ينفخ الأب بسخرية:

«الوأدُ لَمْ يَحْتَلَّ المساحةَ التي أحتلَّها في التاريخِ عبثاً...» تترك مريم للعبارة أن تنزلق في المسافة بينهما، لا تلتفت، يكمل الأب،

«أقنعة ملائكة يلبسنها في الصغر ويخلعنها رويداً رويداً لتُسفر الشياطين...» لا يسمح الأب لهواء الغرفة بالاسترخاء، يحرص وبتصميم على إيقافِ نِصَالِ وشفرات في المسافة بينهما لتجرح كل ما يأتيه منها، يكمل:

«الكلمة سلاح حين يحجبونها أو يُطلقونها وراءك...» بعد فترة صمت، قالت مريم:

«تَلَقَّيتُ رسالةً إلكترونية عن وثائق جرائم الحرب في أفغانستان، انتهاكات حقوق الإنسان مما لا يمكن استيعابه لكأننا انتكسنا بالقرن الحادي والعشرين لعصور الظلام ...» يستدير بعنفِ مكبوتٍ صوبها،

«حروب العرب على الماء والأولى لو تحاربوا على الوقت، فخورة أنتِ بالفراغ الذي تمارسينه بالبريد الضوئي؟».

«نحن نتحدث عن أفغانستان...» تصمت مريم، هذا الصمم يقود الحوارَ للتفجر، من العبث التخبط وراءه، فكَّرَتْ مريم أنه ما مِنْ مسافةٍ يمكن أن تَفوقَ المسافةَ التي بَسَطَها الصَمَمُ بينهما. يُقَاوِمُ استعمالَ سماعات الأذن لكونها تُضَخِّمُ أدَقَّ الأصواتِ وتُصيبُه بالصداع بينما ضحكةٌ شاردة كفيلة برميه بالفزع... لم تتحرك مريم، تعوَّدتْ أن تَتَلَقَّى تلك الانفجارات بحيادٍ وسلبية، تماماً كما تراقب ظاهرةً طبيعية.

دوماً أكدت لها والدتها،

«شراسته تعبيرٌ عن العجز، يُخيفه أنكِ تنغلقين دونه وتتركينه مرذولاً في الخارج. لاتخبو برأسي صورتُه عند ولادتكِ، وحين حبوتِ ومشيتِ،

لم أر في حياتي أباً يفرحُ هكذا، أقنعني بأنني لم أُنجب كبقيةِ النساءِ بِقَدْرِ ما خَلَقْتُ معجزةً، كان يُمضي الساعات يتأمل في رقدتكِ، يُطعمكِ بيديه، يغسلكِ بماء البحر، يُلقيكِ للماء فترجعين، كان يُلَقِّنكِ القصائدَ والآيات، وحين استويتِ على قدميكِ بدا كمن يخطو خطواته الأولى في الحياة، يتلقى معكِ كلَّ دهشةٍ، طعامُكِ كان قضية، يحرصُ فلا يُطعمكِ إلا الخضار التي زَرَعَها في حديقتنا، الفواكه يقطفها من الشجر، نظريتُه ألا يبني جسدَكِ إلا الحي، هكذا، كان يُقدمك بالقول: هذه ملاكي، ملكتي! أطرافُكِ الدقيقة نزلت بين يديه مثل وحي، كَتَبَ من القصائد مالم يكتبه في سنوات حبِّنا وعشقبي، معه أدركتُ أن: إنجاب طفلة ليس بالأمر العادي، إنه ظاهرة كونية، أشبه بانبعاثٍ من بركان... أنا وهو انبعثنا...».

«بالضبط هاهو البركان يستيقظ لتصحيح فعل الولادة، للتكفير عنها لتكفين المولود بالرماد أو باللافا الحية...» تَتَبُّع مِثْلَ تلك الفكرةِ يقودُ للمزيدِ من الاضطراب في أرضية الدار، لا تعود مريم نفسها، تشعرُ باختلالٍ في مستوى إنسانيتها، في صفاءِ الموجةِ التي يُفتَرَضُ أن تربطَ الكائنَ بفكرةِ الأب، بشكلٍ أو بآخر محاولات الأب القامعة للشابة والمراهقة لا تسعى لأكثر من تقليم الأطراف لبعث تلك الطفلة الدمية، يدفعُ عُمراً، بل أعمارهم جميعاً، لوأد الشابة واسترداد الطفلة فيها يُدركُ أن المرأة للغريب بينما الطفل للأب. .

بعد عام من غيابه في سجنه الأبيض لا يزال ملمس صلعته حاراً على شفتيها، تتناول كأساً من الماء البارد تَطشُّ مذاقَ القُبْلَة، تَطفرُ من عينيها دمعةٌ حارقة، تسكب بقيَّةَ الماء المثلج على وجهها وتترك له أن ينسرب لعنقها والصدر،

«لا شيء يُبَرِّد غيبة هذا السجين، لا شيء يُبَرِّد قسوتنا عليه».

****

الكلمة الأولى التي ينطقها رجل هي الكلمة التي تخشاها مريم، لأنها تأتي مثل طلقة تُوقِعُ قلبَها في الحب أو في الحياد، وعبارةُ محسن جاءت في الصميم:

«انتحارٌ تركُكِ تتسربين من بين أصابعي».

للمدينة المعروفة بعروس البحر وجوهها الدافئة، وجوهاً وراء أقنعةٍ، وراء أسوار تَتَخَفَّى لتُبرز ملامحها البشرية، سقطاتها، ضعفها، لتنفلت على سجيتها وتستقبل العابرين بخِفَّةٍ تُضاهي خِفَّتهم، لكل عابرٍ وجهٌ تلبسه له المدينة، وفي مكتب هيئة الأمم تجتمع وفي مواسم كلِّ الوجوه.

لاحتفال مكتب الأمم المتحدة بيوم الحب طَارَدَتها سيارة فولكس واجن صفراء فاقعة وملفوفة الخاصرة بوردةٍ حريرية حمراء تُهفهف في سماء جدة، أرجُلُ الوردةِ عملاقة وتَتَشَبَّثُ بزجاجِ النوافذِ على الجانبين، لكأنما تسيل بطول سقف العربة بحيث لايمكن أنَ تتجاهلها، الشبان الستة المعصورين في الداخل استمروا يلوحون لها بأرقام هواتف على يافطات متفاوِتة الأحجام، بين كرٍّ وفَرٍّ مع براعة سائقها شَيَّعوها حتى أسوار تلك الفيلا الضخمة بشارع خلفي في حي الروضة! في عطفةٍ للطريقِ لاحتْ سيارة الـ GMC المعتمة فشاع ذعرٌ بين الستة، تبددت يافطاتُ الأرقام، تَحوَّلت الابتساماتُ المغوية لابتسامةٍ تحدٍّ واحدة وممطوطة بعرض زجاج الفولكس واجن التي زعقت كوابحُها وتلاشت في عطفةٍ كأن لم تكن، تأهُّبُ مريم أيضاً لم يكن مُبَرَّراً فحين حاذتها الـ GMC لم تكن تحمل على بابها الأيمن شعارَ هيئةِ الأمرِ بالمعروف، استرختْ بابتسامةٍ ساخرةٍ عَكَسَتْ ابتسامةَ سائقها في المرآة.

«الملدوغُ يخافُ من جَرَّة الحَبْل..» في الداخل وعلى طاولةٍ طويلة مطموسة بالأحمر المُؤنَّث وربطات العنق الفاقعة التقت مريم لأول مرة بمحسن، شاب في سوادٍ من الرأس للقدم، لاتشوبه حُمرةٌ بشعره الفاحم يصل لكتفيه، بدا مثل شخصية خارجة من حفلات عيد الحبِّ التنكرية

بشوارع فينيسيا السحرية والمتأهبة للفتك براسبوتين! وكان يتحرَّكُ بسلاسة بين الوجوه واللغات، وحين هدأت الموسيقى جاء يشدها لمراقصته، لم تتردد، وصارت نقطة في دائرة تلك الأجساد الرشيقة الفاقعة، يدها بين يديه بدت مثل طائر لا يقع ولا يتعكَّر ريشه، بخفة دار بها ورجع، خلاها لطاولتها حيث رفاقها بانتظار. ثم وبشموخ كان حولها طوال الأمسية بينما أخذت الأمرَ بِخِفَّةٍ، في اليوم التالي كان علَى هاتفها.

«أتتخيلين بوسعي تَرْكَ امرأةً مثلكِ تَعْبُرُني ببساطة؟!» كل صباح يفتتحُ يومَها رنينُ هاتفه، بأحاديث رشيقةٍ تتجنَّبُ الوقوعَ على القلب، تدورُ حولَه تبحثُ فيه عن ثغرة للاختراق، قلبُ مريم كان مَحَصَّناً ببدر، لكنها كانت مفتوحة على الاحتمالات، تعرفُ ألا أرضَ لعلاقتها ببدر، بينما تحتاجُ أرضيةً تتشاركها ورَجُلٍ، ومحسن بَادَرَ بتطليق زوجته،

«يقولون عقود النكاح تُكتَبُ في العرش قبل الفرش، وعقدي وزوجتي انفصم في الفرش والعرش منذ دهر وها نحن ننسخه على الورق...» نصفُ الرجل ربما أكثر طلاقة في التعبير عن رغباته تجاه الأخريات من الرجل الكامل، فمحسن أيضاً كان نصف رجل، لكن طلاقه لزوجته جعل منه... ماذا؟ رجلاً كاملاً؟ أم ثلاثة أرباع رجل؟ أم اللا رَجُل؟

أسبوع واحد ازدحم بمحسن وانسحاب بدر ليترك لها مساحة لبدء حياة، أحاديثُهما الطويلة، في نهاية الأسبوع بادرَها بالسؤال:

«والآن قولي لي، ما أنتِ؟» دَقَّ قلبُها للسؤال، تلك الدقة هي التي أسقطتْ عقلَها بين يدي محسن، سؤالٌ انتزعهما من اجترار اللقمة لِهَمٍّ صغير هو (الإنسان، تصويره، مآبه، وحلوله في وجودٍ أبلغ).

«سؤالُكَ مُخيفٌ...».

«حقيقة، لا شيء يُخيف..».

«لسؤالكَ دقَّ قلبي دقةً قوية، من المخيف أن تأتي لجسدك وتقول: ماذا تُخبيء؟ من أنتَ؟ ما هذه النفس التي تحملها في صمتٍ وتهيمن بها

على جسدي وروحي؟».

«ببساطة فكِّري وقولي: من الجالس فيَّ ويُفكر، ويستقبل الصورَ ويراها لي؟».

«شيء جميل، مجرد السؤال مثير...».

«والآن، من أنتِ؟».

«الآن حقيقةً لا أعرف، فلم يسبق لي وفكرت بذلك، لكنني الليلة سأُفكِّرُ وأعرفُ من هذا المختبيء فيَّ. لكن قل لي: لابد وأنك قد اشتغلت بموضوع النفس هذا، فلماذا توصَّلتَ: مَن أنتَ؟».

«لا أعرف...».

«بل لا تريد أن تقول».

«الآن فقط اكتشفتُ بأنني: لم أوجه هذا السؤال لنفسي من قبل».

«أنا على يقين أنكَ وداخلكَ تعرف، لكن، لا تريد أن تُفْصِحَ حتى لنفسكَ، لا بد وأن عقلك قد صاغ إجابةً في عمله على هذا السؤال».

«ربما، لكنها إجابة مدسوسة في غور ما بهذا الرأس، المهم كيف نُخرجها».

" ما الفرق بين ما يجعل القطة قطة وأنا أنا؟».

«حين تضعين رأسكِ على الوسادة الليلة استحضري كل هذه الأسئلة وأغمضي عينك عليها، الدماغ يعمل بأفضل صورة خلال النوم بعيداً عن المؤثرات الخارجية والفوضى والتداخلات».

«دوماً تُهاجمني أجملُ أفكاري بينما أدخلُ في النوم أو حين أفيق من نومي فجأة بخيالٍ أو بصورة جميلة أخطفها من الحلم...».

«ضعي ورقة وقلماً قريباً...».

«الورقة والقلم تحت وسادتي، المكان الأقرب...».

«الليلة ضعي صورتي تحت الوسادة...».

«ليخرج لي هذا الذي لا تعرفه ويخيفكَ؟!!» ضحكتُه ظلَّتْ تَرنُّ بقلبها.

تلك الليلة وضعتْ السؤالَ على كلِّ مَنَافِذِ العقلِ، القلبِ، وأغمضت عينيها لتنام وتبلغ إجابة، الصور التي طفت برأسها لم تتوقعها، أول ما طلع لها:

(زهرة كرنب) فكَّرت،

«أنا زهره كرنب ملفوفة وملفوفة على رغبتها في المحبة.» استراحت بابتسامة لفكرة زهرة الكرنب، والتقطت صورة لنفسها تلف أوراقها على شيء لا يُقبض.

«أتخيَّلُ محسن غداً حين أبادره بالقول: أنا حبة كرنب... سيصدمه تحويل فكرته الجادة لمشهدٍ كرتوني..» زهرة الكرنب لم تلبث أن استدعت صورة أخرى أكثر ملائمة لجدية الطرح:

(طيور خضِر طرية ملفوفة بورقة شجر، مثل كوز ذرة) ذاك المشهد من حكايتها الأخيرة للصغار في الروضة، وكان قد جاءها في حلم،

«ربما هي محاولة من نفسي لتكشف لي عن حقيقتها. النَفْسُ طيرٌ من تلك الطيور جالسٌ فينا ملفوفاً بشرنقته الخضراء وهي في ذات الآن المُعَلَّقَة في قوائم العرش، وتأخذ تلهمنا المشاعر والأفكار، حتى إذا متنا فَقَسَ الطيرُ وصارَ من الطيور الخضر التي تُعمِّر سماء الجنة...» استراحت قليلاً لتلك الفكرة،

«للفكرة رنين فلسفي يليق بالطرح، ليس كحبة الكرنب...».

رغم الخفة التي انساقت لها مع تلك الفكرة إلا أن سؤال محسن جعلها تتهيأ لمطاردة حقيقةِ النَفْسِ، تلك الليلة ومن صمتِ أسابيع انبثق بدر، لكأنما قرأ ظهورَ محسن في أفلاكها، دوماً لاحقتْها منه حاسةٌ سابعة أو عاشرة، وكلما أوشكت على النجاة منه حضرَ واستحكم، تمالكت

الدوي بصدرها ومالت بحوارهما للخفة، للعام، للنائي عن القلب وسَكْتَته، بادرته بالسؤال،

«أسبقَ وعملتَ على فكرة الفرق بين الجسد النفس الروح؟»

«هذه مسألة كَثُرَتْ فيها الفرضيات في تراثنا.. هَبَطَتْ إليكَ من المحل الأرفع.. كما تقول قصيدةٌ لابن سينا عن الروح...».

«الآن أريدُ تَصَوُّرَكَ الشخصي...».

«لم أفكر حقيقة بالأمر لكن، أتصور أن الجسد هو هذا الملموس الذي نعرفه، الروح هي المُحَرِّك للجسد، أما النَفْسُ فهي مجموع الأحوال التي يمر بها الإنسان من كره وحب وغضب...».

«أتتفق إذاً مع الرأي القائل أن الروح هي الكهرباء، الطاقة التي تُحرِّك الجسد تماماً كما أن الكهرباء هي التي تُدير الأجهزة، ومن هذا المنطلق فإن الروح لا تتمايز من شخص لآخر، هي نفس الطاقة وربما تمايز الأشخاص بقدر حدة شحنتها، فهذا 110 فولت وذاك 440 فولت مثلاً».

«نعم، هي الطاقة».

«والنَفْسَ هي أنا، هي أنتَ، هي التي تتمايز وتصنع الأنا والأنتَ؟».

«نعم، هي مجموعُ الأحوالِ ناتج عن الخبرة والثقافة...».

«أي أن النَفْسَ تَتَعَلَّمُ وتَتَغَيَّرُ...».

«النفس تنمو، تضيق، تحزن، تتقلَّب، أي قريبة من القلب، قُلَّبٌ، كما جاء في الآية: ولكن تعمى القلوب التي في الصدور... وقالوا قلوبنا في أكِنَّة...و الوعي بالعالم يتم من خلال النفس، الكتب العربية لم تتطرق كثيراً للروح، قل الروح من أمر ربي، من هذا المنطلق تحولوا من البحث فيها للنفس. فالروح كائن غيبي يُلْمَس مرتين، مَرَّة عند نفخ الروح في الجنين، والأخرى عند مفارقتها للجسد، فتظلُّ بذلك خارج نطاق التصور...».

«فالنفس هي القلب إذاً؟؟».

«تُقابل القلب في الثقافة العربية، بل لهم قلوب لا يفقهون بها... وثَبِّت قلبي على الإيمان، ليس القلب العضوي وإنما القلب الكياني، النفس...» فجأة باغتته،

«سأتزوج». السكتةُ في الطرف الآخر أرسلت مثل مطر الزجاج بقلبها، مطر صامت ويترقرق ويتكسر بينما يهوي،

«يشهدُ الله لستُ سعيداً بحجبكِ عن حياةٍ بزوجٍ وولد...» تذكَّرتْ أن ظهورَه جاء بإرادةٍ منها، هي من بدأ مراسلته في افتتانها بدواوينه، كلماتها هي التي أوقعته في الحب والأسر، بعد صمت، «قلبي معكِ في كلِّ سعادةٍ تختارينها...» حنانٌ طافح سرا من كلماته إليها ممزوجاً بمرار، تلجلجلت دمعة بحلقها ولم تجرؤ على التعليق، قَطَعَها كما أَسَرَها بلا عناء، بمجرد كلمة. بعدها غابَ لكأنما يُفسح المجال للآخر ليَتَجَذَّر فيها، وربما فراراً من صوت الآخر في كلماتها. بَحّةُ الحنان في كلماته ضَبَّبَتها كغصَّة مكان القلب وإمعاناً في الثورة عليها قَسَرَتْ مريمُ قلبَها على التعلق بما يجيء، دفعتْ شخوصَ الأمس لما وراء عقارب الساعة بحجرتها، دفعتها عكس جريان الوقت فلايلتقيها عقربٌ من عقاربها ويلدغها بتلك الغصة، وتهيأت للآتي، بكل ما يتجسَّد فيه ويتأكد.

ككل صباح كان عليها أن تحمل كلَّ تلك الأثقال القلبية وتخترق المدينة لمواجهة الصغار، بين عمر الرابعة والسادسة تكون عينُ الطفل مثل الأشعة السينية، وربما تتصلُ بالنَفْسِ مباشرةً فتقرأ عنها، حين تأتيهم مكشوفة الأسلاك بكهرباء مختلة يظهر ذلك في سلوكهم، تضطرب هي فتصدر عنهم أفعال مخرجة عن الصواب، يصير لهم سلوك مدمر، وحين تأتيهم بإيقاع منتظم ينتظم إيقاعهم ويتحوَّلُ المكان لمعزوفة.

عَبَرَتْ ميدانَ الفَلَك بكواكبه المعلقة على مسارات معدنية ترسم قوساً عظيماً في الهواء لتهبط على المدينة، مثل مطر كواكب، هكذا تبدو

أرواحنا معلقة في تيارات تطلع من أجسادنا للآخر، فكّرت مريم، أما نفوسنا فهي مجموع هذه العُقَد (الكواكب) والمحمولة في الجسد المشدود مثل قوس، (عُقَدٌ من المشاعر المتقلبة وربما المتصادمة أو المنسجمة في جريانها بذاك القوس)،

ما إن أقبلت مريم على مبنى الروضة حتى انفجر حولها الصباحُ، الأشجار في الساحة الخارجية، بياض المبنى الضارب للصفرة والمشرب بالشمس، الزميلات يقمن بتمارين المشي، فائزة التي تُحيلُ حتى المشي الصباحي لهندسة كيميائية صارمة. مع فائزة تخلع أبسطُ الأفعال اليومية، كالتنفس مثلاً، تدويرَها ومطاطيتها. تجزم مريم أن قُبْلة فائزة تقع على الشفتين مُرَبَّعة بزوايا حادة متساوية الأضلاع والتنهيدة. وتظل فائزة موضوع طفول المُفَضَّل للسخرية، تُواجهها بصراحةٍ ضاحكة:

«كبدي على بعلك المسكين، أعرفُ واللّه سامع شكاته، لا يُثيركِ إلا بمسطرة تقود لذروةٍ لا تزيد ولا تنقص ولاتخرج عن الخارطة بحساباتها الأولية البناءة...»، تشير لها مُحيَّية من موقعها تحت الأشجار البعيدة.

وقفت مريم في رشاش الشمس تحت اللوزة الكبيرة، أصاخت السمع، تَتَلذّذُ بسمعها، حين يبدأ سمعكَ بالانسحاب تُفيقُ فجأة للذة الأصوات،

«ليس مجرد مشي، وإنما مغادرة لصناديق المباني بتكييفها المركزي، هو خروجٌ ليَمَسَّكِ العالمُ، الشمسُ، عيونُ الطيور والسحالي، ظلالُ الأشجار روائحها، غناءُ هذه القمرية، وأصواتُ الشُبَّان القادمة من الثانوية على بعد كيلومترين، صفارةُ الحكم، جرسُ الصباح الكهربائي يُطْلِقُ كُلَّ طيورِ الأشجارِ في الهواءِ مثل قُبَّةٍ مُرَيّشة، أحلامُ المراهقين السريّة والتي تُحَمحم تحت الغُتَرِ البيضاء، أصواتُ العالم المرقَّشة بالظلال.. هذا ما يفتقده أبي بفقده التدريجي للسمع، كمن تطلع لجلده صَدَفَةٌ عازلة للصوت تعزله عن العالم..».

«ما زال رأسُكِ والسماء!!» بَادَرَتْها بدويةُ طفول، هذه التي تكرر ساخرة،

«نحن البدو عميان وناريون، نغمض أعيننا ونندفع...» أي أفسحوا السبيل للسيل، تندفع لتُدهشك، بنفس البساطة والعفوية وحيوية الإحياء، تُفكِّر مريم،

«طفول وحين تكفُّ عن الإدهاش تختنق وتموت!» تتوقف البدوية السمراء بابتسامة مريم المتواطئة، الثامنة صباحاً هو توقيت إعصار طفول، لا تقفوا في طريقها لأنها ستُنْجِزُ في نصف ساعةٍ صباحيةٍ ما تُنجزه رفيقاتُها في ساعات من التحضير المسائي، ودوماً في آخر لحظة تبغتُكَ طفول بما يجعل توازنك يختل، لذا عاجلتها بسؤالها المفضل،

«براسك للسما؟» جاوبتها مريمُ ضاحكة،

«على العهد لك يا فهد..» ما أن تقترب من طفول حتى تدخل في مبارزة مع روحها الجامحة، العمل معها ما هو إلا سير على خيطٍ رفيع في الهواء، لكن بكل خطوة قد تحملك في الفراغ، شعورٌ خارق بالإثارة والفزع في آن، تشعر مريم أن عليها أن تكون دوماً أجمل وأكثر عنفواناً لتخطو في الهواء. أول من ينضم لاجتماعات التخطيط اليومية هي طفول، تجلس على الطاولة العريضة بشموخ، بأطرافها الدقيقة،

«مايسة ودِقَاقَة... هكذا يصفني بافتتانٍ شيوخُنا...» عكس مريم التي مثل الدمية، قصيرة دقيقة بعيون نمر. تذكَّرتْ مريم حديثَهما بالأمس، لشهرٍ تخوض طفول معركةَ إقناعِ والديها بالسماحِ لها بحضور زفاف مريم بالقاهرة، الزفاف اقترب وطفول لا تُحرز تقدماً في إقناع أهلها بالسماح لها بالسفر،

«والله وناسة، احتفالاتكم في القاهرة وبيروت، نحن وفقط بالأسود والأبيض، الأسودُ في بَرٍّ والأبيضُ في بَرٍّ ثانٍ... ولاثالث إلا الشيطان». لكن الأم صَمَدَتْ تُقاوم طفول بشراسة،

«عرسُكِ اقتربَ وأنا مَحَلَّك سِرْ، أعرفُ أن الأمر مستحيل ويُصيبهم بنوبةٍ قلبية جماعية، إنما أصمد في حربهم لصقل أسلحتي ولإضعاف مقاومتهم لطلبِ مستقبلي. أبوي نظره ضعيف ويتبع بعماءِ أمي التي لاترى على الإطلاق. البارحة كدتُ أواجهه بحقيقته: ويش فيكَ، خيال ماشي وراء ها الحرمة!!! لكنني أشفقتُ عليه، يُحزنونني حين يشيخون هكذا!» التقليد والحماسة، الذات هي موضوعها المفضل للسخرية:

«نحن بدو وعميان ونفسي بين جنبيَّ هي أول ضحاياي وعليها أن تحتملني وإلا انتهتْ في جهنم...» جاهزة دوماً بما تُسميه (النقد الذاتي)،

«عشراتُ النظَّارات في بيتنا، الكلُّ يتشاركُ تلك النظارات، أهلي لا يُراجعون طبيباً، نستغني بالطب الذاتي، تُكَرِّرُ أمي الخبيرةُ بالأعشابِ ووصفاتِ الحُبِّ أن: الجسد طبيب نفسه. وهي طبيبة الجميع وفي مقدمتهم المسكين أبي: يوماً قَطَّرَتْ له التِشْمَةَ في عينيه ففقد الإبصار باليسرى، وظهرت على صدغه شامة، الطب الحديث تَدَخَّل لمنح أبي قَرَنيِّة جديدة، من حجرة العمليات طَلَع لنا أبي البدوي من قبيلة قحطان بعينٍ زرقاء وأخرى سوداء من ليل قحطان، تصوروا فضيحتنا بالقحطاني العنجليزي».

تُقاطعها الضحكات، تُكمل،

«لا أعرف ما يرى القحطاني بتلك العين الزرقاء لكنه، والشهادة لله، تَنَوَّر قليلاً، صارت اللا تطلع من فمه متأخرة ثانية عن لاء أمي السريعة الطلقات، فشلت أمريكا في العثور على أسلحة العراق للدمار الشامل لأن نساء قحطان المتمدنات، وفيهن أمي، هَرَّبن تلك الأسلحة من أزمانٍ بعيدة، دَسّوها في هذه اللا، جاهزة في رؤوسهن ورؤوس أبنائهن للإطلاق بلا منصات صواريخ. على شارون أن يحتاط، مثل هذه اللا لو وقعت على إسرائيل لمَسَحَتها. لو أنكم ترون كيف يُطلقون هذه اللا، لا تطلع مثل لائنا من رأس اللسان يتصل بأول سقف الحلق...» تجرب مع الرفيقات نطق

اللا، خفيفة،

«وإنما، تَمُطُّ الشفتين، وتفلطح اللسان ليسد كامل سقف الحلق ويخنق، ليسمح باللوزتين بالتمدد والمزاحمة للبحث عن منفذ على جانبي الحلق لتَفِحَّ بالحرفين، لا، من النحر مباشرة». تتدخل المشرفة لتعديل مسار الاجتماع:

«طفول..» ويخنقها الضحك،

«اكتشفتُ بالأمس أن أبي يستعمل نظارة أمي الأخيرة وأمي تستعمل نظارة زوجة أخي، ونظارات أخواتي القديمة ونظارة جدي من حائل، وصديقة لأمي أعارتنا نظارتها، مهرجان نظارات ولا أحد منّا يرى...» كوميديا نقد الذات تلك حرضتها شكوى مريم في خلوتهما على كوب القهوة الصباحي، قالت،

«أما نحن فنقطة ضعفنا الأُذن... صَمَمُ أبي يجعله يتفجَّر غضباً حين لا يبلغ أحداً ولا يبلغه أحد فيأخذ بقراءة الملامح، من الصعب أن تُحيِّدي ملامحَكِ، حَبْسُ الكلماتِ أهون، يُحاسبك على ما قلت ومالم تقولي...» وتُصِرُّ طفولُ،

«ياحظّك! قاموسُ أبيكِ لفظيّ أو مقصورٌ على المقاطعةِ السلبية، أين غاندي من هتلر، علاقتُكما قائمة على الخوف، وإنما الخوف الذي يمنعه من اتخاذ فعلٍ فيلجأ لمعاقبة الذات وعزلها، بينما خوف أهلي هتلريٌّ يدفع للإبادة، يُكرر أبي: في هذه البنت من النار أكثر مما فيها من الطين، من جنس السعلاة، بينما طينُ شقيقاتي في غنى عن الحصار، سبعُ بناتٍ تزوجن جميعاً وتركنني لتنفرد بي عبقريةُ القمع الكامنة بالقبيلة..».

«أنتِ تَحوَّلتِ لمعضلةٍ حين ضربتِ الرقم القياسي في الطلاق، خافي ربَّكِ، أربعة دفعة واحدة».

«حسبوها عليَّ مع أن يدَ رَجُلٍ وللأسف لم تَمَسَّني».

«للأسف؟!!».

«الآن لا زايد ولا مزيد، سلامن على زمن الرعاديد، الآن في الساحة فهدن شاهرن سيفه فاتحن في القلب فتوحات، راهزن في الحوض رهزاتِ تِلالي، يا جِعَلْني فداك يافهد وقبيلي...» ورنَّت ضحكاتهما في مطعم الروضة. شاعت حكاية خطبتها لفهد كالنار في الهشيم الكل في دهشة للصيد الثمين الذي وقعت عليه،

«طفول هذه مصيبة وصيدها بدمه...».

في الفصل استقبلتْها عفافُ رفيقتها بابتسامةٍ برَّاقة، منهمكة في الإعداد لحلقتها التعليمية، بنظرةٍ واحدةٍ أَدرَكَتْ مريم التكدسَ الحاصل في ركن الماء، وستبدأ المشاكل، بنظرةٍ واحدة حَدَّدتْ مريمُ الركنَ الأكثرَ أماناً لتصريفِ ومُوازنةِ الضغطِ: ركن المطالعة! ليس كالكتاب يستقطب ويُؤلف الطاقةَ المبعثرة. اتجهتَ إليه، جلست متناولة كتاباً عن الرفّ تقرأ، وللحال بدأت أجسادُ الأطفال تَتَقَاطرُ صوبها، حسن الطفل الأرق الملتزم للصمت حتى يستهويه موضوع فيندفع بحماسة، دوماً إيقاع حسن هو الأسرع في الاستجابة، جاء من الباب مباشرة إليها، تناولَ كتابَ (بندا وعلبة الألوان) ووضعه بين يديها، كإشارة:

«اقرأي...» ما أن انفتح الكتاب حتى بدأت رؤوسٌ ترتفعُ من حوض الماء - حيث المُنْزَلَقَات بالسيارات - لترمقها باهتمام، تعرف مريم أن القصة تريد أن تنقل للطفل حب (دُبّ البندا للألوان)، بالإضافة لهدفٍ علمي ألا وهو التركيبات اللونية:

أزرق + أصفر = برتقالي

أحمر + أزرق = بنفسجي، يا للملل، سَبَقَ وقُرِأتْ عليهم من معلمات الفصل. إذاً الأطفال كما القصة بحاجة لتجديدٍ. بدأت بالصفحة الأولى فَتَحَتْها، الصفحةُ تُمثِّلُ بندا وأبيه وعلبة ألوان،

«كيف بدأت الحكاية؟» أخذ الأطفال يسردون ما تحكيه الصفحة،

«بندا أهداه أبوه علبة ألوان".

«صفوا لي علبة الألوان". تنوعت الإجابات وفقاً لفهم كل طفل لكلمة (الوصف)،

«أحمر أصفر...» قال بندر.

«أخضر أبيض أسود..» أكملت رناد.

«شكلها، يُشبه؟».

«المربع...».

«فعلاً الألوان نائمة في مربعاتٍ صغيرة». ومرَّرت مريم يدها على جسم العلبة، أعادت السؤال،

«والعلبة مربعة؟».

«لا ، مستطيلة...».

«والفرشاة، ما شكلها...».

«طويلة كعامود النور...» طوال الوقت كان ذهن مريم يعمل وبسرعة ليجد طريقة للخروج بالكتاب من جموده، فجأة خَطَرَت لها فكرة، هَتَفَت،

«آه، الفرشاة طويلة طويلة...» وحرَّكت يدها صعوداً في الهواء بحركة تمثيلية، سألت،

«من يُريني كيف تتحرك الفرشاة؟» وجَّهت السؤال لكل طفلٍ بدوره، نهضوا بأجسادهم ومَطّوها للأعلى وطَوَّحوا بها، ومريم تشاركهم الحركة بجسدها، تترك للتوتر أن ينزاح وينطلق جسدها حراً كأجسادهم، تتبع الإيقاع الغافل فيهم، إيقاعٌ يَضجُّ بلهفةٍ للفرح، للمزيد من الفرح لكأنه العملة الوحيدة التي يعرفونها للتبادل الإنساني.

في الاغتسال بشحنة الطاقة المنبعثة من الصغار تلاشى وجه أبيها المحتقن، زمجرته في طرقات المستشفى، تركيزه لِمَحْرَق عينه في وجهها

كلما وقفت بسريره، رغبته في الاختراق لقاعِ قاع دماغها وإعادة تدويره أو طمسه.

تخلع مريمُ كلَّ خرائط أبيها، كل مَقَالِعَ الحَجَرِ برأسه في اندساسها بأجساد الصغار، جسدها مؤهل ليختفي في طفلة بحجمه المحبوك، لولا هذه النار التي تلفح عميقاً لغاصت وما طلعت، بينما رفيقتها عفاف مسترسلة في تجربة الطفو والغوص مع الصغار، كانت مريم مسترسلة وراء أفكارها،

«لعبُ الأطفال يقودكَ ليس فقط للمس الآخرين وإنما للمس الكائن المهجور الذي هو ذاتك، بإشعاره بحياته، بمطالبتكَ له أن يفرح الآن دون نظرةٍ للوراء أو تحفُّظ، حتى لا يبقى فيك ما يعبس».

كانت المعلمة عفاف تسمح لكل طفل أن يُغْرِقَ في حوضِ الماء أداةً يختارها من الكيس بين يديها ويَحْكُم،

«طَفَتْ أم غَاصَت...» تأملت مريم في المسمار الذي غاص للقاع، فكَّرت،

«حين ندخل بأجسادنا للماء لا نترك لها أن تتذكر كيف هو إيقاع الماء، تستحضر ماءها لتدخل به في ماء الخارج، أن تحيا ذلك الإيقاع، حتى قطعة الخشب هذه التي طَفَت، والتي رَفَضَتْ ملامسةَ الماءِ بغير وجهٍ واحد فقط، حين رَفَعَها نواف بدا وجهها وقد بدَّلَ لونَه، كيف نُقنِعُ وجوهَنا بأن تُبَدِّلَ ألوانَها بالماء، بهذا اللون الذي يُحافظ على حيادِه كلَّ صباحٍ ومساءٍ، في كلِّ عشقٍ وكراهية، بهذا اللون النمطيّ الجبان لن نُفلح فنكوَن أجمل أبداً، ليس قبل أن تتبدل ألواننا بالماء أو بما تلمس...».

****

تصاعدت الأنغام الخليجية مختلطة باللبنانية والمصرية من المركب الفرعوني الراسي على ضفة النيل، تَصَدَّرت القاعةَ الكبرى منصةٌ صغيرةٌ،

حيث جلسَ محسنُ في بذلته السموكن الفاخرة إلى جوار مريم في ثوب عرسها البسيط، عن يمينهما كانت ساحة الرقص والفرقة، إيهاب توفيق يُشعل حماسة الفتيات، طفلة في الثالثة انبطحت على طرف المنصة في ثوبها القصير بقصب على سواد العنق والرسغين تتأمل في العروسين، في ذيل الحصان القصير يتدلى بسواده على كتف محسن، في لمعة الضحكة على وجه مريم، في وفود المهنئين تتوافد لطبع قبلة على جبين العروس، في الرقصة التي احتدمت بين والد الطفلة مروان وعمها وطوابير المتطوعات للرقص، في غيبةٍ ورجعةٍ كان أبوها ورفاقه يرجعون بتلك الرائحة النفاذة لأنفاسهم، رحلات سِرّية يتزودون فيها من نبع مخفي ببار بطوابق السفينة العليا، ويتأجج الرقص والنشوة والتعليقات وتحصر مريم ومحسن بدائرة على حلبة الرقص وفلاشات التصوير، حيث استدرجوهما لقضاء الليلة راقصين. رائحة النيل لا تزال عابقة من طرحتها القصيرة، تُهفهف حول وجنتيها وتُنَعّسها، يسكنها توقٌ لا تعرف لماذا... في هدأة للغناء، وحين قادها محسنُ لسطح المركب للتأمل في النيل شعرت بشيء فيها يتسرَّب للشق في جسد النيل، للبقعة حيث تَتَخَلَّقُ جزيرة ذهب، أهكذا يسمونها؟ ذَهَب، أم ذَهَب؟ ريفٌ فرعوني ينبثق في تلك البقعة حيث تبدأ الجزيرة، ريفٌ بعمر ثلاثة ألاف عام، تشعر مريم بنداء الكَتَبَةِ الذين أَلَّهَهم المصريون القدماء، تشعر بكلمات تُنْفَثُ بمؤخر عنقها تُحرِّضها للنبش عن مواقع للغزو بجسدها، عن كلمات تفتح الأبواب الموصدة من أعوام، جاموسة فاحمة مهيبة بعمر ثلاثة آلاف عام تتماهى بالعتم وترسل لمعتها لعين مريم، رعدةٌ سرت من ذراع محسن تنطوي حولها، مثل رعدة اليقظة في مقبرة خرافية بعد نومة آلاف الأعوام، كان بوسع مريم مواصلة الإنحناء للماء القديم، أقدم مياهِ الأرض هذا النيل، مياه تجري من خرجة حواء من ضلع آدم، مياه سابقت هبوطه من الفردوس، ليس كذاك الماء يحمل جسدها لكهوف لم تعرفها من قبل، أرادت لذراع محسن أن تتماهى

بذاك الماء، أن تهبط بها لحافته، لعمقه وتتبع مساربه فيها.

«كلاكيت أول مرة». الصوت الضاحك انتشلهما من زمانٍ سحيق، وأُوصِدَتْ الأبوابُ السِريِّةِ للمعابد الخرافية بروائح الحَنوط، وألقت بمريم للحاضر، والأبراج التي تُحَوِّط النيلَ وتُمعن في محو ذاكرته السماوية وأغراقه في وجوده الأرضي، أبراج تقف حائلاً بين تَقَدُّم الوقت القديم صوب المدينة وأهلها والفتيات الموشكات على ولوج دَنيا غير دنياهن الأجساد الهيَّابة لجريانها وسلاسته، أبراجٌ من زجاج بألف عينِ طاردةٍ وعينٍ. بحدسٍ غميق أدركت مريمُ قيامَها في موقف القُربان، وأنَ عبوراً سيتمُّ حين يتمُّ التقريب وترضى أرواحُ الجريان، لا سبيل لها للتحصن بماكانته حتى الآن، ذاتُها التي عاشرتْها حتى اليوم في سبيلها لخلعِ جلدٍ من جلودها والتقدم عارية قابلة للجَرْح، تأملت في سبابتها، حتى بصمتُها تتبدل تتفلطح لتصير بصمة أنثى، وهي عاجزة عن الوقوف في وجه ذاك الإنسلاخ.

تلك الليلة ختمتها مريمُ بين مطاريِّ القاهرة وشارل ديجول في طريقهما لقضاء أسبوعي عسلٍ بباريس، رائحةُ النيل لما تزل مخبأة في خصلاتها وفي مكان منسي بمجاري الدم، تعرف أن بوسعها الإفراج عن تلك الرائحة لتُفرج بدورها عن النائم فيها وتُسفر عن ذاك الجسد القديم، لكنها تحتاج وفقط لهدأة صغيرة تُنصتُ فيها لكتابة الكتبة المؤلهين من عصور الفراعنة والنيل ومَنَابعه ومَصَابِّه في الفردوس.

خلوتُهما في العتم الأول جاءت بعد طول تأجيل، اقبلت مريمُ من توقٍ، تَعَدَّدت لتستوعب لحظة الخلق تلك. وحين أقبل باغتَها خطفٌ، كائنٌ انفصل عن مريم واخترق في العتم ليرقبها ومحسن، كائن مذعور ربما لكن بالكثير من الفضول والدهشة، راقبت السلاسة، أكثر ما فَتَنَها السلاسة/ الماء في حركة الواحد للآخر، لكأنما للجسد لغة محبوسة ما أن تأمن للعتم حتى تنبسط وتُثرثر وتُرغي وتُزبد أو تُغني، على كثير من الحتمية

والاسترخاء كمن يسري من غربةٍ وتشريدٍ لكمال أطرافه، لأطراف محسن أغنيةٌ أينما وقعت ماست وأماست، واليد، لليد دور البطولة المُطْلَقَة في مَشَاهِد الحُبِّ، صارت اليد حمامةً ووليفها يجتمعان على نهدةٍ ومُنحَدرٍ أو غرزةٍ أو عتم، اليد عشٌّ ينطوي على العنق ويُسَكِّن طيرَه ويغزل ويُولِّد، اليد قالب يُقولِبها ويَسْبِكُ وينحتُ تضاريسَ الاخر. اليد شهقةٌ ونوبات اختلاج واستحواذٍ تتقلص على هذا أو تسري في سلسبيل ذاك... والطينة تخفقُ وتستحلبُ من عصاراتها لفعل النحتِ تَتَطَوَّعُ تفورُ تتكور تنبسط تفنى وتنبعث في ذات اللمسة.

وردةٌ بدأت تتبرعم في مركز الكون وتنبض بولعٍ، باستغراقٍ يُقارب الموتَ، وردةٌ من أفيون مُرَكَّز وتنزُّ بخَدَرها، استجمعَت كلَّ رعشة الكون لتتبرعم هناك تنبض وتُهدد بانفجارٍ، لكن في لحظةِ التتويج، لحظة انشقاق البرعم لتتويج الذكر انشقَّ عن مريم كائنٌ ثالث، تَرَاجَعَ عن حسم تلك اللحظة، في اكتمال الواحد بالآخر تَحَجَّر البرعمُ، فَارَقَه الماءُ، ولم تنجح الوردة في التفتق والتمدد برعشتها وخدرها المدوِّخ لكامل الجسد، تحَجَّرَت الوردةُ تاركةً جرحاً بطول الكون وذاك الألم من زعقةٍ يتضعضع لها الكون.

في مرصدها شعرت مريم بالذنب في فرط الألم ذاك، شعرت بتورطها في عجز تلك الوردة، في انفصالها قطعت الماء عن بتلاتها وانسحبت لرحمة الألم. قُبَّةٌ تحصرُ مريمَ في أقنعتها، وفي ظلالها فقدتْ مريمُ وجهَها ورغباته الدفينة والتي لا سبيل لبلوغها الآن وفي تلك الهيئة، صارت لها هيئةٌ غير التي حَلِمَتْها وأرَّقتْها طوال ثمانية وعشرين عاماً، تَغَرَّبت في فعلِ الانسحابِ ذاك.

هو لم يكف، مسلوباً / منجرفاً لبركانِ لذةٍ يأخذه لوجعها، لكأن لذة لا تُضاهى تُولد من فعل الألم من حقيقة الألم من إيقاع الألم ومنحه. لا تعرف أي ذروةٍ اندلعت برفيقها من كمال وجعها، حيث بدا عاجزاً عن

الرجعة، ولو خَلَّته في الهواء لتبدَّدَ.

في ختام العتم كان هناك إلى جوارها رشيقاً رطباً مثل نبتةِ (فَقْع) مشبعة بليونة مطرٍ ومدسوسة في رملٍ أبدي. لحظتها أدركت مريمُ اللَّذةَ التي يجدها البدو في الخروج عقب ليلةِ مطرٍ لجمع الفقع المولود من بغتة الماء تحت الرمل، لذة من لحمةِ الأرض لا تُضاهيها لذة.

ظلت مريم في ذهولٍ من فرط تلك النداوة، من انعقاد لحمةِ الأرض بثمرة الفقع تلك، من بقايا بغتة الماء في الرمل المحموم فيها وحولها وفي كل ما تَمَسُّ. سرتْ لآخر الفراش لآخر زاوية من وجودها وتكوّرت، مسلوبة للجرح وللجريان فيها، جريان لم يكف. تَذَكَّرت رفيقتَها التي قضت ليلةَ عرسها تُسرِّبُ فتائلَ المخدِّر عميقاً لكيلا يلحقها الجرح.

لم تَعِ متى ولا كيف غفت، محمولة غارت في سوادٍ عميق. في جوف الليل انبعثت مريم جالسة في الفراش العريض، احتاجت وقتاً لتحديد موقعها من الكرة الأرضية، جدة القاهرة؟ لكن الساق الثقيلة التي تحركت لتلتف على ساقها ردَّتْها لذاك الرجل الراقد إلى جوارها، استدارت تتأمل فيه، بدا نائماً في سلام، بدا وجهه مثل طفل مشبع، أسندت رأسها لركبتيها، غمرت وجهها بين يديها وهمست،

«ماذا فعلتِ يامريم؟!» ولكأنما استجابت لليأس بصوتها تحركت الذراع الناصعة لتطويها، في لمحةٍ كان لهاثٌ وغادرها الشحوب.

****

فيما جاء من عتم وصباحات أمعنَ غيابُ النيل ليُمعن حَجَرُ الوردة، نَفَقٌ من وجعٍ وتأهبٍ امتدَّ بطول جوفها يُعدي أيَّ جسمٍ غريبٍ بصلابةَ الرمح وطعنته، حجرُ صوانٍ يدكُّ صواناً، جوفُها لا يُهادن.

في نهاراتها سارت مريمُ بذاك النفق، بصوانٍ لا يضحك لضحكتها لا يروق لميلتها للبهجة، في جسدها جنازة، أدركت أن لجسدها شحٌّ يتلبسها

ويسلبها سلاسة حركتها، شُحَّ منبعه القلب، أدركت أن غياب قلبها عن الصورة هو سرُّ فراغِ تلك الوردة، أدركت أن العقل يمنح الجسد أجنحة وخَدراً لذيذاً لا يُطاق، للعقل حدود يقف عندها ويُخليك لعجز لحمتك، لعجزها عن الغناء والاستغراق والتلذذ لآخر نَفَقِ الوجع حتى الموت نفاذاً للحياة.

تتأمل في محسن ويفتنها استغراقه، تحسده، لكأن لذة سحيقة تنبعث من وجع الأنثى مثل ضربة برقٍ في جذع الذكر، مثل جَذَّةِ السكين على عنق الضحية، من برقها من لا رحمتها لا رجعتها من غَرَقها لمَقلَعِ الروح واجتثاثها.

****

ليلتهما الأخيرة بباريس بدأت حافلة، جاء للحفاوة بهما أصدقاء لمحسن، مصور لبناني يملك معملاً للتصوير في السان جيرمان، وصديقته وزوجان فرنسيان وصديقة مغربية تملك محلاً لبيع قطع التراث المغربية بالبلاس دي فوج. اصطحبوهما للعشاء في مطعم الريتز، الصديقة المغربية بُشرى التقت صديقها كارل المتخصص في تصميم المجوهرات والذي يعمل بالريتز، العشاء مرَّ خاطفاً، الألفة بين محسن وبشرى بدت واضحة فترة العشاء، كانا على علم بأدق تفاصيل عمليهما،

«اشتريتُ موقعاً على الإنترنت، تحت مسمى المحترف العربي، لاشك عندي أنه ومع تطور الوعي بأهمية التسويق عبر الإنترنت سيُلاقي رواجاً، ويُحقق الرواج للمساهمين فيه، بوسعي مقابل مبلغ رمزي عرض مجموعتك من القطع التراثية، وستجدين جمهوراً لكل تلك المعروضات التي يغطيها الغبار ولا تجد مشتر بين موجات السياحة الرخيصة، جمهورك ليس هذا المتسكع في البلاس دي فوج فقط وإنما في أصقاع العالم».

«لكن العرض على شبكة المعلومات يقتضي تصويراً محترفاً لمجموعتي الفنية، وهذا يُكلِّف إلا إذا كنتَ تُخطِّط لعقد صفقة على

حسابي..» وبتلك العبارة لكزته في صدره، ضحك،

«إن شئتِ سأعد لكِ صفقة عادلة، أفكر بتمديد اقامتنا لمدة أسبوع أو أثنين، أنا بحاجة لوقتٍ لشراء كاميرا خاصة، عندها بوسعي التقاط صور لمجموعتك وسنتفق على الشروط لاحقاً...» العشاء مرَّ بطيئاً ومتخماً بالأطايب التي تعاقبت للأبد، والحوارات التي تركزت حول مايمكن لموقع المحترف العربي أن يقدمه لجماعة المحترفين تلك. لا تعرف مريم متى رجعا للفندق من جديد، لكن بشرى أوصلتهما في طريقها لغابة الفاونتن بلو حيث تُقيم في بيت أقرب للقلعة القديمة.

****

الأيام التي تَلَتْ تجولا في طُرقات السان جرمان الضيقة، التقيا بكل وجهٍ ممكن، أمضيا ساعات في استديوهات ومعامل تصوير ومعارض لأجهزة التصوير والعدسات المتطورة، سمعت مريم مالاحصر له من تفاصيل سرعة الإغلاق ونقاء الصورة وقدرات التحميل، والبث السريع، والرتوش، معلومات تقنية، تفصيلات التفصيلات أرقام، ولم يعلق بذهنها الكثير، عَلِقَتْ وفقط معارضُ التصوير في ساحات البلاس دي فوج، بشرى أخذت على عاتقها الطواف بهما على صالات العرض المخفية في المنعطفات غير المتوقعة لذاك القلب الباريسي المفتوح للفن وللدهشة، في عطلة نهاية أسبوعهما الثالث دعتهما لقلعتها خارج باريس،

«مطلة على غابة الفاونتن بلو، بوسعنا التجوال هناك لو حالفنا الحظ وبقيت الشمس مشرقة».

توقفا للإفطار في حدائق اللكسمبورغ، التماثيل الرخامية تجاوزت الجرحَ مخترقة ومباشرة لجسد مريم، سبكةُ الأطراف، الأقدام المنسابة، الرؤوس المائلة في نشوةٍ، كل لمحة من تلك الأجساد جسَّدت أطراف مريم التي غامت في جرحها، شعرت مريم بأطرافها تتململ بشوقٍ، ينبعثُ

الشوق مما تحت الحجر وبحاجةٍ مُلِحَّة للاختلاء بجسدها، كما تختلي الأشجار والبرد بتلك المنحوتات الكونية، منحوتات ضاربة في زمان خارج الزمان كما يليق بجسد مريم. حين التقطتهما بُشرى وكارل كانت مريم تطفو على ذهولٍ باطني، انطوت الطريق دون أن تعي كيف ولا إلى أين فقط هذا الجسد المنساب خارج الزمن.

كان ضحى حين بلغوا تلك القلعة الملفوفة في زمرد حيّ، البيت العريق لفَّ مريم بسكينة عجيبة، تأخر محسن في البهو في حوارٍ مع كارل بينما أوت مريم لحجرتهما الشاسعة، شهقة السقف وحنيات الأقواس وتلك المدفأة المغمورة في رماد انطوت مثل شبكة عنكبوت مُبَرِّدةٍ على جسد مريم، تحركت فيها كمن يرجع لرحم، قادتها البرودةُ العتيقة لحجرة الحمام بحجارتها الحية، انخطفت انفاسها لغاية الإختزال في ذاك الحمام، حجارةٌ بلون الجلد الحيّ يتوسَّطها حوضٌ عريضٌ من رخام أخضر يترجَّع في مرآةٍ بعرض الحائط، انسابت مريمُ كمن يأوي لجوف صَخرة، تجردت بينما أشباح الموسيقى تتصاعد من البهو وتتردد في ذاك الاختزال، عارية انزلقت مريم لتقف في الأخضر، تأملت، شعرت بوقوفها بين الجسد وخياله، بين حقيقته ومائه، وناداها جسدُها أن مِسِّيني!

كاملة التجرد في حوض الاستحمام العريض شعرت مريمُ بأنها بعد لم تتعرَ، بعد مُقَنَّعة مطموسة. واقفة تركت الخيالَ يمرُّ على أطرافها، برغبة في التداوي والتدليل، فَتَحَتْ شلالَ الماء من غميق ألمها، وانبثق ذاك الصوت،

«يا الله أمسح بيدكَ على جرحي، انطوِ بسلامٍ يدكَ الكريمة على ألمي وأرفعه مثل غيمةٍ وبَدِّدها. امتصَّ هذا الوجعَ خارج جسدي...» تدفقت النجوى على جسدها، كلما حاولت استحضار يد الله على جرحها تَمَثَّلت لها بحيرةُ زيت شديدة الصفاء والسكينة كما قطعة ذهبٍ شفاف، كلما استحضرت يد الله تطفو بحيرةُ الزيت في موجةٍ خلابةٍ على جرحها

وتتخلَّل للوجع فتُذوبه وتُهدهد، خيالُ تلك اليد البحيرة انسرب لجسدها وقشع غمامة الألم وخلخل غمامة البلادة والحجر.

غامت عيناها برغبةٍ تتكاثف، أرهقها ثقلُ أجفانها لو أرختها لانزلقت بجسدها في عتم لا كالعتم، بجهادٍ أبقت شقاً طولياً تحت كل هَدبٍ ومالت، تحت شلال الماء اللاهب تناولت زجاجةَ الزيت المعطَّر، سكبت ذهبَها المائل للخضرة على كامل جسدها بادئة بأعلى النحر جرياناً لمرابضها، ما أن مسَّتْها بحيرةُ الزيت حتى أدركت أن جسدها عطشان وأن وجعه من عطش! بيديها الصغيرتين جرتْ في تذهيب الزيتِ، بَسَطَتْه ودلَّكت ودَلَّلت، أينما سرت راحتاها وغارتا تَخَلَّقَ لها جسدٌ باهر، نعومةٌ لاتُضاهى، انزلاق، انسياب من روحِ الزيت، من سلسبيله، في غيمةِ بخارٍ وتذهيبٍ انبثقت مريمُ من باطنِ مريم سحيقة، من آلهةٍ قديمة مُطَيَّبة من ريق عُبَّادٍ وأدهانِ ابتهالاتهم، وقفت بينمَا انزلق عنها ذاك الحس بالوجع والتبرؤ من جسده، من ختم السُرَّةِ ومما سَفُلَ انبثقت منها تلك الأنثى من ليونةٍ من صرخةٍ من جريان طَيِّعٍ وجارفٍ في جبروت، جبروت من ثقل نعاس عينيها من غرقتهما في تلك الحاجة للموت وللبعث في كل نظرة مُثْقَلَة تُلقيها، عندها أجرت شلالات الماء اللاهب أينما سرت حراراتُه جَرَفَتْ، جرفت جلدَها القديم كاشفة عن الطينة الأصل المعجونة بأدهانِ إلهية، حين توقف جريانُ اللهب ظَلَّ جسد الأنثى طافياً في غيمةِ البخار والعطر، مثل عجينةٍ جاهزةٍ للخلق وإعادته لمالانهاية.

في تلك الروح لم تجرؤ على مسِّ طرفٍ من أطرافها، أكثر ماخَطَفَ أنفاسَها هُوَّةُ النحر تترقرقُ بماءٍ أولى، ماء الروح التي بين شهقةِ نَزْعٍ ولذة. في وقفتها تلك تَجَدَّدَ الماءُ، تَجَدَّدَ العَرَقُ، تَجَدَّدت الشهقة ومتفطِّرة من مسامها من لحمتها وغميق سبكتها، وكانت مهيأة للمَسِّ، وحين انطوت عليها زرقةُ الفوطة الضخمة ارتعشت، تَحَبَّبَ جلدُها بشوقٍ لا تعرف لِمَ ولا لمن.. كانت في ذروةِ حُبيباتٍ تتبرعمُ بجسدها ومتهيأة للتفتق، حين

غادرتْ غمامتَها كانت ظهيرة لاذعة في الخارج، وخطواتُ محسن في الحجرة تروح وتجيء وأصواتٌ تتعجل ظهورهما، انزلقت في بساطة ذاك السواد، ثوب بلاتفاصيل لحافة الكاحل ويقف مثل ضربة حلم يقظة، كانت مسيسة الحاجة لشرنقة تُلملم توقَها، تَتَحَصَّنُ فيها من طرواة مريم الفاضحة، من جرحها المقشور للمَسِّ وللحرق. حين لَفَحَتْها نسمةُ الخارج الباردة تَعَاقَبَتْ رعشتُها، تحركت في رفقتهم تطفو في لذةٍ، أدركت مريمَ حاجتُها السحيقة لأن تُغشَقَ وتَغْشَق بتلك الأنثى الأولى فيها، الخجلى القادرة على جرأة لا كالجرأة، أنثى تتخفَّفُ من أي ساكنٍ غير شبح أنثاها الجديدة بلاشيء إلا المس للعمق وللأعمق، كلُّ ما يتحرَّك حولها من أجسادٍ وكائناتٍ ماهي إلا قطرة من بحيرةِ الزيت تلك، اليد هذه التي فينا لاتزال حارة، اجتمعت لها الأجسادُ في جسدٍ واحد، في الرجل الأول الذي سيدخل عليها، أيما رجل دَخَلَ عليها الآن هو الرجل، بلا وجهٍ إلا وجه الطالب المطلوب وإلتوائه في رغبة، بلا اسم بلاماضٍ إلا تلك الرغبة والنهوض والانبعاث للحاجة المفتوحة فيها.

بماءٍ تماهى خطُّ العَرَقِ الخفيف بخطِّ شَعْرِ العنق بطول الظهر لمؤخرتها، قطراتٌ تُلقي بنفسها من حالق.. بَاغَت مريمَ أن جسدها بدأ يعرق، في الثمانية وعشرين عاماً ظَلَّ الجسد محبوساً في هيئةٍ لاتعرق لا ترغب لا تسيل، الآن خلع قناعه ومال للتلذذ بعصاراته.

أدركتْ مريمُ الصَدَفَة الحجرية التي تلبستها في الثمانية وعشرين عاماً من عمرها، من خامةِ زهرِ الرملِ المُتَحَجِّرِ لاللخارج وإنما مما تحت الجلد، على مركز الحسِّ والحيِّ فيها، وتزداد ملوحةً وتَحَجُّراً عاماً وراء عامٍ، وهاهي القشرة تتهاوى الآن وتسيل مُفَارِقةً جسدَها، نظرت مما تحت قدمَيها، بوسعها لو داست في الماء أن تطأ شظاياها وتُدميها! على أطراف أصابعها بَدَّلَت وقفتَها في الحوضِ لبقعةٍ خارج جريان تلك الشظايا. ثم وأينما داست للخارج تركت بصمة ملوحة وشظايا، حتى راقت قدماها

ورَوَّقَتْ خطوها.

في عبورها للبهو العريق، خَطَفَتْ حبَّةَ خوخ، حمراء بتذهيبِ من تَجَسُّدِ الزيتِ، في حبَّة الخوخ مما يُلبي مابها، في انعقاد الخوخة تلبية لطينةِ مريم، غَرَسَتْ أسنانَها للحم الطري ولاكت كما قضمة من جسدها هي، من طرواتها التي لاتُطاقُ، القضمة الثانية غاصت في فَرْجَةٍ بكامل شفتيها وأسنانها للبطانة الحيّة وتَتَفَتَّقُ ماءً إلهياً، تماهٍ خلاب بين ماء الثمرة والأنثى، استراحت عينُ كارل عليها بابتسامةٍ، أيضاً عينُ تلك المرأة تعبر في ممرٍ بالغابة وحيدة لقلب الصمت، نظرةٌ ولَمَّتها حسرةٌ لاتعرف لماذا. لفحةٌ للهواء حول مريم ارختْ عينَ محسن عليها، تَمَلّى فيها، بانبهارٍ خفي باستجابة فيه ادركَ التبدل فيها، لم يُلِمّ بأطرافه لكن عصارة الخوخة كانت لمّاتزل تَتسَكَّرُ على شفتيها، مال ولَمّها إليه، لَعَق السُكَّرُ على حموضة على طري يذوب ويُذوِّب، أحاطها بذارعه وتَقَدَّم في ممرات الغابة.

في ممرات الخضرة استقام جسدُ مريم، لأول مرة في أسابيع تسير، بتآلفٍ مع الشق الطولي ونزفه الأبيض الذي لايكف بين شِقَّيها، وزادت خطواتُها طراوة، يخاتلها مذاقُ ذاك الماء، تتماهى فيه وتتجَدَّد، بكل خطوةٍ في تلك الممرات ينتابها دوارٌ وتَتَجَدَّد،

«يا الله امسح بيدكَ على طراوتي، دلِّلني كما أتوق للدلال الآن وهنا في كلِّ بقعةِ شمسٍ أو ظِلٍّ نعبره». نَفَثَتْها في جذع شجرةٍ عظيمة، متشبعة بأدهانها أدركتها الشجرةُ. تبدد من الجرح كل الوجع وخلاَّها للذة عجيبة، كل خطوةٍ تخطوها نَفْثَةُ جوعٍ بين شقائق الجرح،

«للذة وجعٌ يفوق وجع الألم!» كادت تشهق بذاك التصريح، لولا أن أطبقت شفتيها أطبقت ساقيها على خيط النور ذاك، وابتلعت لذعتَه. لمحةٌ، نغمةٌ خفية تَفْرِقُ وجعاً عن وجع، وفي مشيتها تلك أدرك جسدُها الشعرةَ الفاصلةَ بين الإثنين، أدركَ الإستجابةَ التي تُحيلُ وجعَ الجرح لوجع لذة.

****

بدأت تسترخي في محسن، وانبرى جسدُها يكتشف منافذَ ليقول وليأخذ، انتفضَ مركزُ استقطابٍ داخلها يصحو، يبحثُ عن لغة حوارٍ في الآخر، الليلة الأولى التي قضياها في تلك القلعة كانت عابقة بروائح حطبِ المدفأة الضخمة في البهو، حين أوت مريم لفراشهما الضيّق لحقتها مقطوعاتُ شوبان الرائقة تنبعث من البيانو تحت أصابع كارل، توقيعاتُ روائح سماوية حملتهما بعيداً، حين أخذتها تلك الرعدة ارتطم رأسها بسماءٍ غير السماء، شعرت برطوبة الغشاء المُغَلِّفِ لتلك السماوات، شعرت بزغبٍ خفيفٍ من ماءٍ ومن عَرَقٍ يتفصَّدُ من غشاءِ السموات في جلدها، شعرت ببوابةٍ عظيمة تنزلق على مفصلاتها ومحاورها وتنفرج لتُدْخِلَها، انزلقت وغابت، كلما أرادت الطلوع ردَّتها تلك الرائحة النفاذة، رائحةٌ تنفذ للبقعةِ في الجوف وتُحرضها للمزيد من السماوات وتصعد، صعدت حتى ما عادت سماءٌ تُقِلُّها، من سحابٍ استحال الكون من ذوبٍ، وهوت، أدركت الهوة من شهيقٍ عظيم يأخذُ بلباب رفيقها، مسلوباً ارتمى ولم تسمع له نَفَسٌ حتى غَرَق الليل وضَلَّ، ارتمت مستنزفة مملوءة بكسل الكون شَبعه، حيوياته، بين نقيضٍ وأقصى نقيضه، غاية الفراغ وغاية الشبع، غاية الوجود والعدم، غاية الكسل والحيوية، بين مد وجزر مضى بها الليل حتى طلع الصباح وجاء ذلك الطرق العنيف على الباب ليُخرجهما من موتتهما، في اللحظة التالية اندفع جسدٌ وفرقعت ضحكةٌ ماجنة وأخرجت محسن من موته،

«يا كسول، تترك لهذه الحورية افتراسك...» بدلالٍ تَلَقَّت الكسل في عين مريم وما تلاه من تيقُّظ،

«إن شئتم تبديد النهار في الفراش انضممنا إليكم أنا وجوزيف وكارل، أعرناكم من حطبنا ونستعير من حطبكما لقضاء العطلة...» المعنى بدا واضحاً في لهجة بشرى،

لاكت مريمَ العبارةَ اندست في دفق الرشاش القوي، دفقٌ أرسلَ على

شفتيها ابتسامة ورجَّعه جسدُها، غابت في سماوات البارحة، حين مسَّ الدفق مواطن أرسل وجعاً لذيذاً وشهقة، وكان محسن يتلقى تلك الشهقة،

«لقد كنتِ مذهلة». الهمس غاب في جريان الماء وأرسل نملاً على أصابع قدميها، تحت الماء غطتها حمرةُ خجلٍ،

«تخجلين! يا الله، لكم أنتِ خوخة لا تُطيقُ الحياء وجاهزة لقضمة...» اندست من نظرته فيه، وانتزعتها ضحكةُ بشرى الصاخبة من جديد،

«نحن بانتظار، لا مزيد من التشويق أرجوكما..» نَفَرَتْ مريم خارج الماء،

«إلى أين...» الدوي في أذنيها طَمَس لهاثَ محسن الهامس،

«أفلام عربي في هذا الريف!!» استترت بذاك البياض تحتمي من العين الواقفة بالباب تخترق لما وراء الجلد،

«أنا جاهزة». خارجة مما وراء باب الخزانة ساقت مريمُ مضيفتَها ليتسنى لمحسن ارتداء ثيابه، بدا على الجميع الانسجام من هيمنة تلك الضحكة، حين بلغوا حوض السباحة ألقى محسن بثيابه وخاض في الماء بثيابه الداخلية، ولحقته بشرى بلا لحظةِ تردد وبكامل ثيابها متجاهلة صيحات رفيقها الضاحكة،

«مهلاً، مالكم في عجلةٍ لاتطيقون انتظارَ حتى رجعتي بثياب السباحة». بذلك اندفع للماء ليغوص أسفل بشرى ويحملها عالياً في الهواء بثيابها تُعلن العري أسفلها.

حين انطلقوا بعد حين في ممرات الغابة، وبين صفوف الأشجار المعمرة، فارق مريمَ استغراقُها في الواحد، بدأت تستجيب للضحكات الصاخبة، ذلك اليوم أيضاً انقضى في خطط بلا آخر لتصوير مجموعتها، غاب محسن في قاعة السرداب العظيم منهمكاً في التصوير ولم يطلع، حين لحقت مريم لدعوته للعشاء ردَّها،

«أرجوكم، المهمة تتطلب كامل تركيزي، أنهى الجزء الأساسي وأصعد، رجاءً لا تنتظروني على العشاء...» لم تسترح عينه في عينيها، ظَلَّ ينظر في مظلة البياض ويحسب درجات النور حول مقعدٍ من جلدٍ فاخرٍ ومستدير مثل بقجة، ومطهم بالفضة وفصوص الفيروز والعقيق. شعرت به في مكانٍ آخر، خلف سدٍّ لاَ يأذن بدخولها ولا يراها، في وقفتها على أول السلالم المعتمة لَفَّتْها غربةٌ مثلجة، لم تشعر قط في حِلِّها وترحالها بمثل تلك الغربة، همست تطرد تلك الرجفة،

«هو الريف يغصُّ بالأرواح القديمة المتقلبة والضالة...».

حين شعرت ببرده يندس في ساقيها كان قد مضى زمن على انتصاف الليل، وربما كان فجّر ذاك المتلصص من شروخ الستائر الثقيلة، فجرٌ وبرد وقد تهاوت حبات الجمر الضخمة لرمادٍ في المدفأة. عرفت مريم رجعته عميقاً في نومها حين اندست فيها تلك الرائحة، رائحة ما أن فاحت حتى علا شخيره المهديء، مثل تهدهد القمر على شاطيء وغفت.

في الفجر أيقظها جسدُها بنداء غريق:

«يا الله انطو بيدك عليّ.....» وتهيأت لها تلك اليد في أصغر أيدي الكائنات، أيد بالغة الصغر لا حصر لها تروح وتجيء تمسد وتُدلل...

«يالي من قطة تغتسل!» على ابتسامةٍ غَفَتْ من جديد.

بعد ليلة الفاونتن بلو تلك ما عاد في عالمهما شجر كفاية، كثافة كفاية لاستحضار تلك السموات بزغبها من عَرَق وعطر.

****

تأملت طفول في راحتيّ يديها، أظافرها، الجفاف الشروخ، وذلك اللون الكالح، مضى على زواجها من فهد عام كامل، 365 يوماً تعادل 3650 عاماً أو قرناً من الزمان، ضحكت من حزمة الحسابات برأسها،

«مريم كانت ستفخر بي، على شغفها بالرياضيات...» حنينٌ تَقَلَّصَ له

جوفُها لذكرى مريم، بحثت في حقيبة يدها، بطاقة الهاتف بلاشك أخذها فهد ليُهاتف أصدقاءه في الرياض ومصر وأرجاء الكرة الأرضية، يُرسخ خيوطه بكامل الأرض بينما هي تمشي وتتآكل خلفها كل الخيوط التي تربطها حتى بأقرب المقربين إليها، انحصر عالمها في خيط واحد غليظ هو فهد... تعوَّدت أمها أن تربط بينهما خيط واهٍ في الأعياد، يتكرر مرتين في العام لشح الأعياد، الآن هي بحاجةٍ ماسة لكلمة من مريم، لمقاسمتها ثرثرة أو ضحكة، أو سخافة كبيرة...

آخر ما تذكره من مريم زيارتها المفاجئة لها في جناحها بفندق الهيلتون على شاطىء البحر بجدة: جاء صباحُ عرس طفول رطباً بعاصفة رملية، تحولت المدينة للأصفر الواقف على حافة البحر، من نافذتها تأملت طفول في صفرة الريح، لكأنما الأصفر يخشى هبوط الماء، نوارس تتحاور وغربان على خيط الرمل الضيق المتروك بين الرصيف والماء، بقايا، أكياس بلاستيكية مثل رئات تختنق، كل رئات المدينة منفلتة على ذاك الشاطيء وتختنق ولا يد تمتدُّ لتفجير الأكياس، أبشع ما اخترع الإنسان أكياس النايلون! من وقفتها وراء الزجاج بوسع طفول الاختراق في الموج، تَتَبُّعِ سلاحف وأحياء البحار في اختناقها بما تُلقيه السفن من تلك الأكياس، «سلسلة من اللامبالاة تُزاحمُنا مياهَ الأرض!» كيسٌ تَجَسَّد بصدر طفول مكان الرئتين و، مُحكم العَقْدِ، وراءها كان الجسد الكامل الصب منقوعاً في تعبه، أقرب للغيبة منه للنوم. رنَّ الهاتفُ وجاء صوتُ مريم ضاحكاً بحماسة:

«أنا في بهو الفندق، وظننتِ أن بوسعكِ مغادرة البلاد دون تصريح مني...» وطفرتْ دمعةٌ بعين طفول، في ذاك الصباح، وراء الزجاج الذي يحبس الحياة في الخارج، شعرت طفول بهشاشة، كامل جسدها من زجاج يوشك أن يتهاوى بلمسة، صوتُ مريم، رنَّة الحنان فيه أيقظتها كما من نومٍ طويل، حين فتحت الباب أخذتها مريم بين ذراعيها، كانت بحاجة

لذاك الدفء، بينما فهد ينام في الحجرة المفتوحة على جلستهما، واجَهَتْها على المقعد وخلفها الشرفة وامتداد البحر الأحمر، أحمر بدموية الجروح على فخذيها، ليلة البارحة يمكن تأريخها بليلة فراغ الصبر،

«ما هذا، تُعكرين علينا شهر عسلنا...» وأسقطت حقيقةَ صانع تلك الجروح، تدفق الدماء جاء مثل هدنة لالتئام، لم تُفصح بشيء من ذلك لمريم، لم تشأ أن تجرح تلك النظرة الحنون بظِلٍّ للقلق، كل شيء سيكون على مايرام قريباً، تسترد لياقتها وتستقيم لها الأمور، بمرح هتفت متأملة في طبقة الصفرة على وجه البحر، مثل الصفرة على قلبها على توقعاتها،

«أعراسُ البدو لابد وأن تُحييها أرواحُ صحاريهم، أن تُخْتَمُ وتَتَخَتَّم بعواصفهم، هاهي رياح النفود يقتلها الفضول لدليل عذريتي، ترافقني في إحصاء غنائم الغزو، أشعر بالريح تنفذ لجوفي تنبش عن أي تَبَدُّلٍ كيميائي، عن أية شارة تخصيب، لا يُطيق الرمل الصبر على تخليق الذُريّة...» مريم لم تشهد عرسها، غيَّبَتْها ذراعا طفولُ،

«أرأيتِ، لحقتُ بكِ في هلال عرسكِ، ما تركت هلالاً يبزغُ عليَّ عازبة وفي حسرة فُرْقَتكِ». قاومت مريمُ الدمعة المترددة على طرف الهدب، مسحت بسبابتها خصلة الشعر الفاحم عن جبين طفول وقالت مُعتذرة،

«للأسف ليلةٌ واحدةٌ فَصَلَتْني عن عرسكِ، محسن اضطر لتمديد أسبوعين اضافيين لانجاز عمل. الأسبوع الآخير كان الأهم، مثل تنوير جسدي...» أفرجت عنها، سقطت ذراعا طفول فجأة كمن يُطْلِقُ نَفَساً محبوساً بصدره، تشعشع وجهُها بضحكته الشمسية، عاودها عنفوانها القديم،

«مفهوم ومغفور، المهم طمأنيني زعفران ولا كاري على تندوري؟» ترددت في الإجابة،

«أبيض على أصفر على أحمر على برياني بالكاري، يعني خلطة غير

منقوعة، لذيذة أول طلعتها من النار، فإن بَرَدتْ لاتُلْطَم، أنتِ وتمديدات الغاز أو تيار الكهرباء!» ضحكت طفول لأول مرة في ساعات، شعرت أن كلَّ ما حولها وفيها يقشع رطوبته ويلمع من جديد، تململ عُريُّ التمثال المدفون خلفهما بين أغطية الساتان، بخفةٍ من تلك الأطراف الهرقلية عَاجَلَتْها مريمُ بلهفة،

«المهم أنتِ... قولي لي: كيف كنتِ؟» وسارعت طفولُ للخزانة الفارغة، تناولت الثوبَ الوحيد المعلَّق في صمتٍ ووحدة، ثوب عرسها، بَسَطَتْ بياضَه بطول جسدها وتركت لطرحتها أن تنسدل لكاحليها، تُعيد تمثيل ليلة بزوغها كنجمةٍ لساعاتٍ تلاشت كسرابٍ:

«مثل أميرة أسبانية، الكلُّ تَطَوَّع للتعليق على هيئتي...» في وشاحها الإسباني ينسدل من الرأس للقدم أطلت على الشرفة بصالة ليلتي، شهقةُ النساء والمصورين بَلَغَتْها حيث هي، في الأسفل بحر رؤوس وأكتاف عارية وقدود مسبوكة تسبح في ضوءٍ خافت، كلُّ الضوء ينفجر عليها في الشرفة، ويُفَجِّرُ صوبها طبولَ (ديسكفري)، الفرقة التي بدأ نجمها يسطع في سماء أفراح المدينة! انضمت بَحَّةُ الخمس الخلاسيات في لازمة الأعراس التقليدية،

«الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله محمد!» أعقبتها زخَّةُ زغاريد وشلالاتُ بخورِ العود صاعدة للشرفة هابطة بالمزيد من الصلوات تَتَنَغَّم والزغاريد.

«ديسفكري هذه وَلْعَة، والله بنت ذكاء عصري، خابت في دراستها الجامعية لينفتح لها كنز..» خمسون ألف ريال لليلة وتحضر الفرقة لتُشعل الأفراح والراقصات بفتياتها الخمس الخلاسيات وتقليعاتهن العجيبة وتلك الأصوات الطالعة كما من مذبح أسطوري وتَتَبَدَّل لتُحاكي أحدث الأصوات الصاعدة على أنغام الأورج. فِرقة استعراضية من أحدث طراز تشكلت في خفاء المدينة وطفت على السطح لتُباغت وتحتل الأعراس.

«عريسنا يابدر غالي، عروسنا بدر البدور» ووَقَّعتْ على أنغامها خطواتُ العروسين: في سُحب العود ظهرت طفول في طرحة أسبانية من الدانتيل الثقيل ملقاة على الرأسِ لتهبط مثل وشاح على جانبي الوجه للقدم وتجري، وفهد في مشلحه السُكري المُقَصَّب. مثل روح مسربلة في بياض طاغ هبطت السلالم إلى جوار فهد بجسده المسبوك كتمثال محاربٍ قديم، «ويلو يا أم العروسة الله يتمم هَنَاكِ..» حين بلغا مدخل الصالة انفتح مَعْبَرٌ لمرورهما بين الطاولات للمسرح (الكوشة)، تقدما تتبعهما شلالات الضوء وبخور العود وفلاشات التصوير وبروجيكتور كاميرا الفيديو والعاملات الفلبينيات يُزحن الأسلاك ويتقدمن بالعدسات، وتحول الإيقاع للعصري بأصوات الخلاسيات،

«ليلة،

لو باقي ليلة،

في عمري،

أبيه الليلة...» على خشبة المسرح كان بانتظارها مثل محرابٍ قديم بمقاعد مطهمة بالعاج ووسائد من قصب أحمر مُذَهَّب، حين وقفت سارعت شقيقاتها وشقيقاته يُنظمْن وقفتَها وجريان الطرحة حولها، وقفت بينما أشرقت الأنوار على الصالة الفاخرة، وتنوع الغناء:

«أنتَ اللي بحبه أنا..» وفجأة سرت عصا ساحر، ضربةُ ريشةٍ أخفتْ كتفاً بضاً هنا ونَهْدَةَ ثديٍ هناك وشلالَ سوادٍ على جذعٍ يميس هنا وهناك، تحجَّبت بعضُ النسوة لدخول ذكور العروسين، ودوَّت فلاشات التصوير بينما لاحَ وفدُ الرجالِ في بياضٍ مُسَربَلٍ في مَشَالِح مُقَصَّبَة، انسابوا في طابور مهيب، قبّلوا طفولَ على الجبين واحتضنوا فهد، كلُّ الأجساد تغرق في امتشاقهما تتزود من تلك اللمعة، وانسابت الأخوات وبنات العمومة في رقصة جماعية أمام العروسين، وساقوا طفول وفهد للمشاركة، خمسة أخوة لفهد حضروا العرس وتَخَلَّف الأب بندر، في لمحةٍ انسحب الذكور

وبقي فهد لنوبة تصوير، في استراحةٍ للحدث تأججت سحب البخور الفاخر، مال فهد بوشوشة أرسلت ضحكة على وجه طفول، حينها علا صوت ديسكفري من كريستال يترقرق،

«شو بحبّك لما بتحكي، وبارسم عا شفافك ضحكة،

شو بحبك لما بتشكي، تبكي وعم بتغلغِّل فيِّ،...»

الأغنية غمرت وجه طفول بضحكةِ دهشةٍ،

الأب تردد مثل شبح في المكان، تَلَقَّتْه طفولُ في همساتٍ تتردد هنا وهناك تتحسر على البذخ الذي أنفق به على تلك الليلة:

«أبوي بندر لا يشق له غبار في الأُبهة..»

«عمي بندر مستحيل، مستحيل يهبط لأعراس العَوام...» كررت بنات العمومة من غيرة على تسرب فهد (للجدادوة) كما يسمونهم. غياب الأب أُحيط بهالة من الترهيب، وتسللت العيون لقراءة تفاصيل كرمه وعزّه، بِجَرَّةٍ من قلمه أخرجَ ذلك الحفل للابهار وتحجيم من يجب تحجيمه من الحضور والأنساب.

اكتفى بتقديم تلك الصالة المستحيلة (ليلتي: دمغة الجاه) كهديّة زفافٍ مُفْحِمَة، بعدها تَنَصَّلَ حتى عن إعانته في العثور على عمل،

«تحيا مع أمكَ، أكفلُ لكما لقمةَ يومكما، أما ما عداه فأربأ برجولتكَ أن تقبل حسنةً أو إعالةً وإن من أبيكَ..».

«لا أريد حسنة فقط دَبِّرْ لي وظيفة، ورقةٌ منكَ تفتح لي الأبوابَ العصيّة..» عبثاً استجدَى. لكأن قسوته تلك انبثقت منها، من دخلتها الأولى على ذلك الأب السلطاني، يومها كان المجلس الشاسع غاصاً بالأولاد والأحفاد وأبناء وبنات العمومة، بلاط ملكي يُتَوَّج في صدره الأب، وكل من يدخل يتقدم بفروض الولاء ليُحِلَّه الأبُ المقام الذي يليق بمكانته في ذاك القلب، ما إن تقدمت في ذلك البلاط حتى سكتت الأصوات، كلٌ

الأنفاس محبوسة على رد فعل السلطان، تجاهلت طفول الرجفةَ وأكملتْ قَطْعَ المجلس والعيون، في عمود بخور عود سرت حتى بلغت الصدر، فهد لزم بقعةً بآخر المجلس بانتظار إشارة، ومن جلسته بالصدر غَطَّتْها عينُ العم بندر من الرأس للقدم، وتركَّزت على العين، بالعين في العين قرأ الرجل الصحراوي في دخيلتها ماقرأ، وبعصا ساحر قام جسدُ السلطان، قام ليتناولها بين يديه، رغم رؤيتها لمن سبقها في تقبيل يديه حين بلغته تناولت يده مصافحة، وبادرته،

«سمعتُ عنكَ الكثير ياعمي بندر، أمتعني الكتابُ المؤلَّف عن إمارتكم، مثل أسطورة، مقابلتُكَ شرفٌ لي». بطرف عينها أدركتْ أنها قد أصابته في مقتل، هتف،

«يا هلا والله وغلا بالشاهينة...» تركَ قُبْلَةً على حَرِّ جبينها، وسرت همهمةٌ على الضفتين، سَرَتْ غيرةٌ، سَرَا رفضٌ،

«مايرى فيها؟»

«وفي هذه الرأس أساطير، آملُ أن يُسعفني الوقتُ فأحكيها لكِ ولأحفادي...»

«وتسمح لي بكتابتها؟» الدلال في الطلب أرسل برقاً في عين الصقر المحنكة،

«إن كان نفاذُ قلمكِ كنفاذِ طَلَّتكِ فمرحباً..» وبإشارةٍ قطعَ فهد تيار الغيرة لقرب والده، ربت على كتفه، إشارة رضى لم تحدث في دهر،

«مثل ذيب الصحاري لا تفوتكَ غنيمة، مِن تكلموا في وصفكِ عرفتكِ: مايسة ودِقَاقة». تبسمت طفول لذاك الوصف الصحراوي يتكرَّر، بين إعجابٍ وحسدٍ لم تُفارقها عينُ السلطان،

«قولوا لي يا ناس، قل لي يافهد، من أي غيثٍ تهبطُ جنيّاتُ النفود؟ شيوخنا رحلوا وراء سراب امرأة كهذه، مايسة ودِقَاقة...» كل نظرة يُلقيها صوبها تزنها وتجدها طافحة في كفة ميزانه بينما كفة أبنه خاسرة،

«والله دُرَّة القنص، تعالي...» وأحَلَّها عن يمينه، مكانة عصفت بوجه الزوجة الصغيرة، زوجة الأب لا تكبرها كثيراً راحت وجاءت بدلال وهي ترميها بشَرَرٍ، بنظرةٍ صوبها وأخرى لفهد وأخرى للأذان مصيخة في المجلس أرسل الأب حكمتَه:

«أتعرفين، بعض أبنائنا يُولَد بلادمغة البَرَكَةَ!» وتوقف على تلك الكلمة معمماً نظرته للمجلس، وترقرق النورُ في حريرِ السجاد الإيراني وتوقيعات قُم وشيراز، ترقرق المخملُ في الطنافس المُقَصَّبة وترقرق الفضول في أعين السقاة الفلبينيين، ترك لزخة بخور أن تملأ المجلس قبل أن يُكمل صوبها:

«وأصارحكِ، إبني فهد منهم، شقي مكتوب على جبينه بالنيون...» وتمهَّل ليُفسح المجلسَ لضحكات التأمين على ظرفه، ثم بمزيجٍ من جد وحسرة:

«رجلٌ من أعرق القبائل للعرض، يقضي أيامه يعلف ليُكبِّر جسده، ثم يقف على منصةٍ ويعرض ذلك الجسد، كنتُ قد يئست منه حتى لحظتي هذه، حتى وقع بصري عليكِ، الآن أرى أن نجمَ حظوظه طالع يبرق في سمائنا، لم يُوَفَّق لخيرٍ قبلكِ، وأرجو أن تكوني فاتحة خيرات تعم». وسرا في العيون وعدٌ بأنها: ستدفع لامحالة ثمن تلك الحظوة! حظوةٌ انقلبتْ سيفاً مسلَّطاً على عنق فهد، لسان حالها يقول:

«أدفعْ ثمن هذه التحفة، من الأغلى، وإلا فرُدَّها..».

في رجعتهما من زيارتهما الثالثة لقلعة الأب الحصينة تهاوى فهد،

«أنا في غربةٍ بينهم، لولاكِ...» ودَسَّ يديها لصدره بعنفوان،

«أقسمي ألا تُخليني يوماً». طواها بين ذراعيه، شعرت بأضلعها تنغرز برئتيها وتتهشم، هَتَفَ بوحشية:

«أقسمي!» لم تجد بُدّاً من القَسَم:

«أقسمُ ألا أُخلِّيكَ حتى تُخَلِّيني!» بقبضةٍ واحدة أحاط عنقَها الرقيقة،

«أقتلُكِ وأَهْلَكُ ولا أُخليكِ، أحفريها برأسكِ بصمة: مني لا نجاة».

وفي لمحةٍ تبدَّد غضبُه، وسرت كفاه عليها بهيبةٍ بتدليلٍ بولهٍ،

«لولاكِ لا أعرفُ ما أفعلُ بنفسي، أبوي بندر يقتلني بكل نظرة بكل كلمة تُبطِنُ مالا تُظهر، لم يُحبني قط، دونما سبب دوماً شعرتُ بأنني غريمه والآن، وقد وقعتْ عينُه عليكِ، يعرف علامَ يُغرِّمني». تَلاحَقَ جوعُ الكفِّ تُسَابِقُ الكفَّ عليها، صارتا منها في كلِّ بقعة وغَيَّبَتْ طفولَ عن الوعي، صوتُها حين جاء كان من خشخشة الريح في المغاور، صوتٌ طالع مما هو أقرب للوجع، من نارٍ تتآكل نفسَها في كهوف لم يفتحها بشر.

«لا تعبأ... به...» تَقَطَّعتْ أنفاسُها وقَطَّعتْ أوردتَه، يدها تلملت على شارد ووارد، في لحظاتٍ كان يلهث، حين طفا بها من جديد كانت مثل عَلَقَةٍ على غصنٍ: طرية مُنَدَّاةٍ فواحَّة برائحة من جنس المغاور، رائحةٌ ينعسُ لها النور وتَرِفُّ الظلال، كل ما في الحجرة يتمطى بكسلٍ ثقيل يُدَوِّخ، شَهَقَ:

«أبي يقتلني!» وجاء ردُّها صدى لصوتٍ غريب لا تعرف منشأه،

«لا تعبأ بكلماته، هي لحفظ ماء الوجه، ليُبَرِّر عدوله عن خصامكَ واستقبالك في مجلسه بعد طول غضب، أنتَ تُمَثِّلُ كلَّ ما كَبُرَ على تهميشه، وسعى لإضماره وتحجيبه وإظهار عدم الاكتراث له: الجسد! خلفيته المحافِظَة تُبرِّرُ تَعَصُّبَه».

«لا مقام لنا أنا وأنتِ في هذا البلد، تعالي نسافر وراء اللقب، حين أصير بطلاً للعالم في كمال الأجسام للوزن الخفيف سنستغني عنهم جميعاً...» ولم تتردد، ربما لأن هذه الحجرة التي أفردوها لها كانت تُحاصرها بالذكريات، بصورِ لفتياتٍ تَتَعَلَّقُ أعينهن وقلوبهن في ميداليات على صدر زوجها، وربما لأن الأم تتمركز حولها في كل فرجة وعلى كل باب، وهي، لا منفذ لها غير هذا الفراغ المربَّع، اكتشفت أن التربيع ينشب

بالحلق بملل ويرفض أن يذوب، وربما لأن المرآة تفرد ذاكرتَها بعرض الحائط المواجه للسرير، أكتشفتْ طفولُ غيرةَ المرآة التي تمسخُ سِرَّ الأنثى، تُحَوِّله لمَشَاعٍ قبيحٍ مثل فوهةِ بئرٍ يَدكُّها نيزكٌ عملاقٌ يتفحَّمُ ويتوهَّجُ ويتبلَّل بعصارته الكاوِية.

«أشرسُ مايمكن أن يُشاركك حجرةَ نومك مرآةٌ بذاكرة لا تنام».

والمرآة تَتَفَنَّنُ في تعريتها، في تعرية استجابتها للنيزك، المرآة عدوتها التي تلوك كلَّ حركة عشقٍ عفويةٍ تأتيها وكلَّ صوتٍ، تجعلُ من كلِّ صغير فَجَّاً، أيُّ ثأرٍ أندلع بينها وتلك المرآة! هذه التي أقدما عليها هي وفهد بطيش مراهقين، تَشربُ كلَّ خلوةٍ من خلواتهما حتى استفحلَ شبقُها فصارت لا تنام، تُرَدِّدُ احتكاكَ الصوان بالصوان بصريرٍ يَصمُّ الآذان، صارت طفول تتحرك في تربيع الحجرة محاطة بأصداء ليلتها الماضية، اكتشفت أن التماثيل البالغة الكمال بالغة الجوع لدرجة تُخمدُ جوعَ من يُقابلها، لدرجةٍ فقدتْ بعدها متعةَ جوعها، وتململ ذلك الجوع واستحكامه وسَوْقها لإشباعه، صارت لا تجوع، لا تجد حاجتُها فسحةً لتتنفس، لا يجد جسدُها فسحةً ليتنبه وينادي، صار عليها الفرار لمساحةٍ أكبر، لجسدٍ أوسع برغباتٍ أفدح... لذا جاءت استقالتُها بحماسة، تركت عملها بعد خمسة عشر عاماً من الإبداع، وقامت بتصفية حقوقها لتمويل رحلتهما خارج تلك المرآة، مرآة بعينٍ لاتُرَجِّع الإقتحام وفَجِّهِ العميقِ بجسدها فقط وإنما وبصفاقةِ الأصواتَ أيضاً، أصواتٌ من حنجرةِ ضبعٍ لا تشبع ولا تكف عن الشهيق.

و هاهي بعد عام من الإقامة بميامي تشعر بنفس الضيق، اكتشفت ماللنقود من أجنحة وشغف بالطيران، اكتشفت ماللتماثيل البالغة الكمال من تكاليف، يُهدِّد:

«نعرى نتسول، نُقَصِّرُ في كل شيء إلا البروتين وكبسولات تحفيز الطاقة، جسدي مثل محرقة مالم نلقمه وقوداً يضمر...» وفي السباق للإبقاء

على الجسد عامراً ومنتفخاً صارت طفول تَضْمرُ، حتى جاءها يوماً بجنونٍ جديد:

«لدي مشروع ينقذنا من شبح الإفلاس الذي يتهددنا...».

«نرجع للبلاد وتستجدي والدَكَ وظيفةً...» الجرح في عينه أشعرها حتى هي بفرط وحشيتها،

«صديقي إدوارد نصحني بالاستثمار في الكلاب نشتريها جراءً، نُدَرِّبها، ونبيعها بأغلى الأثمان..» ضحكة طفول شَقَّت خندقاً بقلب فهد،

«نحن هكذا تخلفنا يأخذنا خطوات للوراء...»

«كلاب، نُدير مزرعة كلاب...»

«ليس مزرعة، نبدأ بعدد بسيط هنا...»

«نعاشر كلاباً للتدريب وفي حجرتين ضيقتين...»

«عقّدي لنا الأمور وستنتهين في الطريق، أبي لن يرأف بنا، وربما لن يفتح لنا بابَ رجعةٍ لبيتِ أمي، حتى اللقمة التي رفضناها يوماً سيضن بها علينا الآن، صدقيني لا رجعة لنا منكسرين هكذا، بينما الكلاب تجارة رابحة، وبيني وبين بطولة أمريكا خطوة...» بنظرةٍ لجسده أدركت أن بينه وبين الانفجار نفخة، وأن عليها أن تمضي في تكثير وتكبير ذاك الجُرم ليأتي على كلّ ما عداه، وأن قدره المضي بلانظرة للوراء،

«وهكذا دخلتم حياتنا.. نعمة!» بحماسة أدمنت حوارَ كَمَانَنَّنا، الجرو الأثير لديها من ستة جِرَاءٍ، كلهم ولِدوا على يديها وجاء كَمَانَنَّنا بعد فراغ البطن واعتقادهم أن الولادة تَمَّتْ، صوَّبته بنظرةٍ مُدَلِّلة،

«دوماً لكَ الكلمة الأخيرة، النقطة...» لكلماتها قفز كَمَانَنَّنا ودَسَّ أنفه بين كاحليها، ثم قفز لحوض غسيل الأطباق وصار ينبح ويدس أنفه بين يديها المتشققتين، ضحكت طفولُ، فاح منها حنان، للحنان رائحةُ طينِ بيوتِ حائل بعد المطر، ما أن يَمَسَّ جسداً حتى يفزَّ له نشواناً مُلوَّعاً، فزَّ كَمَانَنَّنا،

«أعرفُ، لو كنتَ كلباً خارقاً لشاركتني حفلة غسل الأطباق على مدار الساعة، تنتابُكَ غيرةً من هذا الحوض الذي يستأثر باهتمامي، لابد وأنك تتصوَّرني امرأة من خرافة، صورتي بذهنك ترسم امرأةً على شلال، كل ما تَمَسَّه يصير يلمع نظيفاً، تقف للأبد أمام قدور الأطايب، تغطيها أبخرةٌ لذيذة، خمسة طقوس يومية». توقف كَمَانَئنا على قوائمه الخلفية وحدَّق بعينيه الحزينتين الواسعتين عميقاً لقلبها،

«لو كانت عين فهد بهذا الاتساع لما وقعتُ منها».

****

قوسٌ من بنفسج اجتمعَ على حافة الأفق، بينما مريم غارقة في الحلم، كانت تمشي في فضاءٍ بلون البنفسج حيث اعترضتها تلك الحديقة، لم يكن عليها الدخول، فقط النظرَ مما وراء السور القصير من شجيرات الورد البلدي، من قلب الحديقة ظهرت تلك المرأة، حين اقتربت المرأة من السور عرفت مريم فيها زوجة محسن الأولى، وكانت تحمل رقعةً قاتمة بين يديها، اقتربتْ من محسن الذي كان يتجوَّلُ في ظِلالٍ تتطاول أينما سارَ، السماء لها لون أحمر شفاف، اقتربت المرأة تنساب مثل زاحف على طين أحمر، ألقتْ بالشريحة تحت قدمي محسن، في لمحةٍ تحوَّلَت الشريحةُ لحفرةٍ ابتلعتْ محسن الذي أخذ يهوي لمالانهاية، صرختُه جاءت مكتومة مثل لقطة تصويرية صامتة، بدأت أطرافُ مريم ترتعد رعباً، اخترقت الشجيرات الشائكة وهرعت لحافة الحفرة، كانت بلا آخر ومحسن مثل مفردة مُعَلَّق بقلبِ الحفرة وعاجز عن بلوغ القاع أو الصعود للأعلى، كان بعيداً لاتَطَالَه محاولةُ إنقاذٍ، وحوله في الفراغ بدأ لحاءُ الأشجارِ يَتَمَدَّدُ ويَتَمَدَّدُ في ظلالِ عملاقة، لم تعد مريم تراه واعية بأشواك عالقة بحرقة على أطرافها وعنقها.

أفاقت على رنين الهاتف، حين جاءها الصوتُ بدا غريباً مثل أصوات

شخصيات سينما الخيال العلمي الخرافية،

«لقد قبضوا على محسن، أنه في مركز هيئة الأمر بالمعروف. لقد صادروا كلَّ أفلامه وأرشيف الصور، هذه كارثة».

«هناك من وَشَى بكونه يستقبلُ نسوةً في مجترفه، وضعوه تحت المراقبة لمدة شهر، ولحسن حظه اقتحموا الليلة حين لم تكن في المحترف موديلٌ أنثى، لكن الكارثة في الأرشيف، لقد حملُّوا كل شيء في صناديق، هذا المعين من الصور كفيل بجرجرة العديدين، لابد من البحث عن شخصية ذات نفوذ للتدخل لإطلاق سراحه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه». الصدمة التي تَلَقَّتْها مريم حين دخولها للمُخْتَرَف تركتْها مُخَدَّرة لأيام، لم يتركوا بقعةً لم تُنتهَك، كل شيء ينقلبُ رأساً على عَقِبٍ في مشهدٍ هَزلي، حجرةُ التظهير بَدَتْ عارية من غموضها المألوف، بأحماضها تفوح في المكان بعجزٍ،

«الزيارة ممنوعة، لا نعرف حتى أي مركزٍ من مراكزِ الهيئةِ العديدةِ قَامَ بعملية المداهمة، لا نعرف من يحتجزه، ولا أين». كل نفوذ والده لم يُفلح إلا في تحديد المركز، لكن كان عاجزاً عن استصدار تصريحٍ بالزيارة،

«لا نعرف حدودَ المعلومات التي أدلى بها، كلُّ الفتيات مُعَرَّضَات للاستجواب بتهمةِ الفِسْقِ لوجود صورهن في أرشيفه، ما سيرونه هو مَشَاهِدَ سيداتٍ سافراتٍ في كامل زينتهن ويحضرن جلساتٍ واجتماعاتٍ مُخْتَلَطَةٍ...» حتى نجحوا في استصدار تصريحٍ بزيارته، ذهب أبوه برفقةِ أخيها مروان.

في مركز هيئة الأمر بدا لهم المكتب باهتاً، لا شيء محدد سوى اللحى السوداء المطعمة هنا وهناك ببياض ناصع، رئيسُ المركز استقبلهم مُفتتحاً بتوبيخ يشملهم بالمعصية،

«هؤلاء الضالين الذين في طغيانهم يعمهون، أين أنتم من شذوذ بَنِيكم؟» ظلَّ السفيرُ السابق صامتاً يُؤَمِّنُ على التوبيخ بعباراتٍ،

«معكَ حق ياشيخنا، جزاكم الله عنا خيراً».

«ما تتوقعون من انفراد ابنائكم بالشياطين في خلوة...».

«أنا متعب وجائع وأشعر بالقذارة، مثل صرصور يخرج من بالوعة، لا أستطيع تناول لقمة من هذه العصيدة التي يصبونها في الأطباق الورقية لنا، لا أستطيع الاغتسال، استعمال الحمّامات مضنٍ بالنسبة لي في حالتها المزرية، أنه تعذيبٌ ضمني وبالنجاسة..» الخضرةُ الرمادية حول شفتيه لم تدع مجالاً للشك في أنه لن يصمد طويلاً، وانفجرَ في البكاء.

في تلك اللحظة قَاطَعَتْهم دَخْلَةُ الشيخِ: «أجل، ينفعُكَ أن تبكي أو تتباكى مُغتسلاً من إثمكَ». استغرقَ الإفراجُ عن محسن جهوداً جبارة، هناك من تَوَسَّطَ لدى أمير المنطقة الذي تَدَخَّلَ لإطلاق سراحه واسترجاع أرشيفه دون أن يُمَسَّ، لكن محسن خرج بأشباح تطارده، هناك شيء سقط منه في السجن، ذلك الحِسُّ بالأمان، بالقدرة على خَلْقِ وَسَطٍ مفتوحٍ في مُخْتَرَفِه، لم يَعدْ يجرؤ على استضافةِ مُلْهِمَةٍ، بقايا المرونة فيه تصحَّرت،

«لم يعد من مقامٍ لي في هذه البلد، أعينُهم تُطاردني أينما ذهبتُ...»

«أنتَ واهم». كابرت مريمُ لطمس الكابوس المتربص بهما، حادثة سجنه فضحت لهما هشاشة مناعتهما، كلُّ طرقة على الباب مداهمة، كل رنين للهاتف إنذارٌ بمداهمة، كل خطوة على رصيفٍ عام شَرَكٌ منصوب لمن يهوي، كلما جاءت باب بيتها ردَّها خوفٌ مُبْهَم، عباءاتٌ تكمنُ لتنقضَّ عليها في الخطوة الأولى التي تخطوها خارجاً، ما جريمتها؟ لم تصل لتحديد ذلك: ربما مجرد كونها أنثى، أو مجرد المشي على رصيف، أو حتى ألوان ثيابها المزهوة. لا يمكن التكهُّن بالتهمة التي يمكن أن ترمي وراء قضبانهم. من لامكان أندلع ذلك الوجه للمدينة، وجهٌ لم يخطر لمريم وجوده من قبل، أو وجهٌ لم يعتنِ بالتحديق في وجهها مباشرةً من قبل، وجهٌ ظَلَّ يتفاداها ربما، أو لعلَّ حظَّها هو الذي تفاداه حتى الآن بينما خانَ محسنَ حظُّه. هاهو يراها: لجدة وجهٌ وراء وجهِ عروس البحر،

قناعٌ يظهرُ لقمع الوجه المؤنث للمدينة بينما يتملَّص منه الوجه المُذَكَّر بما له من خاصية زئبقية تتقن الفرار. قناع ضحل بلاشارات تاريخية ولا روائح الحجاز القديمة، هبَّ من صوب الصحاري وتَطَرُّفِ قبائلها ليلبسَ المدينةَ في غفلتها. قناعٌ ناضل حتى صار وجهاً يَتَصَحَّرُ ويرفض إن يُلقي صوبهن بنظرة، النظرة مسٌ يبتلي الناظرَ، المرأةُ مرآةٌ، خيالٌ، إن نظر فيها الرجلُ إزدوجَ، وإزدواجه شِرْكٌ. والرجل المتمكن هو من لا ينفرد بخياله على طريق أو في محراب، لا ينظره عيناً بعين، فيسهل عليهم طمس أخيلتهم في لطخةٍ سوداء بعرض الأفق، بعرض مداخل البيوت ونوافذها وشُرُفاتها، بعرض حدائقها وطُرُقاتها، شُرُفات المدينة مُفْرَغة كدروبها وأشجارها، لا يتقافز فيها غيرُ شذرات الأسود من غربان. حرصت مريمُ تطمرُ غربانَها عميقاً برأسها فلا تؤجِّجُ ثورةَ محسن، استحضرتْ جدة التي تذوب في شمس عصرها، غابت في أحيائها الشعبية، تلك التي دروبها من جريان ماء مسكوب، يُباغتُك فيجري متداخلاً هنا وهناك في شبكةٍ من الأوردة الضيقة الضجاجة بالحياة، لغاتُ تلك الأحياء تتحدَّاك أن تُصاب بالخرس أو تَضِلَّ حواراً، يكلمونك بكل لسانٍ، كما تؤكد جَدَّتُها:

«أهلُ الحواري الضيقة أهلُ الغريب، في حارة المظلوم والشام والمسكين والكَنْدَرَة وشارع قابل والميناء ومن قديم حفروا ودفنوا مفتاح لسان آدم الآول، قبل أن يتبلبل في أثنتي عشرة عينٍ ولسانٍ. إن تأخر ابنك في النطق فتمشَّى به في الحارات ساعة العصر، هناك حتى الحَجَر ينطق».
بؤسُ جدة بهيٌّ كثرائها، تحَصَّنت مريمُ في ذاك البهاء، واستمر محسن يلوك صعقتَه:

«كلما أغمضتُ عيني أتخيلهم يكسرون الأبوابَ ويقتحمون عليَّ، تلك الليلة أنقذتْني معجزةٌ، كلما أمعنتُ التفكير كلما اتضحت لي صورة ما كان، ليلتها وبالصُدفة أشعلتُ أضواءَ الحديقة الكشَّافة، لا أعرف لِمَ، ربما وَقَعَ إصبعي بالصُدفة على زِرِّ الكشافات، لو انهم انتظروا ليلةً واحدةً فقط

لقبضوا عليَّ متلبساً، في الليلة التي تليها كنتُ متعاقداً لإعداد كتالوج لأزياء مؤسسة مرايا للموضة، وكنتُ أُعِدُّ لاستضافةِ التصويرِ في مُخْتَرَفي، وكانت الفيلا ستغصُّ بالعارضات، تخيليهم يقتحمون في ليلةٍ كهذه عامرة بالنسوة والكواليس الغاصة بالثياب وأدوات الزينة وتبديلها، تخيلي المدَّةَ التي سيُحكم بها عليَّ، الآن، ووحيداً مع آلة تصوير قضيتُ مدة شهر، فماذا لو قَبَضوا عليّ وفي حوزتي على أدلةٍ نسوية شيطانية؟ ثم كيف يمكنني التَوَسُّع في مشاريع الدعايةِ وأنا مُحَاصَر هكذا بالخوف وباحتمالاتِ الوشاية مستقبلاً؟» بينها ومحسن بابٌ، خطوةٌ خارج الباب: ينتظرك كمينُ المراكز المجهولة العنوان ورُسُلها الذين ينقضّون فجأة وبلا مقدمات! خطوةٌ داخل الباب: أحماض التظهير وتفاصيل الآت التصوير وأرقام العدسات تتفاوت في فواصل حساسيتها العشرية، وسرعات الفتح والإغلاق، كل يوم بتفاصيل جديدة لا تُفلح في غلق وفتح هذه العلبة المفرغة بصدرها، لاتُفلح في ضعضعتها، هي كمن يقف خارج السيل، خارج الرَجُل ولاتُفلح في مدِّ أصبعٍ للتيار. كل يومٍ تتغرَّبُ مريم أكثر عن هذا الجسد الموازي، والذي سقطَ مِنها في نقطةٍ ما على طريقهما،

«حين تفشل في الحَبَلِ برفيقك واستبطان كل تنويعاته الروحية فتلك علامات موت الجنين في الرحم!» أي طبيبٍ نسائي قالها حكمة؟ فراغٌ مُضَاعَفٌ برَحِم مريم:

«بوسعكَ تأجير مُخْتَرَفٍ آخر».

«قطعاً ليس هنا، هذه المدينة تحوَّلتْ لكابوسٍ يَتَرَصَّدُني. من المهم أن أنتقل لمُخْتَرَفٍ بعيد عن العيون، لكن أين، جدَّة هي المدينة الأكثر استرخاءً، فكيف آمن لسواها من المدن الأقل مرونة؟»

«هناك الكثير من المصورين المحترفين في مدينة كالرياض».

«مادة عملي مختلفة».

«نعم، النساء..» اللامبالاةُ في صوتها، عجزها عن الفهم، فجَّرَ

بركاناً في المكان،

«نعم النساء، ولا استبعد أن تكوني من وَشَى بي لإشباعِ شيطان الغيرة الذي يتآكلكِ...» الاتهامُ أخرَسَها، ظلت هناك وجهاً لوجه معه على ذلك السرير العريض، حدَّقا واحدُهما في الآخر حتى بدأ النعاس يزحف على فراغ تلك العين، وداخلها شريط لا ينعس ولا معنى له، شريط هذيان:

«أن يلجأ وجهُك مع وجهِ رَجُلٍ لوسادةٍ واحدة، أن تَتَسَلَّلَ لوجناتكما نفسُ البرودة المنعشة، أن يأخذَ القطنُ يسخنُ رويداً رويداً في بوق أُذنك الذي يأخذ يتخدَّر، أن يتسلَّلَ للقطن صدى التروس الصغيرة تدور برأس الآخرِ ولا تُبلِّغُكَ رسالةً، مطرقةٌ مفقودة في تلك التروس لا تُوقِّع لحنَها على سندان دماغك، تنتهي بأن تغفو دون أن يُغَنِّيكَ رفيقُك أغنيةً صغيرةً تقولُ لكَ: كم هي تُحبُّكَ! بصمتٍ وبخِفَّةٍ مثل فراشةٍ على غصنٍ، لا تُثقله وكل ما تفعله أن تخطفه بلمحةِ لونٍ يصعقُ ويذوبُ في ذات اللمحة! أغنيةُ من أغاني الوسادة: تُلَحِّفُكَ وتتلملم عليكَ وفي مسامك حتى لا يتسرَّب إليكَ برد ولا كابوس، ترنيمةٌ من توليفات الصغار: مُبَالَغ فيها ومستحيلة، بل وأقربُ للسُخف بمنطق الكبار». حين علا شخيرُه عادتْ ظِلالُ الأخضر تتأكَّدُ حولَ شفتيه وتتمدَّدُ لعنقه، بدا لها مثل رجلٍ يختنق، في أشهر زواجها الثلاثة نادرة هي اللحظات التي انفتحت بينهما لتؤويهما، هناك ما ينفتح بينهما ويردُّ كلا لعالمه، ويدفعها عميقاً لعزلتها، لم يخطر لها قط - حتى اكتوت - أن أشرس الغربة هي التي نعانيها في الآخر،

«أيمكن لمصورٍ فوتوغرافي أن يكون كاملاً... أم كما المَرَافِق العامة مفتوحاً لما يغزوه من الوجوه والصور؟» لم تأذن لمحسن بدخولها حتى اعتنت بحَشَرِ بدر في زاويةٍ معتمةٍ من قلبها خلف طبقة كثيفة من العزم على طمسه، سمحت لمحسن بالتمدد في مساحات الضوء المُعْلَنَة، لكن وبعد 90 يوماً و129600 دقيقة و7776000 ثانية أدركتْ أن عينَ المُصوِّر إطارٌ يُقَطِّعُ من جسدِ العالمِ رُقَعَاً مستطيلةً يحبسها على الورقِ والجدرانِ ليَظَلَّ

يتعبَّدُها، هو والرُقعة، ولا مكان لثالث، عينُ المصوِّر معدنية وفي آلة تصويره، عينٌ لاتَلَمكَ بدفءِ عينِ العاشقِ، وكل ما تفعله أن تبحث في جسدك عن رُقَعٍ صالحة للحبسِ في إطارٍ. شعرت مريم برُقع جسدها تختنق، ركامٌ من الرُقع تكدَّس بجوفها حتى فقدت الطريقَ لتفاحة قلبها، لحبكة جسدها الكلية، صارت مُجزأة وكل ما يهوي فيها يتشرذم ويفقد حبكته، صارت مهلهلةو تُهلهل العالمَ، هذا الفكر التفكيكي أفقدها وحدانيتها، أفقدها تَوَحُّدها به، قَطْعَاً ذاك فشلها وحدها، هي العاجزة عن إدراك الكلِّ الذي ترجع إليه كلُّ تلك الذرَّات، وبلمحةٍ ضَلَّتْ حتى وحْدَةَ تَفَاعُلِها، استجاباتُها له صارت لِفُتَاتٍ لاتعرفُ كيف تُلملمه في حبكةٍ تأخذها كُلاً! ما بينهما فتاتٌ، حتى صار سهلاً عليها القسوة في محاكمة تلك العين الغيور بآلة محسن، ذلك الوجه المتحرق لجمهور: يقذفها محسن تباعاً في وسط مُخْتَلَط ليرصد استجاباتها للرجال والإناث على السواء، ما أن يبرق وجهُ مريم في ضحكةٍ أو كلمةٍ حتى يحبسها في رُقَعٍ من العقابِ، للكلمةِ الجميلةِ قُصَاصَةٌ أو قِصَاصُ: (هَجْرُ ليلةٍ)، (هَجْرُ أسبوعٍ مع التنكيل) للضحكة عنوان يُعلقه على اللقطة:

«رخصٌ...» تَجَلِّي المرأةُ منها في مجلسٍ إهانةٌ شخصيةٌ مُوَجَّهَة لمحسن، له أن يلبسَ أفدح لقطاته فتنةً ويخرجُ للناس، ولها أن تخلعَ المرأةَ منها وتخزنها تحت بلاطةٍ بدارهما قبل مرافقته لأي محفل، أن تترك تلك الذات الطرية مقبورة وتتحرك في رفقته، أن ترزح في وسوسةِ عدساته المُقَرِّبَة والمُكَبِّرة، ليس حُبّاً أو غَيرة، إنما ازدحاماً، كان يشعر بالزحام وبالاختناقِ أينما ظَهَرَ كائنٌ يستحِّقُ الانتباه دونه، ومريمُ تسرق بضحكتها تتأرجح أبدا على حافة الشفة الممتلئة، وبلمعة النمر آثمةٍ في العينين، شَغَلَتْه بذاك الوجه.

- «كيف يمكن أن تحمي وجهَكَ من شظايا العين التي لا تكفُّ تتفجَّرُ حولكَ؟ صار وجهي مشكلةً، محسن نَجَح في تجريح وجهي بالوعي،

جَعَلَني شديدة الوعي بوجهي، لا أعرفُ كيف ألملمه من العيون، أجلسُ غارقة في ذهولي بين الناس أحمي وجهي...».

لم يتعمد الحصار، مبالاته لا تُغادر محيط آلاته الأحدث والأحدث، لكن شيئاً في اللغة التي يحكيها جسدها يُثير شياطينه، يدفع عدساته للحصار. شيءٌ في جسدها يمنح صوته تلك البرودة القاطعة، النظرةَ في عين محسن شَفرَة، كلما نَظَرَ إليها أوحى لها:

(أنتِ غلطة، بجسدك الصغير بين طفلة وأنثى)

عِشرةُ محسن صاغت لمريم حكمتَها الخاصة: «الانفتاحُ على الآخَرِ مثل انفتاح المحارةِ على اللؤلؤة، عملية افتراس، جرح، حيث تُحِلُّ الآخرَ في مُنتهى ضعفكِ، تُحِلُّه في المَقْتَلِ منكَ، وتسمح له بأن يعبث في ذاك المَقْتَل يتحرك بجلافة. كلُّ علاقةٍ مع الآخر ماهي إلا غلطة، وحياتُنا هي مجموع المحاولات والمحاولات لتصحيح تلك الغلطة».

أينما التفتتْ كان يرقبها بذاك الاتهام (وجودك فيَّ غلطة)، (المداهمة التي اغتصبتِ بها عالمي غلطة)، (الحلم الذي تَوَسَّمْتُه فيكِ غلطة).

«أينها؟» أيقظها تلك الليلة ليسأل، تُغالب النعاس، تحيرت،

«من؟!!»

«المرأة التي ظهرت لي لليلةٍ وحيدة في الفاونتن بلو؟» ذاك السؤال أفلت من محسن مرة ثم توارى خلف جرح عميق بقلبه، خلف دروعٍ استنبطها للصد.

عيد ميلاده قضاه يتبع مُلْهِمَتَه الجديدة شهرزاد بعدساتٍ من كلِّ طراز، يلتقط لُها صوراً في كل وضعيةٍ اتخذتْها بدلالٍ بخبثٍ بنداءٍ لكي وفقط يلتقطها مثل خوخة ناضجة، وكان على مريم أن تتحرَّك في ذاك التيار كمضيفة، تفتحُ لزرافات الأصدقاء، تستقبلُ بدهشةٍ ماتتِ فيها كما من دهر،

«زوجي هو الرجل الذي يميزه أن صديقه القريب الآلة ثم وفي المرتبة التي تليها المُلْهِمَات». تناولت فيضَ العباءات الفَوَّاحة بعطورها الخرافية، تدسُّها في الخزانة التي فاضت بزحف حريرها الأسود وخرزها ونقوشها وتطهيماتها وتطريزاتها، حتى ملَّت أصابعُها ملمسَ الحرير المطَرَّز، وزَحَفَ خَدَرٌ على وجنتها من فيض تلك الروائح المثيرة لحساسيتها للعطور القوية. مثل نحلة خرساء لم تكف عن الحركة في ذلك الحشد بين الباب والمطبخ، تُقَدِّمُ كؤوس الشراب وأطباق المقبلات، وأنواع السيجار الفاخر، ومنافض السجائر، تسعلُ تتحوَّلُ عيناها لبقعتي شرر بين سحب الدخان، يرن برأسها توبيخُ محسن قبل الحفل بلحظات.

- «ما عاد بوسعكِ إخفاء حقيقتكِ، كغيركِ من النساء، يُربككِ الاقتراب من فنان، الدخول في مَخْرَقِه! وما النساء إلا حُجَّة. إذ، تعرفين أن كلّ ماعداكِ وقود هذه النار التي تتآكلني...» حين أعطته ظهرها بلامبالاة أطبقت ذراعاه على كتفيها، شدها، أسند ظهرها لامتداد جذعه، ومرَّت راحتاه على توتر قوسها تُهدهد ذاك الجموح،

«أنا ما زلتُ أُحبُّكِ... أبداً لم أكفَّ...» فكَّرَتْ،

«الحُبُّ، لا أكاد أعرفه؟».

«أشعرُ بكِ عميقاً في جسدي، أرغبُكِ...» لم يُقابله غير الصمت، هزَّها بغضب،

«ما أنتِ؟» تَرَكَ جمرةً على مؤخر عنقها، وهاهو الآن يطوف بالأصدقاء يلمعُ كرمحٍ،

«لم يفهمني أحد، نتاجي الفني، وموقعي على الإنترنت خاصَّةً، سيَظَلُّ فوق مستوى إدراك الفرد السعودي...» صوتٌ خبيثٌ انبعثَ يستَفزَّه،

«وزوجتكَ مريم، تزوجتما عن حُبٍّ، أبقيتْ بينكما مِنْ مساحةٍ لهذه اللعبة؟»

«الحبُ في حياة الفنان قضيّة ستظل تُحَيِّرُنا، هل نحترق بالمعشوقة أم نُحرقها؟ أحياناً يخامرنا الشك فيما بقي من الحب في هذا العصر. لظهور الحب لابد من التكافؤ الإبداعي بين العبقرية ومحيطها البشري، العبقرية مثل نبتة شيطانية واحدةٌ منها تكفي لتحفيز قارَّة». وباغتَ مريمَ السؤالُ:

«أنتِ معلمة أطفال؟» وتَدَخَّلَ محسن،

«وفي أمومتها ما يروي الشيطان، على ألا تُفَكِّر في إنجاب سواي».

انفجرت ضحكاتٌ مُشجِّعة، ثم موجهاً حديثه لمريم،

«للأمّ سجَّادَةُ صلاتها، وللابن المغامرة حتى حدود حتفه».

استبدلتْ مريمُ مِنْفَضَةَ سجائرٍ طافحةٍ بأخرى نظيفة، تَحرَّكت مريم أبعد، تَحرَّكت أبداً، حركةٌ لغايةِ الحركة، متفادية التَنَصُّت لبقيّة غربته، انهمكَتْ تجهز قالب الحلوى الضخم بالشمعات بلا عدد، في انهماكها لاحقها صوتُه،

«لستُ مُتطلِّباً، أعرفُ، المُتَلَقِّي المثالي لعملي: لا أحد! هناك دهورٌ من التفوّق ستَظَلُّ تفصلني عمن حولي.. هذا قدري كفنانٍ...» متجاهلاً حركةَ مريم في المكان.

«أنتَ تُدرِّب زوجتكَ ويُقَالُ عثرتَ فيها على موهبة...».

«دَرِّبُها!! لا أحد يتدرَّب ليتحول مبدعاً، نُوْلَدُ مبدعين أو نموت في عاديتنا..».

«وزوجتك مولودة؟».

«لم لا تسأليها؟ ربما فعلاً أحتاج متدربة لإنجاز مشاريع تجارية، تصوير النساء اللواتي يحجمن عن الظهور لعدسةِ رَجُلٍ، ما رأيكِ؟»

وجاوبته ضحكةٌ صاخبة تعد بما يفوق التصوير.

****

كان لابد لهما من مَخْرَجٍ، ليلتها بدأ خيطُ الدم بين ساقيها، في صمتِ

العتم جَلَسَتْ عارية في حوض الاستحمام تسترجعُ تفاصيلَ استجابته لحملها والتي جاءت مثل شفرة:

«أسمعي إن لم يربطنا هذا فلن يربطنا جنين...» وبقسوةٍ أطبقت قبضتُه على ثديها الأيسر مخترقة للقلب، في لمحة الافتراس تلك تَذَكَّرَتْ مريمُ المصارعين البدائيين وكيف كانوا بضربةٍ بأيديهم المجردة يشقون جسدَ الخصم ويخترقون لأمعائه لقلبه! شعرت بيد محسن قادرة على انتزاع قلبها بين أصابعه، وخامرتها سخرية، «لن يجد ما يستحق القبض...»

ابتسامتها دوَّتْ بصدره، وللحال هبطت اليد للبطن المحمومة بِعَلَقَتِها، توقَّفَتْ هناك، للمحةٍ تراجعت - تمسَّحت، ثم تَوَتَّرَ قوسُها، قَبَضَتْ وتوحشَّت، قسوةٌ موجَّهة خاصَّة للجنين في جوفها، لهذا الحمل الذي ربما أطال مدةَ فتحِ العدسةِ لمنح صورتها المزيد من الإضاءة، من الحيوية. كمن يتأمل في صورٍ لغُرَفِ التعذيب، ولفرط إبداعِ اللقطةِ يتوقُ لقضاءِ لحظاتٍ في الصورة، في حجراتِ التعذيب، أن يُنجبَ فيها،

«إياكِ ومسرحيات التوق للأمومة، لقد أتحفتْني زوجتي الأولى بما لايمكنكِ التفوق عليه، هذا الجنين الذي تُصَنِّعين بجوفكِ ماهو إلا ثقل إضافي تلقينه على كاهل العلاقة لِشَلِّ حركتها، وهذا ما نحن في غنى عنه الآن، لن يُجدينا أن نتخذ من الطفلُ سلاحاً، أو زنزانة نُغلقها علينا». ولم يَكفَّ،

«لا أُصدِّق سادية المرأة، أهذا وسط ملائم لحركة طفلة؟! هذه الأرضية المفقودة بيننا؟ أتتجاهلين؟ ثم، أين سنربيها؟ لا مكان لها، لا تتوقعي مني الركض للبحث عن سكن أوسع وتمديد الفراغ حولنا، يكفينا ما نحن فيه». ساخرة أجابت،

«ليس غير هذا الممر بين حجرة النوم والحمَّام». تجاهل كلماتها وأكملَ،

«ثم إن دَخْلنا لا يسمح، مكاسبي على غزارتها تذهب لتحديث

معملي..» «الطفل يجيء ببركته...» لا تعرف ما الذي دعاها للتشبث في تلك اللحظة، في غمرة قناعتها بكل حيثياته،

«ماذا؟! نُورِّط طفلاً في خَرَابَةٍ لاستجداءِ البَرَكَة!!»

أفزعها كم تبدو باهتة في كلماته، حتى منطقيتها غادرتها، كانت بحاجةٍ للتشبث بتلك الصلة، لشعور يقيني داخلها ببلوغها ساعات النزع الأخيرة، مضى غير مُصَدِّق،

«لو تسمعين كلماتك، بَرَكة وثواب!!! تزوجتُ عجوزاً لتعزف اسطوانتها المشروخة في رأسي؟!» شعرت بحاجة للتجني لرد اعتبار،

«معكَ حق، نُعاشِرُ المؤمنَ فنؤمن، ونعاشرُ الشيوخَ فنشيخ».

«وأنتِ لطول عشرتك للأطفال رجعتِ طفلة لاتعي عالم الكبار».

«شكراً، أعتبرُ هذا مديحاً..».

«هذا بالضبط أنتِ...».

تستسلمُ مريم لفيضِ الدم وتسترجعُ المسافةَ التي تضيقُ بين الحَمَّامِ والحجرة الوحيدة،

«لقد نجت الطفلة مِنْ خَانِقٍ بين عملاقين أنانيين!».

أيمكن للكلمة أن تستحيلَ مشرطاً يهتكُ أستارَ الرَحِم؟ هاهي كلماتُهما تُقَوِّضُ وسائدَ الجنين، لم تلبث الروح أن نُفِخَت في حملها، شعرت بالخفق منذ أسبوع، ثمانية عشرة أسبوعاً لم تشعر خلالها بأية عوارض لرفض الجسد للتكوين الدخيل، لا غثيان، فقط تلك الحرارة تتأججُ في أركان جسدها، كانت تحرص أن تُفيق كل خمس دقائق، تحرص أن تُهَجِّن تلك النار لتخليق الجنين بدلاً من الإتيان على الأم، والآن، حوارٌ ختامي مع محسن جاء بزلزالٍ قَوَّضَ بطانة الرحم، عارية في جوف الليل تمسحت ببرودة حوض الاستحمام لتطفيء الغليان داخلها، جالسة تشحب مثل تمثالٍ شمعي شعرت بجدران رحمها تتمزق وتتهاوى

رويداً رويداً، وفاحتْ بين ساقيها رائحةُ عنبرٍ، عرفت أن روحاً أثيرة قد أتمت جريانها في الأحمر، وبهدوء، وبلا نفثة ألم أتمت مريمُ إجهاضَها، حين نَهَضَتْ لَفَحَتْها برودةُ التكييف، على وجهها رسمت خطوطاً مثلجة تتبع مجاري الدمع، كانت تبكي، طوال الليل لم يصمت البَرَدُ على وجنتيها، البقايا التي كانت تُرمم ما بينهما تَسَاقَطَتْ وتركتهما عاريين واحدهما للآخر، في تلك الليلة أتمَّتْ مريمُ وحدتَها وقامت عارية من أية عزيمةٍ قادرة على حملها خطوة أبعد مع محسن. حين اندست إلى جواره في الفراش كانت قد سكتت كل الرعدة بجسدها، بقي الخَدَر في نصفها الأسفل يُذكِّرها السَقْطِ.

طويلاً وقفت أمام المرأة العريضة على حوض استحمامها، تأملت في المساحة أسفل السُرَّة،

«هناك ترقدُ أعظمُ آلامنا، تكمن في بياتٍ شتوي، وحين يهجرنا العالمُ، حين نرجع كما وَلَدَتْنا أمهاتُنا عُراة، يبدأ النزف».

لحظتها شعرتْ بالفراغ ينفتح أمامها، ومن جسدها تستجيبُ له حواسُها، حاسةُ السمعِ كانت الأسرع، شَعَرَت بدبيبِ الصمم يحتلُّ مواقعَ حيوية برأسها وجسدها، يملأ الفراغَ الذي يستحدثه قلبها، كان الصمت يتقدم رويداً رويداً ليُغطى مواقع تتعاقب برأسها.

«ما مِنْ فَزَعٍ غَيْرُ فَقْدِ السمعِ هذا...» لذا فإن همهمة الغناء ستظل تطلع من صدغها مباشَرة للرأس بلا حاجة لطبلة. هوت رغبتُها في الاستمرار مع تهاوي جدران الرحم.

****

كانت طفول قد أنهت تنظيف أطباق الكلاب وبقايا تركها بمبة كَشَّر خلف الأريكة العريضة في حجرة الجلوس. الكثير من المياه والمعقمات، وقفت لساعات تحت رشاش الماء في حمامها تغسل تلك الروائح،

تُحَرِّكها حاجةٌ عميقة للتطهر لتُصلي، تَوَغَّلَ الليلُ، ومَسَاحَةُ صلاةِ العشاءِ رَحِبَة تلحقك أينما ألقاكَ ليلٌ، الفجرُ ليس ببعيد، حين خرجت من شلال الماء شعرت براحة عظيمة، كل مافيها رطب ويتجعد بماء، بعض الجروح على راحتيها تئز بحرقة لذيذة، توضأت، في روب الحمام الأبيض تحركت مثل عمود نور بِجُمَّةٍ من سوادٍ، شعرُها المبلول ينام على ظهرها حتى الخاصرة، وينتهي بقناديل ماء تقطر على تدوير، في عبورها من باب الحمام لحجرة الجلوس امتدت يد فهد وجرَّتها، سقطت على الجسد العريض، شيءٌ فيها أنَّ، لكن حرارة جسده لملمتها، حين غَمَرَها استكان تعبُها في تلك الحرارة، مثل ساونا تُوقِدُ ويَسحُّ منها عرقٌ، بقايا عَبَقِ بخورِ العودِ ولمحةٌ فاترة من حميم الكلاب وعبقُ صابونٍ وماءٍ فاح وتَفَصَّد من مسامها، من مذاق شفتيها في جريان الوريد على نحرها، في غرقة الحبل السُرِّي، تأوه فهد وزمجر حيوانه منفلتاً في غاب، وأطبق عليه سوادٌ، غاب وما طلع، وحين جاهدت ليطلع ألقت به على الوسائد خائراً، وفي لمحةٍ تَصَاعَدَ شخيرُه الهاديء يُهدهد من موجٍ...

ظَلَّتْ طفولُ مستلقية على تلك الأغطية، بالبرد يلفحُ جسدَها الأجرد تتحوَّل طبقاتُ العَرَقِ لشرائح إبريَّة مُثلجة ولا تنجح في اختراق طبقات التعب، لاشيء فيها حيٌّ غير تلك العين الفاحمة تتعلق بالسقف، بالهواء، كان عليها أن تنهض، الفجرُ وشيكٌ وصلاة الفجر تَتَفَلَّتُ من بين أصابعها... كان عليها أن ترجعَ للماءِ من جديد، لدهرٍ وقفتْ في جريانه، في فاحم خصلاتها، تحوَّلتْ للونِ الفجر، في تلك الوقفة رأتْ جلدَها يَتحوَّلُ للبنفسجي الصقيل، لأول مرة تعرف أن للتعب لوناً أيضاً، وأن الجسد يتلوَّنُ حين يَعْبُرُ قاعَ احتماله، مثل حرباء.. ضحكت بخَدَر.

هذه المرة وعلى أطراف أصابعها عَبَرَت السرير لباب الحجرة، لو أفاق فلن تنجو من جولةٍ أخرى للوحش.

في حجرة الجلوس بدا الصمت مثل غيمة تلملمت حولها وأغلقتها عن

العالم، بثوب استحمامها التفّت في بياض شرشف صلاتها المزهر بالأسود، شعرت ببخار دافيء يتصاعد من المثلث بأسفل ظهرها متسلقاً للعنق، بوسعها ان تلتف هكذا مثل يرقة وتنام لوقت طويل، ولن يفتقدها أحد لساعات، ليس قبل أن تبدأ زواحف الجوع ترعص بجوف فهد، عندها فقط سيطلبها لإعداد وجبة خفيفة، يدها لاتحتمل طقساً جديداً، بَسَطَتْ أصابعَها على حرّ وجنتيها وكَبَّرت، دسَّت أصابعها في خاصرتها وقرأت الفاتحة، في نقطة من صلاتها غابت، حين ختمت الصلاة سجدت وغرقت في سبات عميقٍ بقلبِ شرنقةٍ، لا تعرف أيَّ حدودٍ عَبَرَتْ في نومتها، ربما غرقت في نقطةٍ لا تذهب لأي مكان غير نقطتها، مثل شَامة على كتفِ غاصت بالأرض، وفي دهرٍ لاتعرف مداه أيقظها ذلك الأنينُ، أنينٌ ضعيف من وجعِ طفلٍ، هبَّت واقفة، من حجرة النوم كان شخيرُ فهد يصل منتظماً هادئاً، توقف الأنين، كان يطلع من جسدها، بوسعها الشعور بشفتيها مثل جمرة تتأوه للمس، تتهاوى بكل تنهيدة، نصف نائمة اعتدلت في جلستها وأصاخت السمع، لا شيء، منتهى الصمت في الخارج شَدَّها للنهوض، ألقت بشرشف صلاتها، مدسوسة في روب حمامها الرطب سارعت للخارج، تحركت صوب بيت الكلاب، للحال لمحت الخيط الأصفر يسيل من فم أضخم الكلاب وأولها خروجاً للحياة، فتحت الباب القصير وولجت، تدافعت الجِراء تتقافز حولها مضطربة، لملمت نُص ونُص لحجرها، وكان يئن، نفس الأنين الصاعد من صدرها، ضَرَبَتْه نوبةُ إسهالٍ وقيءٍ جديدة، تَلَوَّثَ روبها بمادة صفراء نفاذة الرائحة، أَصَابتْها بدوار، بدأ قلبها يخفق، لم تعرف ما تفعل، حاولت تنظيف جسد الجرو الضخم والذي تحول لكومة قش، كومة شعر خاوية، لكأنما ذاب هيكله في لمحة، بمناديل ورقية، بفوطة قريبة كانت تمسح كل ما تقع يدها عليه من الجرو ومحيطه، سارعت لوضعه في سلة مبطنة بوسادة، تركته خارجاً، أوصدت على بقية الجراء الستة وأمهم كيوت، وسارعت لفهد، هزته،

«فهد، نُص ونُص مريض...» انقلب على جانبه الأيسر ولم يُجب، هَزَّته بعنف،

«أنه في خطر، يجب أن نفعل شيئاً...» قام قاعداً بعيون شاسعة تجحظ فيها،

«ماذا...»

«نُص ونُص في خطر...» لمحة من استنكار طفت في جحوظ تلك العين، تعرف، غداً يُشارك في مباراة حبية في نادي الشاطيء لكمال الأجسام، يحتاج قسطاً وافراً من الراحة، لم يتردد، قام، بنظرةٍ لنُص ونُص أدرك خطورة الموقف،

«وبقية التوائم؟».

«لا أعرف، يبدون بخير...» بنظرة لروبها أدركت أن تلك الصفرة مما لايزول ولا يبرأ عبقه، بسرعةٍ خاطفة دسّت الروب في كيس زبالة، ارتدت بنطلونها الجينز وقميص قطني وسبقت فهد حاملة الجرو للسيارة، في دقائق كانا في مستشفى الحيوانات الأليفة، حين وصلا حجرة الطوارىء كان نُص ونُص غارقاً في سائل أصفر يتسرب من كل فتحاته ولكأنما ينضح به شعره الطويل، وقفت طفول يائسة أمام الطبيب البيطري، برودة العيادة تبعث بجسدها قشعريرة

«نُجري تحليلاً مبدئياً لاستبعاد احتمال أية عدوى بكتيرية، والأرجح أن يكون فيروساً، المهم يحتاج محاليل لتعويض ما فقده من السوائل، والأهم نحتاج وضعه تحت المراقبة الدقيقة كما وللحيطة لابد من إبعاده عن توائمه لاحتمالات العدوى». الطبيب المناوب بدا واثقاً ومهتماً، حقنوه بسوائل لاحصر لها، وطفول ترقب بذهول، قبل ساعات ومع الغروب كان يفيض حيوية، والآن غارت عيناه وغامت الدنيا في لمعتهما.

في حجرة العناية المركزة غَادَرَها فهدُ بعد أن حضر صديقهما المدرب

إدوارد لملازمتها، كان عليه أن يستوفي قسطَه من الراحة قبل تحدي الغد.
أمام النافذة الزجاجية وقفت طفول تتأمل في الجسد الصغير الذي لم يكف يفرغ من محتوياته، مع الفجر استقرت حالته مثل بالون أفرغ من هوائه،

«كل ما يحتاجه الآن الراحة واستجماع قواه، لا حاجة لبقائكما».
استقرت عليها عينُ الطبيب بقلق،

«أأنتِ بخير؟».

«نعم، شكراً».

«خذي قسطاً من الراحة، إن كان لديك كلاب غيره فلربما أصابتهم العدوى، كوني متيقظة». ولاحقتها عينُ الطبيب بسؤال، تعلَّقت بأصابعها الطويلة، بالأظافر التي تُجاهد لتحافظ على صلابتها، في الشعر النديِّ لا يزال، أكدت له بابتسامةٍ عذبة،

«حقاً أنا بخير». كانت النظرة الأولى في دهرٍ تحيطها بذاك القلق الدافيء، غَمَزَتْه موبخة فاستقام ضاحكاً،

«الكلاب والأطفال يقرأون غيوبنا، وكيمياءَ أجسادنا..» لم يبلغها مغزى ذاك التعليق يُودعها به الطبيب.

كانت الشمس لطخةُ زعفرانٍ على خَطِّ الأفق حين خلاها إدوارد أمام بيتها، شَرَرُ الشروق يكمد بسوادِ خصلاتها، حين انغلق عليها فراغ البيت بدأ الدوي في أذنيها، فهد كان قد غادر مبكراً، عليها أن تلحق به في الواحدة لحضور المباراة. لها رائحة عجيبة، من بقايا ليل وصفرة وتعب، احتاجت ذلك الرحيل غرباً لتدرك أن للتعب رائحة مثل رائحة عثَّة تسحقها بين إبهامك وسبَّابتك وتسكر برائحتها، أجَّلَتْ حَاجَتَها الملحة للطهارة، فاتتها صلاةُ الفجر، كان عليها تنظيف بيت الكلاب من إعصار البارحة، إعصار من الرائحة الحارقة وبهجة الجراء هبَّ بوجهها ما أن فتحت الباب القصير لبيت الكلاب، عيونٌ ألسنةٌ لُعَابٌ يجري على وجهها كاحليها ويتسلق جذعها، ذعرٌ مما سيجيء ينبثق مثل نوافير صغيرة من تلك

الأجساد المتقافزة حولها، مررت راحتيها على الأجساد جَسَّتْها لصدرها تمسح من ذعرها ماتمسح، طبقة من الصفرة المتيبسة النفاذة الرائحة استقبلتها على القوائم والأرضية والجدران،

«نُصْ ونُص بخير، وسيرجع لمزاحمتكم على كل شيء، تماماً كما فعل حين ملأ بطنكِ ياكيوت ولم يترك مساحة لكم التوائم الستة، والآن، لا تقلقوا سنأخذ حماماً معتبراً وجماعياً...» قادتهم جميعاً للحديقة الصغيرة أمام الباب، جمعتهم في طست كبير،

«والآن أغمضوا أعينكم...» وبخرطوم ري الحديقة أرسلت عاصفةً من ماءٍ، كميات الشامبو أرسلت فقاعات رغوة منعشة في هواء الحديقة، جَارٌ عجوز وقف يتأمل في الحورية السمراء غارقة في البلل وفقاعات من قوس قزح، هتف بها مشجعاً،

«نهار مشمس يليقُ بحمَّامٍ جماعي...» فَهمُ طفول للغة الإنجليزية محدود، بحذق البدوي كانتْ تتلقط مفردة من هنا وأخرى من هناك وتُصارع للتواصل، ضحكت مُلَوِّحَة، «welcome نُرحِّب بمشاركتكَ».

«أنا عجوز، عظامي تتيبس وتلتقط البرودة مهما تَخَفَّت في الشمس». كلماتُه أَشعرَتْها بلذعة البرد المنعشة في وهج شمس الضحى، بفوطة كبيرة لملمت الأجساد الغارقة في شعرها الطويل يقطر، تركت توائم الجراء تتصارع بمرح حول أمها كيوت في الحديقة، وتوجهت للبيت الغارق في العفونة، كشَطت وغسلت، مما تحت القفاز المطاطي شعرت بأصابعها تَتَقَرَّح، بعد ساعات من العمل الشاق فاحت رائحةُ النظافة من المكان وصار بوسع الجراء أن ترجع لمأواها، أعدَّتْ لهم وجبةً من عصيدةِ الخبزِ ومَرَقِ الدجاج، وتركتهم يتزاحمون على الطاسة العريضة. تَوسَّطت الشمسُ السماءَ وأدركت طفول أن الوقت يسرقها، كان عليها أن تُسرع وإلا شَعَرَ فهد بالخذلان لِتَخَلُّفِها، حَمَّامٌ جديد وذابت طبقة من جلدها، بذهنٍ غائب ركعت وسجدت تُصلي الظهر والفجر وكان الجرس يقرع، إدوارد

جاء لاصطحابها للنادي. كانت في طريقها للخارج حين رنَّ جرسُ الهاتف، أسقط قلبُها دَقَّةً كبيرة،

«نحن آسفون، لكن الجرو لم ينجُ...».

ليلة صفراء تُخَيِّمُ عليها، فرحةُ فهد بالنصر لم تنجح تلك الليلة في قشع شبح الصُفرة، أخفتْ وفاةَ نُص ونُص حتى لا تُعكِّرَ نصرَه الصغير، كان جروه المُفَضَّل، يرى فيه هيمنتَه وتَمَدُّدَه الفطريّ على المواقع. بعد مغادرة آخر صديق بقيت زمناً تزيل آثار ذاك الحفل الصاخب، في البدء كان فهد إلى جوارها، حَاصَرَها على المائدةِ ليُمطرها براحةٍ هنا بشفةٍ هناك بساقٍ تنضفر وتُؤرجح بوقفةٍ للهواءِ تشقها لنصفين! شيءٌ فيه يرغب في احتلالها بعد كلِّ نوبة نصر! تشعر به يتمدد ويبتلعها، وبدل أن تنفرَ وتَفِرَّ تَتَمَلَّكُ جسدَها لغةٌ لا تعرفها، تتلاغى وجسدَه بحيوانٍ صارخ.

«أنا متعبة..» كان صوتُها يُكرِّر بضعفٍ بينما صوتٌ سحيقٌ فيها يُطبق عليه، في تلك الوقفة كان فهد يغرق، في كمينٍ من بيت عنكبوتٍ مفرطٌ في حريره، كَفَّ عن التنفس، أَلقتْ به من حَالِقٍ، كان يشهق ويغرق، شَعَرَ بجسدِه يَزْرَقُّ ويجوع للمزيد منها، مثل هذه الاطباقات الانتحارية، هذه البتلات الآكلة للحوم البشر، هي ما يسلبه فيها، هو ما يجرفه ويُمَزِّقه في الذرى أشلاءً، يعرف ألا نجاة له منها.

«أنا متعبة..» غاب صوتها على نفس النغمة الضعيفة. حين رَاجَعَها صوتُها كانت وحدها، فهد كَوَّمَ البقايا في حوض غسل الأطباق وارتمى على سريره وغطَّ في النوم،

«جسد عظيم، مثل صهارة جوف الأرض كلما أتى على كسرةٍ من الأرض حوله هَدَّه تعبٌ، يَغطُّ ويُفيق ليأكل كسرةً من تلك القشرة المحيطة والتي تحملنا بأعجوبة...» لم تعرف عن أي جسديهما تَتَحَدَّثُ، كانت من التعب مما جَعَلَ لتعليقَ الأفكارِ والصورِ والكلماتِ المقطوعة لِلَذَّة تَفوق اللذة... لم تُرهق أيَّ عِرْقٍ فيها بالتَقَصِّي لإرساءِ كلمةٍ أو فكرةٍ أو استكمالِ

صورة. حَوَّطت جسدَها بأشلاءٍ وتحرَّكتْ في الليل كما هي عادتها مذ اقترنت برجل.

لدهرٍ وقفتْ تغسلُ أكوامَ الكؤوس والأطباق والسكاكين، كانت الرابعة فجراً حين عَبَرَتْ طفولُ النائمَ للاغتسال والصلاة، في منتصف المسافة لحجرة النوم اندلع الأصفر والرائحة، تكرَّرَ المشهدُ مع اثنين من الجراء، وتَكَرَّرَت طقوس الرائحة ومقاومتها وارتسمت مجموعة من القروح إضافية على راحة طفول، في الأيام التي تلت تساقطت الجراء كالذباب وتلاشت بهجتها من البيت العابق بحموضة، ستةُ منها نَفَقَتْ دفعةً واحدة، (كَمَانَنَّنا) آخر التوائم خروجاً للحياة بقي يقاوم،

«من خبرتنا كثيراً ما وجدنا أن: الجرو الذي ينتظر بصبرٍ في رحم الأم - لريثما يتدافع توائمه للحياة - يجيء عادة دقيق الجسم، لكن يتسم عادةً بصفاتٍ نادرة للبقاء، وعادة ما يملك روحاً مقاتلة لا تُهزم. وكَمَانَنَّنا من هذه الفئة». حين أدركه الفيروس لم تُطق طفول مغادرته، أصرّتْ على تمريضه، اصطحبتْه لبيتِها وأشرفتْ على علاجه وإرضاعه الماء مثل وليد، تحولت للنوم على الأريكة بكَمَانَنَّنا مدسوساً بصدرها يتنفس رائحتَها ودقات قلبها، ويتقوى، وحين تقف للصلاة في جوف الليل يرفع رأسَه من بين الأغطية مُشْرِعَاً عينَه الكبيرة مسحوراً فيها، يَشخَصُ بكاملِ روحه لكائناتٍ تجتمع لصلاتها، يقرأ الأنفاس التي تعبقُ في الصمتِ والليلِ ويَتَقَوَّى، كل ليلة وفي جوف العتم وحين تبدأ القروحُ تنزُّ براحتيها وقبل أن تأوي لأريكتها تُبَخِّرُ طفولُ من خشبِ العود، حفنات من أطيب العود دسَّتْها والدتُها في حقيبة ثيابها، تغيبُ عينُ الجرو في كائناتِ البخور ولا ترجع، ليالٍ مضت بهما يتشاطران لِذَّاتها الصغيرة/ نزواتها/ طيبها/ وقوّتها، حتى قام،

«هذه معجزة، هذا الفيروس ذَهَبَ بكلابٍ كثيرةٍ في الجوار، وكَمَانَنَّنا اجتازَ المحنةَ بصلابةٍ عجيبة». الاسم الفلكلوري يرقصُ سلساً على الألسنة

المعجمة، وانتشرتْ أسطورتُه كالنار في هشيم الحيوانات الأليفة، قطط وجراء فئران بيضاء تَسَمَّتْ بالكَمَانَنَّنا مثل رقصةِ جَمَحَتْ بمواليد ذاك العام.

****

تعاودها دوماً أغنية وائل كفوري «شو بحبك لما بتحكي، تشكي وتبكي وعم بتغَلْغُل فيّ». التي غنَّتْها ديسكفري في ليلة عرسها، لاتعرف ما في تلك الأغنية، لحظة سمعتها شعرت بعدم ملائمتها لعرس، لكأنما اندست لها مثل نبوءة مثل قراءة للدخيلة، مثل فضيحة.

تُدلِّل جروها، كان فهد قد غادر للمرقص، هي ليلة السبت بحُمَّاها، ليلة الاستعراض الأسبوعية وفهد لا يفوتها،

«ويلومونني على حبِّكِ، يا كَمَانَنَّنا، يا أغنية الفرح في غربتي». وتركزت لعقات اللسان الصغير على ذقنها، ضحكت، «لو كان لفهد عيونك لما طلعتُ منها، تذكرةُ ذهابٍ بلا عودة، حين خَرَجتَ صغيراً في آخرِ التوائم كان وجهُكَ مغسولاً كما بدمع، في تلك اللحظة دخلتَ قلبي.. أنا سميْتُكَ الكَمَانَنَّنا، مثل مطرٍ في رقصة...» ضحكت من استغراقها في محادثة كلب، تعرف أن أمها لو رأتها لفقدت صوابها،

«دَغِك مِنْ جدَّتك زليخة، نحن البدو نُقَدِّسُ الفَرَسَ والناقة، وحين تشح الموارد مالنا إلا كلب الحراسة..»

«تسميتك كانت متعة، طلع الإسم على لساني فور وقعتْ عيني عليكَ، ثم لا تنس ضرورات التسويق، عند ولادتكم أردنا لكم أسماء ذات رنينٍ شرقي فريد، صفة فلكلورية تُعين على تسويقكم حين يتم تدريبكم ويأتي دور تسويقكم، قطعاً لم أنظر لكَ كسلعة، ونوبة الاسهال قضت على كل المشروع وتركتكَ لي. الآن، مكانتكَ هنا ربما أرسخ من مكانتي، حتى فهد واقع في حبِّك، تعرفه، متطرف في مشاعره وللحيوانات الأليفة مكانة خاصة بقلبه، معه أنا في عين إعصار يمتص للداخل وربما يُلقى بكَ في

لمحة. بيني وبينكَ لا أعرف ما الذي يربطنا غير هذا الجسد الذي نُكبِّره، أحياناً يُخيِّل إلي أن الحنان الذي بدأنا به قد تحوَّل لإستيرويد ويذوب في عضلاته، ليس لأنه لا يَحِبني، فقط لأنه لاه بجسده، تعرف معنى أن تجدَ بين يديكَ مثل هذا الجسد التحفة، تُضْعَقُ ولتُصدِّق حظوظكَ، وتَبِيتُ التحفةُ بين يديك، تتحوَّل صعقتُك لابتلاءٍ، تحفةٌ لا تنحتَها مرةً وتستريح وإنما تحتاج للنحت يومياً منذ أن تُفيق وحتى تأوي لفراشك، غفلة لثانية قد تُنَفِّس بديع العضلات وحبكتها، مثل بالون ينفِّس هواؤه ... هنا لا يجد فهد ثانية ليلتفت إليَّ بحنانه، ماكان لي فيه، ما بدأنا به مدفون عميقاً في تلك التحفة. لذا يحتاجُكَ فهد يا كَمَانَنَّنا، لكي تسد الفراغ الذي يتركه فيَّ وحولي، بفرط تفانيك في حبي، بعيونك الشاسعة التي لاتُسقط حبيباً.»
نَبَح كَمَانَنَّنا، ذهب لحجرة النوم ورجع بكرة صغيرة حمراء بين فكيه،

«معك حق، الشكوى بَطَرٌ، تعال، تريد أن تلعب». تناولت منه الكرة وألقتها في الهواء، وقفز يسترجعها، مر الوقت، حين أوى لحِجْرِها جلست تُراجعُ فروضَ المعهد، بعد صراعٍ وفهد تَمَكَّنتْ من التسجيل بمعهد اللغة ذاك، سَجَّلتْ لحضورِ ثلاث حصص أسبوعياً، تُفَوِّتُ بعضَها وِفْقَاً لجدوله، لكن أعباءَ أُضيفتْ لاعبائها وأَصرّت على النهوض بها لتخترق حاجز اللغة، بعد شهر جاءت الحادثة التي قصمت ظهر البعير، ميامي ليست من المدن التي بوسعك أن تستخدم فيها مواصلات عامة، بدون سيارة تصير كسيحاً.

أمام بوابة المعهد جَلَسَتْ على حافة السلالم القصيرة بانتظاره، التاسعة والنصف تنتظر فهد ولم يظهر، منذ الثامنة وهي تجلس تلك الجلسة، الحوار مع الرفاق امتد لتعبئة الزمن، لكن ومع التاسعة أنفضّوا حتى بقيت وحدها، من ورائها جاء الصوت،

«تحتاجين من يوصلك؟» تَلَفَّتتْ مبتسمة،

«شكراً، زوجي سيتذكرني حتماً ويأتي». ضَحِكَ،

«ثقتُكِ في محلها، فمن الصعب نسيان امرأة مثلكِ». هي المرة الأولى التي يخرج فيها هذا المُعَلِّمُ عن مساره الساخر لتوجيه ملاحظةٍ شخصية،

«ليست ثقةً وإنما صلاة».

«أنتِ من السعودية...» وببساطة أنضمَّ ليجلس إلى جوارها على السلالم، بدا لكأنه يملك كامل الليل تحت تصرفه،

«هناك الكثير من التساؤلات تُثار حول النساء من جهتكم في العالم». اللغة لم تعد حاجزاً، دفءٌ خاص كان ينبعث من ذلك المُعَلِّم الأقرب للمثل الهزلي والعاشق لمهنته، رَجُلٌ يتمتع بسرعة بديهة والأهم حرية جسده، لجسده لغات، أكثر من لغة للتوصيل، يفاجئك فيُلقي بنفسه لأرض الصَفّ ليُمَثِّلَ كلمةً، يقفز في الهواء، يرسم بوجهه التعابير لتوصيل مفردات تخون لسانه، كان ريتشارد يُضحكهم كثيراً،

«أعرف، هل لنا رؤوس؟ هل نحب؟ هل نتعذب وراء قضبان سجون بيوتنا؟» ضحك،

«أوه ليس هذا فقط، إنما لم يخطر لرجل مثلي، أنا المحسوب على الفئة المتعلمة بأن نساء من تلك الجهة من الصحراء، على ماللصحراء من سحر وأساطير، يمكن أن تُشَكِّل كائناً نداً، يملك أن يَنْظَرَني عيناً بعين، وأن يتحاور معي بهذه السلاسة. وجودُكِ هنا تحدٌ لمفاهيم راسخةٍ عندي، أنتِ تُقوضين قناعاتي، فأحذري!» التحذير جاء غامضاً لذيذاً مثل ياسمينة في ليلة صيف، بدلال الأنثى تَمَنَّعَتْ:

«مع أن إنجليزيتي مرعبة».

«أنا جاد، في البداية كنا نجهل وجودكم كبشر، والآن ومع أحداث السنوات الأخيرة، تمثلتم لنا مثل شياطين، مثل غيلان خارجة من صحراء لتفترسنا».

«المرأة السعودية؟».

«الرجل ابتداءً، وفي ظلاله تهمشت المرأة، أنتم بالنسبة لنا، ذلك القناع الأسود والجسد المطموس في سواد، ومهمته تفريخ الشياطين والرعب العالمي». ضحكت طفول،

«لهذا جئتُ، لتفريخ الشياطين في عقر داركم..» ضحك، معظم كلماتها بالإشارة، لجسدها لغة رشيقة من تخايل النور على سراج،

«كل النساء مثلك؟» ضحكت،

«بالزيروكس كوبي، لا نتعب في رسم المزيد من الوجوه والأجساد، جسدي نسخوا منه كل نساء السعودية»،

«أنا جاد، هل يشبهنك أقصد في روحك، في هذا الغموض مثل هالة حولك، كما قلت وجودٌ مثلك يُحرِّض الكثير من الفضول، من التساؤلات، أتساءل عن الحب، أتمارسون الحب، لا تُسيئي فهمي، أعرف، كلنا بشر ولنا نفس المحركات العاطفية والجسدية، سؤالي أهناك مساحة بين المرأة والرجل لقيام الحب؟ لحركته، لامتداده في جسد من لحم ودم؟»

«الجزيرة هي أرض الحب العذري، والبدويات معروفات بفنون العشق، الحياة لا تختلف كثيراً في باطنها، مايختلف هو فقط القشرة على السطح، على السطح نحن مجتمع من الأسود والأبيض، لكن لك أن تتتبع ما يُضمره الأسود والأبيض من ألوان بلا حصر...» ضحك،

«مهلاً مهلاً، أنتِ تُحدثينني بلغتكِ العربية، ولا اعتراض، فقط أحتاج وقتاً للاستيعاب، أعرف أنكِ تتعمقين في نقطةٍ مهمة... ببطء أعيدي ما قلته..» أشارت لليل حوله،

«الليل، والنهار، الظلام والنور، هما نحن...».

«أووهه هذه فلسفة عميقة، أنا دوماً تخيلتُ بأنني هذا الليل وما يُضمره من فجر وغروب على حافتيه... وأنتِ الآن تسرقين استعارتي الأثيرة..» كانا

يضحكان حين انبثق أمامهما فهد بغتة، لكأن الأرض انشقت وأخرجته.

«طفول؟!!» نبرة اللوم كانت واضحة، قامت وقام ريتشارد،

«زوجي فهد. أستاذي ريتشارد». لم يمد فهد يده لمصافحة الرجل، وقف يتأمله بريبة،

«إلى اللقاء». قالتها طفول وتحركت صوب المواقف القريبة، مرغماً لحق بها فهد،

«هكذا نجلس على الأرصفة ونتحدث مع الرائح والغادي». ضحكت طفول،

«علامة تحضُّر، ألست أنتَ من يشجع على التصرف بتحضر...».

«هكذا؟!».

«الرجل لم يفعل أكثر من مجاملتي، كان الأخير يُغادر المبنى، عرف أنني سأكون وحدي في الليل بانتظار من قد لا يتذكرني، أراد أن...».

«وهو تَذَكَّرَك؟! أهي سياسة انتقامية جديدة للرد على اهتمام النساء بجسدي؟» فجأة شعرت بحاجة للحياد، هتفت بملل،

«أرجوك، لا تدعنا نضخم هذه التوافه، كلهم عابرون إلاك...» لهجتها المُدَلِّلة خففت من غليانه، هتف بتَظَلُّم،

«أنتِ قلتِ: لعبتُكِ النظرة التي تُعَلِّق». آثرت التمسك بتلك الهدنة، تذكرت،

«هو ذنبي.. أنا من فتح هذا الشك...» تذكرت بالأمس كانا في المقهي، لم تعبر فتاة لم يبتسم لها ويدلها للتأمل في كمال جسده، فجأة انفجرت ضحكتها،

«أرحمهن، والله معجبات لكن ما باليد حيلة مشكلتكَ أنكَ برفقتي، وهذا يقطع الطريق عليهن».

«ماذا تقصدين، أنا لا حيلة لي في إعجابهن، أعينهن لا تسقط عن

جسدي».

«العين العنكبوت هذه لعبتي».

«ماذا تقصدين؟».

«أتريد أن نجري تجربة صغيرة، لأشرح أن العين تُعلِّق؟».

«دعينا من مبالغاتكِ، أرجوكِ خلّيني في سلام». لكن شيطاناً مُشاكساً انبثق فيها، بصمتٍ تأملت في العابرين على الرصيف، انتقت فريستَها، في ذاك الشاب الفاره تتعلق رفيقته بذراعيه، بلا وعي تركزت نظرتُها في نظرته، شَخَصَتْ لا ترمش، في نظرةٍ واحدة أرسلت جسدَها منبسطاً كسولاً مسكوناً بالأزهار على حافة النافذة هناك، بلسان القطة يلعق فروها الكثيف، بالفتيات ينزلقن على ألواح التزلج، بالضحكة على طرف شفاه تلك العاشقة، بالتوق في نظرة عاشقها، ببقايا موسيقى تتبعثر من سماعاتِ أُذن ذلك المراهق، في نظرةٍ لَمَّتْ طفولُ صغائر لِذَّتها واندست بعين القادم على الرصيف صوبها، تَعَثَّر الشاب، تَعَلَّق بعينيها لينهض بتلك الابتسامة تتوسَّع على الشفتين بالنداء وراءها، قَطَعَ الطريقَ بعنقه تلتوي ليظَلَّ متشبثاً بشبكة تلك النظرة، حتى غاب في المنعطف البعيد لتتلقاه عينٌ أُخرى أو يهوي، ملدوغاً قَفَزَ فهد،

«ما هذا؟ ماله ينظر إليكِ هكذا؟» ليُجاوبه ذاك الكسل المحرِّض فيها:

«عينٌ تُعلِّقُ وعينٌ تُهَمِّشُ، أنا من يُهَمِّشُ نظرةَ الآخر لي، نظرتي هي التي تُهَمِّش كلَّ هؤلاء العابرين». بقي يُحَدِّق فيها بذهول. في ذلك المقهى بدأ مقاطعتها السلبية، كتمتْ ابتسامتَها،

«حتى حين، حتى يُظللنا سقفٌ، عندها سيكون الكلام - في هذه المقاطعة - للسيد الحقيقي: جسده». حصيلةُ تلك النظرة كلفتها غالياً، كَلَّفَتْها الفصلَ التعليمي الوحيد الذي سمحت مسؤولياتُ فهد بانضمامها إليه.

حين أقبلا على البيت استقبلتها عينُ كَمَانَنّنا باتساعها من وراء نافذة

المطبخ، نظرةٌ تتلهف تلهث لتقع على وجهٍ بعينه، فما أن أطلَّ وجهُ طفول حتى قفز الجسدُ الحيواني في الهواء مرتطماً بالزجاج يشق الهواء والحواجزَ إليها، ما إن انفرجَ البابُ عنها حتى كان الحيوان في الهواء، بقفزةٍ كان حول عنقها وبلسانه يلعق كل بوصةٍ بوجهها.

ليلة عاصفة، في نومها كانت طفول محمولة على ذاك الإعصار، ومن غشاوة جاءها ذاك الأنين، تحركت،

«إلى أين؟».

«كَمَانَنّنا يخاف من العواصف».

«تتركينني هكذا وتذهبين لكلب؟».

«سمعتُ أنينه، أطمئنه وأرجع إليكَ...» تشبثت يده الكبيرة بأصابعها الممشوقة، كادت تتحطم، لم يُبْدِ بادرةً لتسريحها، جرَّها، الشفة التي هوت على كتفها لها مذاقُ الريح في الخارج وجَلْدُها، باستماتةٍ قامتْ، تَبِعَتْ رائحةَ الحيوان وعَثَرَتْ عليه في الخزانة، مدسوساً بين ثيابها،

«تندسُّ في رائحتي عن العاصفة!! يالكَ من جرو صغير تعال...» كان فهد قد حَظَّر دخوله لحجرة نومهما، كَمَانَنّنا يعرف هذا من انغلاقة الباب الصارمة،

«تعال، لاتخف، أنها تُمطر وغداً بوسعكَ التمرغ في طين الحديقة...» بدأ يتشمم ذراعيها وصدرها،

«تعال، سنُهَرِّبكَ للداخل، على أطراف أصابعنا». ودسَّته إلى جوارها، لأنفاسه قدرة على تذويب كلِّ مخاوفها وحيرتها. كان فهد على يقين بأن ذكور الكلاب تتحداه بشعور غامض بالمنافسة، بينما الإناث يستمتن في حمايته، لذا ترك لها (على مضض) التعلق بالذكور، واستأثر بافتتان الإناث، ما كان بوسع طفول إلا الاعتراف بالغيرة المبهمة التي تظهرها كيوت تجاهها، بينما لا تُغفل استماتة ذكور الكلاب في حمايتها! شعور مُبْهَمٌ بالمنافسة، بالندية بينها وبين الإناث، بينما الذكور يتأملونها

كطفلة، بكل حكمتها وصبرها ومعاناتها ظَلَّتْ طفول في عيون حتى أصغر ذكور الكلاب طفلة جديرة بأقصى الدلال والافساد والحماية. شعور غريب بالطفولة بالبراءة ينتابها في عيون كمَانَنَّنا، فلا تملك إلا أن تستسلم لتلك الخفة الطاغية. تعدو تتقافز خصلاتها في الهواء، حتى في طفولتها لم يتسنَ لها أن تكون بتلك الخِفَّة.

****

استقام جسدُ مريم حول فراغ السقط، تحوصلت حول رغبة واحدة (الانسحاب)، رابطة بلغت خاتمتها قبل أن تُتم شهرها الثالث، عاجلته:

«معكَ حق، الانفصال هو الحل». هنا فقط استدار محسن ساخراً،

«ماذا تعنين؟».

«مافهمتَه».

«وتقولين كانت فكرتي؟» قَطَعَتْ سِلسلةَ التداعي داخلها لتحسم تلك المواجهة،

«أنا وأنتَ تركيبة مُجهَضَة، التفاعلُ بيننا قاصر، لكأننا من عنصرين سالبين، بينما هناك سواي ممن قد ينجح في بلوغِ التفاعل الأمثل معكَ...».

«وأنتِ تريدين المغادرة؟!! تُعاقبينني على سقطكِ؟ جسدكِ هو الذي لفظ الجنين، العدو داخل جسدكِ».

«استمرارنا هو العقاب لكلينا..».

«هكذا!! أنا لنْ أُجبرَ امرأةً على عِشْرَتي...» أعطاها ظهره وغفا لكأنما يسقط من تلك اللحظة فلا تُصيبه بالمزيد من الخدوش، تَنَفَّسُه انتظمَ من زمنٍ بينما هي تُحدِّق في تلك البقعة على السقف، بقعةٌ صغيرة صارت تتمدَّدُ مع الوقت وابتلعت ذاكرةَ مريم، ابتلعتْ كلَّ فكرةٍ تُحاوِلُ التَشَكُّلَ برأسها.

غَفَتْ مع إقامةِ صلاةِ الصُبحِ في المسجد البعيد، نومُها بدأ مضطرباً

حتى هدهده الحلمُ، وَجَدَتْ نفسَها في سَفَرٍ مع صديقتيها طفول والأميرة لولوة وجماعة مرافقين، مركبٌ أو طائرةٌ ترتفعُ لا في سماءٍ وإنما في ماءٍ أهبطتْهم في ذلك المنعزل، أدخلوهم بيتاً من الطين الأبيض، البيت صغير مُدَوَّر مثل قُبَّةٍ أو مسجدٍ، وكان عليهم قضاءَ الليل هناك، الجماعةُ التي ترافقهن أشارت لأن:

«الليلُ حَلَّ في الخارج وعلينا أن ننام..» داخلت مريم غربةُ الليلِ النازل عليهم، أرادتْ الخروجَ لترى كيف هو الليل في تلك البقاع، كان الجميع نيام حين تسلَّلتْ خارجة، من بابٍ بالغِ البساطةِ مثل مستطيل في الحائط وَلَجَتْ للخارج، سمعتْ وراءها البابَ ينغلقُ بتكةٍ حاسمة، حولها فاجأها ذلك السهل الممتد لما لانهاية، تربته من لونِ الفضة الكامدة، لليل النازل على السهل لونٌ غريب مُسَكِّن، من لون قمرٍ ويميل للفضة، يميل للكتمان ليلحق بالسفر الضارب في كل اتجاه، افترشتْ مريمُ الأرضَ، نظرتْ حولها، غزالةٌ صغيرة ظهرت رابضة بقلب السهل، عن بُعْدٍ رَمَقَتْها الغزالةُ بنظرةٍ ناعسة كحيلة وعادت تتأملُ في الليل، أمامها وعلى مسافات مغروسة في تربة السهل رابضة أو واقفة كلُّ أصناف الحيوان، حيوانات واقفة بسكينة نَظَرتْ صوبها وعادت تُحَدِّقُ في الأفق، حيوانات تأتيها بنظرة وتذهب بأخرى لليل بلا آخر، رؤوسُ حيواناتٍ طالعة من التربة، أجسادٌ كاملة، قرونٌ وآذانٌ منصتة لقلبِ السكينة في ذلك الليل، تعرفُ جميعُها أن الليلَ هنا لا يَحْجِبُ بِقَدْرِ ما يُخبيء بقلبه النهارَ. مسَّتْ مريمُ بإصبعها تربةَ السهل، للمسّة الخفيفة تداعت مثل بلوراتِ سُكَّرٍ تتكسَّر بجمالٍ بديع، فكَّرت: قلوبُ التراب هنا تَشِفُّ، تتهاوى لأرق لمسة، للنظرة، هنا لا يستطيع أن يخطو صياد، لذا تلجأ أصنافُ حيوانٍ لا تخطر على بالٍ مَحميّة من القنص.

من تربة القمر الكامل وأجناس الحيوان سَكَنَتْ مريم طمأنينةٌ عجيبة، شَعَرَتْ لجوفها بكنزٍ وعليها الدخول للانفراد به، خلفها كان البيت الذي

خرجتْ منه، بدا لها صغيراً بجداره الأبيض المدور، على امتداد الجدار قامت أبواب بلون الخشب، تحركت صوب الباب الذي خرجتْ منه وكان في خاتمة الصف جهة الجنوب، لَحِقَها بشرٌ،

«لا تذهبي، أريدُكِ الآن...» لكنها وَاصَلَت الابتعادَ، بَلَغَت البابَ، حين دفعتْه بيديها وَجَدَتْه موصداً، تَذَكَّرَت صوتَ إغلاقه حين خروجها، راجعت الأبوابَ الأخرى، تدفعُ بيديها وتجدها موصدة والشَّابُ يُلاحقُها يُريدُ صَدَّها عن الدخول، تذكَّرَتْ أنها أول خروجها قد لمحت ذاك الباب، وكان الأبيض الوحيد متوسطاً تلك التي بلون الخشب، على قفل الباب تذكرت أنها قد لمحتُ مفتاحاً، تَعَجَّبَتْ حينها،

«مفتاح للخارج!» ما يَصدُّ هذا البابُ، فيم قيامُ بابٍ بمفتاحٍ للخارج! حين تَذَكَّرَت البابَ بمفتاحه رجعت أدراجها وكانت مفتوحَة بظهرها للسهل، جاءت البابَ الأبيض قائماً لا يزال بمفتاحه للخارج ومتوسِّطاً الأبواب الموصدة، والشاب يُزاحمُها لمنعها من الدخول، أدارت المفتاحَ في القفلَ فانفتح وولجت، صارَ الشابُ يدفعُ بجسده في الفتحة يريد منعها من التقدم، هنا جاء صوتُ الأميرة قالت شيئاً لِيَنْفَضَّ الحلم.

حين أفاقتْ نَظَرَتْ صوبَ محسن، بجسده محشوراً لجسدها، بذراعه مطوية حولها، تخنق صورةَ السهلِ بحيواناته المُحَرَّمة على الصيد.

«الحيوانات لها أنفس؟؟؟» صحا ذلك السؤال من بقعةٍ مهلهلة داخلها، زمنُ الغَزَل الذي كان، ويومها أجابها محسن: «نعم!».

الآن كلُّ ما فيها يسألُ،

«أنا لي نَفْسٌ...» ويأتي جوابٌ وحيد،

«لا يهم...».

طوال أسبوع حملت مريمُ الفراغَ في حوضها، في ختامه كانت خارجَ جسدها المنزوع القلب وحُرَّة بلاقيد يربطها لحيٍّ أو لزوج. تَنَبَّهَتْ مريمُ للسيارة تنهب بها الطريق السريع الداخل لجدة، تعشق الخروج لشمس

العصر، شمس ما بعد الخامسة حيث لا أحد يتنبه لخَفَّة ذهبها، في غفلةٍ يتحوّل العالم لحبات ذُرَةٍ تتقلقل ترتعش تتقافز تتفتق في شفافية ذهبها الشفيف، لا، بل تخلع الموجوداتُ أجسامَها الجامدةَ وتتحوَّل لشفافيةٍ من ذاتِ الشمسِ المفتوحة كما من جفنين هم الأرض والسماء في حالة وجد، حتى أهدابُ مريم تتحول لخِفَّةٍ برَّاقة، لذا اعتادت وكلما أثقلَها واقعٌ أن تخرج تنهبُ المدينةَ في شمس العصر. مُذَهَّبَة أسلمتْ مريمُ وجهَها مفتوحاً بِكْرَاً في ذَهَبٍ، على حافتي الطريق تمتد صحراءٌ مزنرة على خط الأفق بجبالٍ بركانيةٍ، تُشير لما كان لهذه الأرض من ثوراتٍ في ماضيها، توحي بزلزلة أبديةٍ تنام قريباً من السطح، مستودعاتُ ومعارضُ بيع السيراميك تزحفُ على الجسد الرملي لمداخل المدينة، لكأن كامل البلد تستبدلُ جلدَها بطبقةٍ من الفُخّار المحروق ليَخْنِقَ مسامَه فلا تنفذ منه أو تخترقه نداوةٌ ولا حرارة روحٍ! قريباً من نافذة العربة المنطلقة مثل ممحاة ضخمة تنافرت تلالٌ صغيرَة من رمل أحمر تلهثُ لتسلُّقها الأعشابُ وأفرعُ الحنظل، شعرت مريمُ بجوفها يتقلَّص، لافقد يُعادلُ فقدَ هذه الأرض بلون الجلد العاري، لاشيء في هذه الأرض يتخفى بخضرةٍ ولا سوادٍ، أرض تكشف لك لحمها الحُرّ، وتتلقاكَ بعُريُها،

«بوسعنا اسقاط ماشاءتْ أبخرةُ الحروبِ المحيطةِ من أجِنَّةٍ، إلا هذه الأرض التي من لحومنا الحية، من رغباتنا العارية». أمامها، وفي السماء بآخر الطريق والبيوت رمقتها الشمسُ عملاقة برتقالية ومعلَّقة بحجم طَبَقٍ طائر، لم يسبق واعتلت الشمسُ المدينةَ بهذه الجرأة بل والزهو ببرتقالها الخالص! الشمس في رولر كوستر، تمارس الهبوط الجنوني لتعود تتسلق عرشها على سماء البحر الأحمر، وتُلَطِّخ الكونَ بالبرتقال! من أين تنبثق الشمس بتلك السرعة والنشوة الجنونية، شاعت حموضةٌ منعشة في حلق مريم من برتقال الشمس الذي يُهدد بالإنفجار. لا توحي الشمسُ في هيئتها تلك بحرارةٍ بقدر ما تبعث في المذاق بدغدغة، تُذكِّرها بشمس الفنان

الدانماركي Olafur Eliasson، الذي نصب شمساً عملاقة في قاعة ضخمة بالتيت جاليري في لندن 2003، وبطَّنَ سقف القاعة بالمرايا، وترك الناس يطفون في مواجهة ظلالهم بين سماءٍ وأرض في ذاك الفراغ البرتقالي، يومها شعرت مريمُ كم هي نملة صغيرة بأطرافها الخيطية أمام ذاك الوجود الكوني لبنتٍ من بنات الطبيعة (الشمس) معكوسة في المرايا وفي عينيها التي كانت بلاشك تتضخم وتبرز! نملة وتهاوت عنها همومُها وانشغلتْ بتأمل جسدِها مسلوباً في كونٍ لكأنما يطلعُ عملاقاً من ضآلتها، يتعملقُ بها.

****

تلك الليلة رجع فهد من المرقص متأخر، شَعَرَتْ به طفول يندسُّ فيها، شيء فيها يحتويه مهما هَدَّها التعب، شيءٌ فيها يتأجَّجُ لملاقاته في منتصف الطريق في أول الطريق وقبل أن تقع في مجال رؤيته أو بصره، شيء يستفزه عن بُعد بموجاتٍ فوق صوتية، من الصيحات التي يُرسلها الخفاش لاستطلاع جغرافية الأجساد من حوله، صيحة لاتلتقطها الأُذنُ البشريةُ وإنما تَنْهَبُ كلَّ بوصةٍ في جغرافية فهد، يستجيب لها بعماءٍ من استجابة العتم لكهفٍ، يغور لآخر الكهف فلا يطلع مهما غربت الشمس وطلعت. حين يرجع إليها كل ليلة هكذا تُدرك أن خفاشاً آخر لم يقتنصه على الطريق، تبتهج كطفلة ومستعدة للاستشهاد فيه.

كان صباحاً مشمساً حين غادرتْ طفولُ فهدَ نائماً وخرجت مستجيبةً لرغبةِ كَمَانَنَّنا في الركض، فتحت الباب فسبقها للحديقة، وراءها بدت الشقة عارية إلا من ذلك السجاد بلون القهوة، والأثاث المعدني، الطاولات بأقدامها الرشيقة المقاعد بمساند المعدن اللوحات الخزائن، حتى السرير وستائر حجرة النوم من شرائح الألمنيوم، مثل كوةٍ بمركبةٍ فضائية، النقيض تماماً لبيت أختها حصة، كل ما في المكان عصري ومختزل، لاشيء من الوطن المترع بالألوان وشموسها، للواقف على

الباب لاشيء في تلك المساحة يدل على هوية ساكنها، فقط تلك الهوية العصرية العامة، أكبر مساحة يحتلها جهاز التليفزيون الذي يقول عن قدرة مادية، عن تداخل الوهمي بهيمنةٍ في الواقعي.

في الممرات المشجرة للحديقة العامة ركضت طفول وراء كَمَانَنَّا، لحقته حين وقف على قائمتيه مشرعاً اتساع عينيه في تلك الطفلة في الثالثة، لم يصرف اهتمامه غير الكرة التي لمحها بين الأشجار، أسرع يلتقطها قبل أن تقع ويرجع لطفول، بعينه ترجع للطفلة،

«معكَ حق، طفلة كانت ستضيف لحياتنا الكثير من المرح». تقلَّصَ قلبُ طفول بتوقٍ لطفل، مرَّ الصباح على طفول تركض وشاركتهما الطفلة في الانبهار بكَمَانَنَّا،

«طفلة كفيلة بملء قلبي ويطفح». حين هدأت الحديقة مع تطاول الظلال استلقت طفول على الحشائش، واندسَّ كَمَانَنَّا في خاصرتها،

«مثل هذه الخضرة كفيلة بموازنة كل الهرمونات بجسدي...» ضحكت طفولُ، أيُّ عابرٍ يمرُّ سيرى كيف تُلاغي الكلبَ بلا حرج، وبلغةٍ غريبة، تساءلت،

«هل جنيتُ عليكَ بمحاورتكَ باللغة العربية، أنتَ أيضاً صرت تحتاج كورساً في اللغة؟» استحضرت العالم من وراء أهدابها، مثل حمار وحش مخطط ويتصارع مع الريح والأخضر وتلك الأشباح التي تعبر بين الفينة والأخرى، تُلقي على امتشاقها نظرة محايدة وتذهب.

«لا عين ترى ماتحت الجلد، لا ترى معدلات البرولاكتين، مادة من دمك تخنق أطفالك قبل أن يتخلّقوا، هذا ما ظنناه في البدء، يجب أن تتعرَّف علينا قبل أن ترافقنا على طائرة لمملكتنا، نحن البدو حين نتطور نضرب في العالي، قالوا لنا الهرمونات دليل التقلبات النفسية، صرنا على الموضة، أُنتج برولاكتيناً بالهَبَل ليُعْلِن عن توتري والضغوط، يا كَمَانَنَّا لا يغرك كلام الطب الحديث، نحن الضغوط نفسها نحن البرولاكتين، لا

تَغُرّكِ حركاتنا الحداثية». تأمّلتْ في عدائين عبروا الممر أمامها في دورةٍ واسعة حول الحديقة، عشرات الكيلومترات، تأملت في تلك الأجساد الرياضية الباهرة،

«ما رأيكَ يا كَمَانَنّنا، أتظن كل هذه التماثيل الحية والبالغة الكمال تُخفي استيرويداً في عروقها، ويقتل حيواناتها المنوية؟» ضحكت لفكرةِ راودتها،

«أجساد الرياضيين من الكمال بحيث لا يمكن تكرارها، مُحَرَّم تكرارها، لذا يصيبونهم بالعَقم بهذه الهرمونات والعقاقير المضخمة للذات...» عاشقان عبرا، الشاب يُلقم محبوبته،

«ليس كل اللقمات قابلة للقسمة على أثنين". تحولت ببصرها للبهجة على وجه الصغيرة،

«العالم ينقلب رأساً على عقب، ربما من الحكمة التريث في إنجاب أطفال، مع هذا الانقلاب». حملت كَمَانَنّنا وسارت،

«أُربِكُكَ بهذه الأفكار، فلستَ من فصيلة العشاق البشر، تقرأ الأفكار برأسي، تقرأ رائحتي عن بُعد، لذا يجب أن نستحضر أفكاراً مبهجة، مثلك..» وركضت تطرد الأشباح من رأسها، تطردُ حقيقةَ أن نقودها تشحُّ، وأن الشحَّ يُؤلِّبُ حيادَها، يُؤلِّبُ ركودَ المحيطِ حولها، الهدوءُ الذي تصنعه بخمسِ وجباتٍ مطهية وحضانة الكلاب وسيّدهم، في التفاني في التعفف عن أكثر حاجاتها حيوية بينما يسرف تمثالها في التنعم والانتفاخ صوب بطولة أميركا وبطولة العالم.

رنّ جرس الهاتف، فاستعجل الردّ، ثم وبسبب استعجاله ترك الهاتف مفتوحاً، وذهب ليجيب من غرفة أخرى. كانت طفول تعبر عندما انتبهت أن الهاتف مفتوح، وعندما بادرت لإقفال السماعة لفتتها المحاورة:

«لكَ جسدٌ خرافي... أهو حقيقي؟» زَحفَ صوتُ المرأة ببحَّةٍ لا تُخطيء قراءتها، ليُجيبها فهد،

«أتريدين التحقق؟» فرقعت ضحكةٌ مجلجلة، حزَّتْ بشفرتها على عنق طفول،

«إحذرْ، فأنا امرأة لا تقنع إلا بملموس وصلب!».

«وأنا، لا أقنع أبداً...».

«لدي وسائل للإقناع».

«لا أصدِّق إلا بالتجربة».

«هل لكَ صديقة أو زوجة تُقاضيني؟».

«لي جسد، جسد سفَّاح يُقاضي ويُغَرِّم بالأثمن فالأثمن...» تبسَّمتْ طفولُ ساخرة من ذاتها (في هذه أشهد بالله.)،

«حدِّدْ لمبارزتنا المكانَ والزمانَ..».

«الأفضل ألا نُحدِّد مكاناً ولا زماناً فاقتنصُكِ أينما وحيثما عثرتُ عليكِ بلا مهلة ولا خاتمة...».

«إلى أين».

«عندي تدريب».

جرسُ الباب قَطَعَ في الهلام المحيط بها:

«زايد...» وقفزت تحتضنه،

«لا أُصدِّق، أنتَ آخر وجهٍ يمكن أن يطرق بابي..» قَدَّمَ أخوها زايد بتلك الفتاة النحيلة الشاحبة، وجه طالع من لوحات موديلياني، مثل راقصات الباليه.

«ريبيكا.. صديقتي». عندما رأته تأسفت لإنشغالها عن وجود زايد عبر القارة الأمريكية يدرس اللغة الإنجليزية في مدينة صغيرة على الساحل الغربي،

«مرحباً، أنتظر حتى تسمع أمي بهذا...» غام وجه زايد،

«تفضلا...» ألقت طفول بنظرةٍ سريعة صوب الحقيبة التي تركاها تسد المدخل،

«هذا ما جاء بي، أمي قطعت تمويلها لدراستي، تريد رجعتي».

«لكنها هي التي ناضلت لابتعاثك.» دارالحوار باللغة العربية متجاهلاً وجود الفتاة التي جلست تُنصتُ بسكينة عجيبة حسدتها عليها طفول.

«ذلك قبل أن تعرف بوجود ريبيكا في حياتي».

«كيف؟ سي آي إيه؟ أنتَ أعلمت الحائلية؟».

«فاتحتُها برغبتي في الزواج من ريبيكا، تعلمين زواجي من سعودية شبه مستحيل، أولاً أنا فاشل، بلا مؤهل ولا وظيفة ولا دخل، ثانياً كما ترين أشبه بسعدان، لا شيء في وجهي يُغري فتاة بالاستشهاد في سبيلي».

«أنتَ أدرى بذلك، لكنك هنا لتعديل هذا الوضع».

«رغم الجهد الجبار الذي أبذله، ورغم محاولات ريبيكا لمساعدتي، يبدو أنني لم أُخلق للتعلم، ستة أشهر لم أحرز فيها أي تقدم، إضاعة كاملة لآمال أمي ومواردها».

«لكنك كنتَ ستُجري اختباراً للقدرات، وكانوا سيجدون وسيلة لمساعدتكَ».

«ألف دولار تكلفة الاختبار، وفي المقابل ماذا، سيخلصون لنفس النتيجة: أنا غبي!»

«هذه أمريكا، صعوبات التعلم بلا حصر، وعلاجها بسيط، فقط يحتاجون تحديد الصعوبة التي تُعانيها».

«لا أُعاني غير شعوري بالذنب أن أُهدر جهود أمي، الآن قطعتْ تمويلي وأراحتني».

«أستطيع تدبير تكلفة الاختبار...».

تقلص وجهه القبيح:

«أرجوكِ، لا تُرهقينني أنتِ أيضاً، لم أُصدِّق موت آمال أمي لتلاحقني آمالكِ، أنا عبث». ران الصمت المتقطع بعد هذا الحوار وامتد، وبحنان

أمتدت يد ريبيكا للملمة التوتر من على كتفيه، أحاطته، وأوى إليها. في تلك اللحظة انفتح الباب الخارجي وأطلَّ فهد، تركز بصرُه على شحوب الوجه الطالع من لوحة، على الأطراف الدقيقة مثل راقصة باليه، على الوجه القبيح يندس في الصدر المُسَطَّح، للمحة تَجَمَّد في وقفته بالمدخل، سارعت طفول،

«زايد جاء ليقضي أياماً معنا». رنَّة الاعتذار في صوتها تركت حفرة في الهواء، بحماسة أتخذ جسده نفخة العارض، وبعينه التي لم تفارق وجه الفتاة،

«يا مرحباً، البيت بيتكم».

في الأسابيع التي تَلَت تحركت طفول في ازدحام، الصديقة التي رشحتها للزواج من فهد جاءت في زيارة مع شقيقتها، تحولت حجرتا البيت لمنصة عرض، بفهد يتحرك منفوخاً في بحر العيون المفتونة، لا تعرف طفول كيف استطاعت السير على تلك الأجساد، إطعامها، تدليلها، في الليل تنبسط أجساد مؤنثة على أرض حجرة نومها، حجرة الجلوس احتلها زايد وصديقته، الفتاتان شاركتاهما حجرةَ نومهما، مع ذلك كان فهد يكمن لها في أوقات الذروة، ذروة موجة الانبهار به في بحر الأعين، يطمسها على الجدار الزلق الرطب يمتص رحيقها ويذهب.

وجود زايد فتح باباً لطفول للخارج، تَنَصَّل فهد من مرافقتها لأي مكان وشَجَّعَ زايد على مرافقة طفول، مرات خروج فهد للتمرين انحسرت، صار يتلكأ في زحام الحجرتين، كلما خرجت طفول ورجعت صدمتها شبكة النظرات المتشابكة في ذاك الزحام، شبكة تفوح برائحةٍ تعرفها، لها سريان على جلدها وتَتَجَاهل قراءتها، المرة الوحيدة التي رافقها في شهر كانت لماكينة الصرف الآلي،

«ما حاجتكَ لألف دولار؟».

«سلمى تحتاج قرضاً». ولم تُعلِّق. سلمى ثم ليلى تحتاج قرضاً،

ومواردهما تنضب. وكل العيون في فيضان صوب فهد، وفي تَجَنُّبِ لطفول، ما من عينٌ تجرؤ فتستريح للحظةِ في عينيها.

تلك الليلة، والفجر تحت عقب الباب جلست طفول في جوف العتم تُصلي، بسطت سجادتَها في المدخل الضيق الذي لايزيد عن متر عرضاً وطولاً، تلك البقعة الوحيدة التي تُؤويها، سجادة من دموية السدو، بمنائر رفيعة سبعة، وتربيع الكعبة والقوس الذي تشعر به طفول حين تغيب في الصلاة ينطوي على تلجلج قلبها ويحتويه.

«أياكَ نعبد وإياكَ...» وقَطَعَتْها تلك الشهقة، لعنفها لوت رأس طفول للمرأة الواقفة على تلك البسطة الضيقة.

«ريبيكا مابك؟» لكأنما سقفٌ أنهار،

«لقد أجرمتُ في حقكِ وحق زايد، لقد أجرمتُ...».

«ششش، لا تقولي شيئاً...» شيء في صوت طفول كتم الاعتراف الذي يوشك أن يتدفق ويجرف البيت وسكانه،

«كلنا نُجرمُ في حقكِ، زوجكِ....» انبرت طفول قاطعة سيل الاعتراف، وبحركةٍ حاسمة رفعت جسد المرأة، أجبرته على الانغلاق على لحظة الصدق تلك، على التماسك في ستره:

«أرجوكِ، ستوقظين النيام، لا تقولي شيئاً..» لم تشأ للنائم فيها أن يستيقظ، تعرف أن يقظته حَرِيَّة بطوفان، بصوتِ عميق أكَّدت لكليهما،

«نحن بخير...» مسارب دمعٍ صامت جرت على نحول الوجه أمامها، شعرت طفول بأن الوجه يذوبُ ويجري في ذاك الدمع، شعرت بخوفٍ غامض في ذاك الوجه ومنه، مدَّت يداً مرتجفة وقاطعت المساربَ،

«نحن بخير...» لا شيء في ذاك النحول غير عينٍ تقطر خجلاً ندماً توقاً لشيء ما في تلك الصلاة التي أيقظتها،

«كنتُ نائمة حين تنفست صلاتُكِ في عنقي، شعرت بيد رقيقة تُمسك

بقلبي، أغفري لي، أنتِ ملاك...» ضحكت طفول،

«ملائكة تمشي على الأرض، لا أظنُ...» وتأملت في الجسد الموشك أن يطير لفرط شموخه، وجاء الاستجداء من جوف النحول،

«عَلِّميني...».

«أن تصيري ملاكاً؟».

«علميني صلاتُكِ...» شعرت طفول بمفارقة أن يُصلي قلبٌ على يديها، أن يدخل في الشهادة.

في الأيام التي تَلَت تمَّ التحول في هيئة ريبيكا، انفصلت عن شبكة العيون وتشرنقت، تجاوزت طفول بتحجيب شعرها، كانت تُجاهد للقبض على الفاتحة وأية آية تُعينها على الصلاة بلغةٍ لا تستطيع لفظها وتجد حلاوتها في أنفاسها،

«دوماً شعرتُ بأن ريبيكا على حافة أن تُسلم...» تيار جديد قاطع تيار النشوة في الحجرتين، تيار رفضٍ غاضب يصعق من عين فهد ويتمحور حول ريبيكا. صار لها رفيق في صلوات جوف الليل، اتسعت الفسحة أمام الباب لتضم جسدي المرأتين، تسجد ريبيكا لساعات إلى جوار طفول، وحين ترفع رأسها لتواجه طفول لاتجد ملامح غير بقعة دمع طاغية، تندس بوجهها نادمة،

«كيف أُكفِّر عما اقترفتُه بحقكِ؟» وتُخرسها النظرةُ في عين طفول. يُهمهم نحولُ الوجه،

«احتاج لاعتراف يغسلني من ذنبي». هَزَّتْها طفول،

«فكرُ الاعتراف المسيحي لا يقابله لدينا إلا التوبة لله، للسِرّ، إذا ابتُليتُم فاستتروا، الإفصاح عن الخطيئة ربما لا يُسهم إلا في ترويجها». تتكلم كلٌ في اتجاه، تتحاوران بلغتين لا تلتقيان إلا في النظرة، تُبَلِّغُ معانيها للعين وللقلب بلا مفردات ولا وسيط،

«هذه الصلاة تتدنس في خوض ما يجري حولنا...» ولم يجاوبها غيرُ هواء الليل البارد والبابُ الموارب للخارج، كانت طفول قد خرجت لليل، للذعة البرد والصمت والأضواء المتباعدة،

«مع الفجر تتباعد عنا الأضواء الدخيلة وتتركنا لهذا الجلاء السماوي الممتد بطول مفرقنا...» كان عليها أن تملأ رأسها بالأصوات بالأفكار لكيلا تدع من ثقب لتلك العين في اعترافٍ.. بقدمين حافيتين وقفت طويلاً في رطوبة العشب، في الرذاذ الخفيف ينفذ للقلب، من وراء السور أحاطتها عينُ كَمَانَتِنا.

«أنتَ أيضاً تستيقظ للنور؟» أنَّ الحيوان الصغير، أنينه من معزوفةٍ بصدرها وتماماً بقاع القلب لا تسمح لها أن تطفو،

«أحياناً لا نحتاج أكثر من ليل طويل يغمرنا، أحياناً يصير للنور وجعٌ في عين كبيرة باتساع عينيك، بصفاء عينيك، لا أتخيل عينكَ تنظر في عيني وتُضمر سواداً، حتى سواد عينك على اتساعه مثل مرآة تعكس الداخل والخارج في خلطةٍ عجيبة...» أفرجت عن الكلب، تعلق بها، ضمته لصدرها.

في تلك اللحظة، كان فهد قد استعدّ ليذهب إلى المرقص وحيداً كما يُحبُّ،

«إلى أين».

«تعرفين إلى أين».

صمتت طفول، لكن كان وجهها ينطق بأسئلة كثيرة.

«تعرفين جيداً أن وجودَكِ معي في المرقص يكتم ردود أفعال المعجبين، يتحرجون من مقاطعة خصوصيتنا للتعبير عن افتتانهم بجسدي، وبذا، لا أعرف مدى كمالي، حين أكون وحيداً بين المنافسين على منصة، لا يُسعفني غير نظرات كهذه، يختزنها جسدي، تعليقات

الجمهور، ثقتي بنفسي تنفخ العضلة التي تترهل أو تتهاون، بينما الرجل الوحيد خصوصية مفتوحة للتعليقات وللنظرات..» بذاك المنطق كان يُغادر كل ليلة سبت ويرجع غائباً عن كل أرض.

لمحها حين لفته جسدها في وقفتها في الحديقة سارع يحتويها بذراعيه،

«هنا على العشب وفي هذا المطر أُريدُكِ...»، صار لصوته حرير يسري، تملصت طفول بلا كلمة، وبدأ كَمَانَنَّنا يتقافز حولهما وينبح مضطرباً، اضطر فهد للتراجع للداخل.

****

في الطائرة المتجهة لشرم الشيخ، وكان قد مضى نصف عامٍ على طلاقها من محسن الذي استغرق ما أنهكها من مناورةِ الذات ثم الرّضوخ لكلمة القلب. اجتازتْ مريمُ غيابَ القلب للفراغ (بكلِّ نظرةٍ للوراء تُدين مريمُ جسدَها بغيابِ القلبِ في قُربها لمحسن، ثلمت له أطرافها!) وحيدة من جديد، بصمتٍ مُطْبِقٍ بقفصها الصدري، كان على مريم أن تعثرَ على مضغةٍ تصلح لتخفق بصدرها من جديد. ليس بعد الانفصام عن رجل إلا الفراغ الروحي، في مرحلة الفراغ تشعر بكامل حواسك متحجرة متلبدة، تحتاجُ حَجَرَ خَفَّاف لِحَكِّ كاملِ جسدكِ لتطفر منه شرارة، بعد أشهر من صمت الحواس المطْبِق تململ في مريم توقٌ للحركة، شعرتْ بجسدِها يتأرجحُ على حافة، أولُ خطوةٍ أخذتها للخارج عَبَرَتْ بها البحرَ الأحمر غرباً.

كانت تجلس في مقعدها الوثير حين أقبل بدر من مقدمة الطائرة، توقفت القدمُ أمام مقعدها بغتة، في السماعة المدسوسة بأذنيها هاجت موسيقى (شبح الأوبرا)، بالمغنية الشابة تصرخ قبل أن تختفي في سَرَادب ظلمات الأوبرا،

«الشبح يقيم داخل رأسي...» عَرَفَتْه قبلَ أن ترفع بصرَها عن مجلة الخطوط السعودية (أهلاً وسهلاً)،

«مريم مريم يا من وَلَدَتْني من غير ميلادٍ وبَعْثَرَتْني في الخَلْقِ لأشقى...».

«يا إلهي، لا بدّ أنكَ تُطاردني».

«هل عندكِ شكٌّ؟ منذ ولدتُ وأنا ألهثُ وراءكِ، وخطوتكِ واسعة مثل عملاق مشتعل الذيل».

«تتجوَّلُ بحكاية أطفال!».

«ويُناديني فضولُ الحكواتي الذي تحملينه أينما ذهبتِ، لوجهك ملامح طفل يُنصت لخرافة، لكِ رائحةُ ذاك الطفل».

«اهبطوا مصر آمنين؟».

«إلا مني، وأينما التقينا، فكوني متأهبة». ودون تردد احتلَّ المقعد إلى جوارها، المضيفة المغربية تَأَمَّلَتْه بإعجابٍ مستسلمة لتبديل المقعد،

«أنا في طريقي للقاء وزير الثقافة حيث يمضي عطلته في شرم الشيخ. عَيَّنوني مستشاراً لوزير الثقافة وهي مهمة تُشعرني كدون كيخوته أحارب طواحين هواء، لا أعرف ما يمكن أن يضيفه شاعرٌ لوزارة..».

«مَنْ غير الشعراء للثقافة». لكلمةِ (شعر) فزَّتْ حواسُ مريم فجأة، صار بوسعها التقاط رائحة السفر الكامنة في الطائرات، صار بوسعها وعن بُعد تَلَقِّي عطرَ المضيفة الواقفة على بابِ النجاة، يُفْتَرَضُ في رائحتنا أن تحلك على أبواب النجاة، التقطت مثل رائحة الكافور المعقود في جسد تلك المرأة التي ترمقهما بلامبالاة. خفقةٌ في مريم تأهَّبت، لا تعرف من أين انبثقت تلك الخفقة، من ذكرى قلبٍ كان، ربما، وربما هو خفق المضيفة المنحنية الآن على بدر بكوب القهوة. لم يعد من حدٍّ بين كيان مريم والكيانات حولها، للمحةِ انشقَّتْ مثل زلزلزالٍ للمحيط وصارت قابلة

للجرح من جديد، في تلك اللحظة كان بوسع خدش صغير أن ينزف بها حتى الموت. تلملمت لاجتياز تلك اللمحة من هشاشة، لكيلا تُعاود، وأصغت لبدر بتجرُّدٍ،

«في مرحلتنا الراهنة الوزارة بحاجةٍ لمصارعين أكثر من حاجتها لمن يعملون في هدنة».

«ما الشعر إن لم يكن صراعاً».

«لكننا الآن نريد مغادرة دواوين الورق لأرض الواقع».

«من قال الشعر كلمة على ورق؟ بوسعي تتبع الشعر في تحوله لمادة بأرض الواقع: أَجدُ القصيدةَ في دمي مثل بلازما بيضاء تُعيدُ إحيائي، مثل كرياتين يُحفِّز طاقة العضلات، مثل رصاصة تقتل أو حتى غوغاء تُسقط عرشاً أو ترفعه...» جاراها ضاحكاً،

«والآن، اقدحي واقعيتَكِ لكي تجدي لنا في الشِعْرِ أرصدة ضخمة نُنفقُ منها على احتياجات الثقافة، جِدْي لنا في الشِعْرِ محلولَ الحضارات يُذَوَّبُ مجاناً في أثداء النساء ليرضعه المواليد في المهد، جِدْي لنا في الشعر نشيداً وطنياً سهلاً ممتنعَ الإيقاع والهوى، يُمَجِّدُ مع الأرض الإبداعَ البشريَّ، أخرِجي لنا من الشعر كتاباً جامعاً للروح وللعقل وللجسد يدرسه طُلابنا. أضربي بشِعْرَكِ الحَجَرَ تنفلقُ منه ألف عينٍ وعينٍ تُشبعنا وتخصف على أجسادنا من وَرَقِ الجنَّة وتُؤوينا لمُعْتَكَفٍ لكي نَتَفَرَّغَ للنشيدِ وللكِتَابِ الجامعِ والكتابة». ضحكت،

«تحويل الشعر لذَهَبٍ أو لمضغة! لن يُسعفنا هنا غيرُ حَجَرِ الفلاسفة».

«نحن فعلياً لا نُفَعِّل ثقافة، مضت أشهر على الاستقلال بوزارة تحت مسمى وزارة الثقافة والإعلام وما زالت غير مُفَعَّلة، وزارة على ورق، تتناوشُ مَهَامها الجهاتُ القديمة، ما زالت المتاحف والآثار تنضوي تحت راية وزارة التعليم العالي، وما زالت النوادي الأدبية وجمعيات الثقافة ضمن صلاحيات رعاية الشباب، نحن وزارة بلا مهام».

«فما الذي تنتظره الوزارة، لم لا تستجمع مفرداتها وتبدأ العمل».

«ننتظر قراراً رسمياً وتمويلاً للتفعيل، والآن، أنا هنا لحضور لقاء تمهيدي، تعلمين ننظم لعقد ملتقى المثقفين السعوديين الأول في مركز الملك فهد للمعلومات بالرياض في سبتمبر 2004، أنا في دوامة من العمل، نحن أمام تحدي إعادة هيكلة الثقافة، قد لا يُقيض لنا الحصول على كل ما نخطط له، نظراً لتداخل مسؤوليات الثقافة في هذه المرحلة مع غيرها من المؤسسات العتيقة، لكن على الأقل أَعطينا مشروعيةً لمشاركةِ المثقف في حوار التخطيط، تعميم المسؤولية بين المثقفين بحد ذاته نصر لنا جميعاً».

«أخيراً، نُفْرِدُ كلمةَ ثقافة، نبحث لها عن مضمون وتفعيل، كلمة صغيرة أُسْقِطَتْ في رحلة تطور البلاد حتى الآن، وقادت لخانق».

«لكأنما استيقظنا من غفوة لنُدركَ أن الثقافة هي السبيل الوحيد خارج مستنقعات الهوية والإرهاب... وهانحن نرفع الثقافة كشعارٍ، مجرد شعارٍ أجوف بلا رؤيا قابلة للتطبيق».

«من الإجحاف وَصْم هذه الجهود بأنها ستنتهي لحبرٍ على ورق، من المهم التركيز الآن على حقيقةِ أنَّ مجرد شورى المثقفين في التخطيط للثقافة هو تطور بحد ذاته».

«هذا ما يدفعني للاستماتة في هذا العمل رغم كل شكوكي وتَحَفُّظي، لكن دعينا من كل ذلك، خبِّريني، عَمَّ جئتِ تبحثين في شرم الشيخ؟».

«أبداً، مليونير مصري التقيته في رحلة الطائرة من باريس للقاهرة، يملك سلسلةَ فنادق سونيستا دعاني للنزول في ضيافته». الدهشةُ عَقَدَتْ لسانَه، ضحكةُ مريم الصاخبة أدارتْ رأسَ الجالس عن يمينهما مائة وثمانين درجة، كان ومنذ البداية يتنصت لحوارهما بفضول،

«مُريدٌ يستضيفكِ خارج السلسلة؟» نبرة الغيرة لم تفتها،

«ربما حين ألبِي دعوته». استرخت ملامحه في ابتسامة،

«ربما. لكن شرم الشيخ صغيرة بوسعي العثور فيها على إبرة».

«إذاً سنلتقي لامحالة».

****

كانت تعبر ممرات الحدائق حيث تُقيم بفندق الانتركونتيننتال، في طريقها للبحر حين التقتْه فبادرها:

«هذه المرة هو لقاء مع سبق الإصرار والترصّد!» شَعَرَتْ بحواسها تتململ كما من تحت رماد، كان بوسعها في تلك اللحظة من التقاء بصريهما أن تلتقط رائحةَ النخلة، للنخل على البحر رائحة تمرٍ على ملوحة، كان في ثوب البحر بينما مريم في شورت قصير وفانيلا بيضاء، بنظرةٍ لمّ كلَّ تلك النصاعة، أشاحت ببصرها عن اختراق تلك النظرة، تحركا جنباً إلى جنب في طريقهما للبحر، استقبلهما الرملُ ساخناً متسللاً بحرارته لتلك العقدة من مشاعر مدفونة عميقاً، بدا الشاطيء فارغاً رغم النزلاء المتوزعين في كل مكان، حولهما كان أزواج يتمشون على الشاطيء، وجماعة من المراهقين تلعب الكرة الطائرة، طفل قريب يبني قلعة من الرمل على كرة قدم برتقالية، رحابةُ الشاطيء تمنحُ مساحةً للتنفس شاسعة، جلست على حافة الماء تاركة قدميها للموج، جلس قريباً وما بينهما ماء يروح ويجيء بتموجات لا يُخطئها الجسد،

«حقاً، يهمني أن أعرف، ما الذي تفعلينه هنا؟» نورس طار ليحط على بعد خطوتين منهما، بجرأةٍ يدنو قريباً من مريم، لكأنهما الكائنان الوحيدان على ذاك الرمل، امرأة وطير على رملٍ بدائي، كان بوسعها مد كفها إليه، لو كانت هناك قطعة خبز لشعرت بمس ذاك المنقار الضخم،

«لا أعرف، لم أفكر فيما جاء بي، وجدتُ نفسي على هذه الطائرة ولم يمنعني أحد. للمحة اعتقدتُ بأنني قد بلغت قاع الوحدة، لم يكن هناك من

مَخْرَج، ثم خطرت لي الصلاة، أردتُ أن ألهجَ بصلاةٍ لم يُصَلِّها من قبلُ بشرٌ، وحين رجعت لقلبي وجدتُ هذا النداء (إنا أعطيناك الكوثر)، قال لي بأن الفردوسَ نهرٌ يجري، من هذا الكوثرُ كلُّ ما يجري فينا ويبتلينا، (فصَلِّ لربكَ وأنحر). وأن الصلاة والنحر جريان في ذاكَ النهر، جئتُ هنا ربما لأُصلي في ماء وأنحر هذا الدم المتجمد بعروقي. يكفيني الجلوس هكذا في هذا الجريان». هزَّ بدر رأسه متفهماً.

«يالله!» شَهَقَ كالطفل، موجةٌ برؤوسِ خيولٍ بيضاء ابتلعتْ بُرجَ قلعته،

«في جسدي وروحي أيضاً من هذا الجفاف، من هذا التوق للجريان، لما هو أبعد من الماء، لذا اعلمي بأن لقاءنا هكذا لم يأت عبثاً، هو تخطيط قدري لحسم هذه الوقفة بيننا».

«بنصف رجل وامرأة كاملة؟».

«حصلتِ على الطلاق؟!» كمن لا يُصدق، هزَّت رأسها بالإيجاب،

«وخلّوكِ تجوبين العالم وحيدة؟!» الطفلُ يحفر عميقاً ويُعلي أسواراً لقنواتٍ تأخذُ البحرَ بعيداً عن قلعته، يتعمد استدراج البحر لقلعته ليحبسه في تلك القنوات، يتلذذ بلعق البحر لأسواره، بمقاربة الخراب المُضْمَرِ في الماء،

«ليست معجزة في وضعنا الحالي، بعد لقائنا في لندن تدهورت حالةُ أبي، هو الآن سجين المستشفى، مروان وأنور وَرِثَا كلَّ شيء، منحاني في المقابل ورقةَ حريّة، تصريحاً بالسفر ساري المفعول لمدة سريان جواز السفر: أسمح لشقيقتي المطلقة بالسفر وقتما شاءت. عبارة مثل بوابة موقّعة وممهورة من الجهات الرسمية، تكفيني هذه البوابة لمسح كل الأبواب التي سبق وأُوصدت في طريقي، الدخول والخروج حلمٌ مستحيل اشتريه بأعلى الأثمان لو اقتضى الأمر. هذه أولى سفراتي، كما قلتُ لكَ لم أجهد ذهني بالتفكير في الحيثيات والوجهة، تركت لنفسي أن تطفو وتحملني لأجدني هنا».

النورسُ عَادَ برفيقٍ يُسابقه في الظفر باهتمام الفتاة في الأبيض، من بعيد تَصَاعَدَ الحماسُ في تسجيل الأهداف الطائرة، ضحكاتهم احتجاجاتهم عَرَقُهم النفَّاذ تتداخل بالموج وتذهب بعيداً.

«أنا وأنتِ مُسَاقان هنا لإنجاز مهمة».

«بهذا الثقل داخلي، لست قادرة على شيء سوى الجلوس هكذا منسية على حافة الماء أو في الماء، محمولة لا أُحرِّكُ طرفاً. لنستسلم لحقيقة أننا كلنا مُقْعَدون، أنا لي عذر أما أنتَ..»

«أفهم ذلك، لكن تظل حقيقة أنكِ حُرَّة، وأنا كُلِّي هنا». دَفَعَتْ رعدةَ ذلك الإعلان غير المتوقع إلى السخرية،

«تَطَلَّقتَ أنتَ أيضاً؟» موجةٌ ضخمة ضربتهما في تلك اللحظة وبَلَغَتْ بالبلل لخاصرتها،

«لا، لكنني ومنذ ما يقارب العامين أعيش وحيداً، كما تعلمين مع تقلص فرص التعليم الجامعي في المملكة كانت أمريكا هي الحل لابنتي، زوجتي اختارت العيش معهما في لوس أنجلوس، مؤخراً أبلغتني أنها لا تنوي العودة، والآن عرضوا على ابنتي الكبرى مايسة عقد عمل، تتفوق في البرمجة، وتنوي الإقامة هناك، بينما الصغرى خُطِبَت لسعودي يُقيم هناك ويحمل الجنسية الأمريكية، زوجتي والبنات يتشاركن حياةً جيدة هناك، لم تعد حياتهم مرتبطة بي كما في السابق، تشغلهم حياة خاصة لا تسمح بلقائنا ربما كل عامين مَرَّة، دخولي في شراكة جديدة لن يَمَسَّ حياتهم بشكلٍ من الأشكال، سأظل الزائر الذي يطرق بابهم كل عام مرة، أنا الآن في الخامسة الأربعين، أعيش هذا الانفصال المعنوي منذ زَمن، ما أطمح فيه، أن نعطي أنفسنا فرصةً للتأسيس لواقعٍ يومي بيننا».

«واقعٍ يومي؟».

«غربتي وفاطمة، واحدُنا عن الآخر، وغيبتها لم تبدأ بذهابها وإنما منذ

زواجنا، دخولُكِ لم يُزاحمْ وجودَها قط، حين أنظرُ لما كان من حياتي معها يُدهشني أنها لم توجد داخلي بقدر ما كنت أظن وأنا لم أوجد داخلها، كلانا كان يُدرك ذلك وهي مَلَكَت الشجاعة لفضّ هذه الرابطة واتباع الوجود الحقيقي: البنتين! دوماً كانت مهيأة للأمومة لا للحب، اعترفتْ لي بذلك، ظللنا عاجزين عن اختراعِ حوارنا الجسدي أو الروحي، وإن ظللنا أصدقاء، وربما أنا فشلت في تحريض عاطفتها، بالنتيجة غَادَرَت، أنا، ما بقي في العمر أُبدِّدُه على فراغ، لكن بقيتِ أنتِ الكيان الذي أويتُ إليه وتماسكتُ بالطواف حوله لعقدٍ من الزمان، الخصوصية الوحيدة التي سكنتني كل هذه الأعوام، بكِ صار لي عمر ووجود، تعرفين هذا».

«أريد أن أعرف، ما الحد الذي تريد لنا الذهاب إليه».

«نتزوج!» نقرة النورس ضربتها في القلب،

«تُخيفني هذه الكلمة».

«وتُخيفني، لكنها أرضية، منها نبدأ».

«لا أظنكَ جاداً، أتدركُ ما أنا فيه، هذا الفراغ بطول الجسد؟».

«لاتوجد حياة كاملة كما لاتوجد لوحة كاملة، الكمال هو نقطة الختام، لحظة سقوط الفنان عن لوحته كورقة شجر لتصير اللوحة رقعة قماش ويصير الفنان طاقة في تيهٍ بلا مرفأ، الختام هو انفصال ليد الخالق عن الطينة: الموت. مع فاطمة، والآن معكِ، أنا لا أطمح لكمالٍ وإنما وفقط للوقوف على نقطة بداية حقيقية، مثل بذرة تندسُّ بتربة».

«تُذكرني بعبارة تقول: أنتَ طريقتُكَ في الحب وليس مَنْ تُحب. أي أنكَ تعادل عطاءكَ، قيمتُك تُقاسُ بعطائك وليس بجحود من لا يبادلك الحب، ماهيتُنا تَتَحَدَّدُ بالطريقة التي نُحِبُّ بها. وربما هذا ما أعطى مريم الغريبة السطوة لتهجيني». وبعد صمتٍ أضافت،

«كل ما أريده هو فرصة للتطرف، داخلي مريم خفية لا تُمسك باليد

لفرط مالها من شرود وتوحش، لم تمسها يد حتى الآن. والآن فقدتُ يقيني حتى في وجودها». لحظات صمت.

«أريدُ شرعية تربطنا الآن، للتنقيب على بصيرة عما بقي مني ومنكِ».

تحرَّكت مريم صوب القلعة، في حركةٍ غريزية صوب الأمان من ذاك التوق تُشعلهُ كلماتُه،

«تحتاجُ رملاً أصلب لبناء تلك القنوات».

«إنه خندق». ودون تَرَدُّدٍ أَفسَحَ لها الطفلُ المجالَ، انهمكا يجمعان الرمل ويكبسانه لتحصين الخنادق، ملمسُ الرملِ انطوى على قلبها ضمادة، وتُلملمُ لأطرافها الطمانينةَ، غاصت حتى مرفقيها في الرمل. ثم ظهرت لهما تلك القوقعة بحجم كوز ذرة، هَتَفَ الطفلُ ظافراً،

«تصلحُ منارة بأعلى البرج». تَعَاوَنا لتثبيت القوقعة طولياً بالقمة،

«أتعرف، مثل هذه القواقع تحتاج مئات الأعوام لتكبر، لتصل لهذا الحجم، لدينا الآن منارة بعمر مئات الأعوام...».

«وتُؤذِّنُ الله أكبر...».

****

تلك الليلة، وفي رجعتهما من زيارة المأذون، جَعَلَتْ طريقَهما لتَفَقُّدِ قلعةِ الرمل، كانت بحاجةٍ ماسَّة لذلك الساكن للقلعةِ، بحاجةٍ للحراسة من تلك الرجفة، ظهرت القلعةُ مستسلمة وقد تآكلت أسوارها الشرقية، برغم حصانة الخنادق وتعزيزاتها كان البحر قد افلت، أدرَكَتْ مريمُ قلبَها يرمحُ في ذاك الماء العصي على الحبس، البدر في السماء يُحِيلُ الرملَ لبلورةٍ واصلة للسماء ويسيران فيها بينما المحارة تُؤذِّن الله أكبر، صارت للماء أعرافٌ فضيّة من زعانف ألفية بظهر سمكة، يده على كفها الأيسر أطبقت عميقاً لقلبها مباشرة،

«بوسعي السير هكذا، من هنا لآخر العالم». كان جسداهما يتحركان

من تلقائهما تحملهما ريشةُ طائر، ريشة مقرها القلب ومبللة بحبره.

«لو شئتُ التَوَقّفَ لما طاوعني جسدي، أنا مسلوب لهذه اللحظة».

تركا القلعةَ وراءهما، على شفتي مريم خيالٌ من ملوحة رملها، فَكَّرَتْ: غداً نبني راعياً للماء، كلُّ طيور البحر غافية الآن، إلا طيور المحار هذه التي تفتح أبواباً لنا لندخل في ضوء القمر ولانطلع،

«أريد أن أمشي من هنا حتى يصير جسدانا واحداً، توشوش قَدَمُه الأخرى، تسير أطرافُه صوب الأخرى بتكامل لا يتدخل فيه عقلٌ ولا نَقْلٌ».

«هذا يُذكِّرني بما قاله الباحث الأمريكي في علم العضلات بجامعة ميشيجان دان فيريس أنه عندما تسير القدم فإنها تُحادث القدم الأخرى بشكلٍ ما، وتستحثها على الحركة دون تدخل من المخ، وأن المرضى الذين قُطِع حبلهم الشوكي تمكنوا برغم ذلك من تحريك أرجلهم..»

صمتت مريم لتسمح لصوت البحر المسكون بالبدر في التداخل مع حوار أقدامهما، وبصوتٍ هامس أكملتْ،

«أنا أشعر بذلك الآن، كل عضو بجسدي مسكونٌ بحزمة من الخلايا العصبية تعمل معاً كما مخ صغير، وهذه العقول الصغيرة تتضافر للاستقلال عن إرادتي لتتبع الحوار مع أطرافكَ».

«هذه الورقة هي القرار الأخير الواعي الذي كان علينا اتخاذه». رَفَعَ ورقةَ العَقْدِ في الهواء، قَبَّلَها، وبحركةٍ مسرحية وَضَعَها بين يديها، الورقة الأولى تربطهما معاً، شَهِدَ عليها متطوعان لدى المأذون، تَحَسَّستها، نازعت عليها، قَبَضَتْها وأرسلتها لفضول ريح البحر يُطيِّرها. لو طارت هذه الورقة لَطَيَّرَتْ عقلي خلفها، لو طارت تركتني كما كنتُ هذا الصباح بلا جناح، ملمومة على شوكي مثل قنفذ، للاسم حين يجاور الاسم برقٌ، في تلك اللحظة أدركت حيوية الأحرف يحفرها العشاق على الجسور وأجذع الشجر، السذاجةُ السطحية تتلاشى حين يجيء اسمك للاقتران باسم يراك وتراه في سِرِّكَ وعلانيتكَ، ليس في الأمر سذاجة، دسَّت الورقةَ من الريح

عميقاً في حقيبتها، رَوَادَها أن تَدسَّها في صدرها، حيثُ العَرَقُ المُعَطَّر بكيمياء التوق والخوف يُحيلها للصُفرة، ثم يُذوِّبها عميقاً لكل عِرْقٍ وعَصَبٍ فيها، أكمل بدر،

«وبعد هذه الورقة فأن قراراً واعياً بالحركة ليس ضرورياً بعد الآن، صار للحواس تحفيز ما يجيء منا، لجسدنا المشترَك قيادَ هذه الرابطة حيث شاء».

«كلُ مرَّةٍ نأخذُ فيها خطوة يَتَلَقَّى جلدي معلومات مُتعلِّقة بملامسة طينتكِ التي خرجتُ منها ابتداءً، ويتلقى الجسد معلومات بأنه يكتمل، وأنبعثُ مثل آدم لحظة نفخ الروح فيه».

«بوسع قدمي وشوشة قدمكِ وحملنا من هنا لأبد، مثل سكران لا يعتريه جوعٌ ولا تعب أو خوف، أحبُّ وأواصل المشي، أموت وأواصل المشي في موتي، هكذا بكل هذه السكينة والإشباع، دون رادع». الشعور بالانتماء مخيف، كما العثور على قطعة طال فقدها من القلب، الانتماء لهذا الحِسّ المُحَرَّمِ بالكمال،

«أنا أشعر بالخوف». صوتُها تَهَدَّجَ، كَفَّت الأقدامُ عن الحوار، قَبَضَ بقوةٍ على كتفيها، شعرت بجسدها يستكين لتلك القبضة،

«مني لا خوف عليكِ».

«حاسةٌ ما تؤكد لي ذلك».

«ففيم الخوف؟».

«توقعاتنا، ما سيجيء».

«ندخل هذه الرابطة بلا توقعات، غير ما ندخله من تلقائنا، بلا خطط مسبقة بلا قوالب ننهض لتعبئتها».

«أشعر بذعرٍ من جسارة الخطوة التي أقدمنا عليها، أنا لا زلت البنت من بيئة لا تُبيح القفز في الهواء، وخصوصاً بالقلب».

«هذه الخطوة لا تعني شيئاً، لا تعني الانتقال أبعد مما أنتِ مهيأة له، أنا أيضاً أبحث في هذه الخطوة عن مساحة للتنفس، للعثور على الذات والآخر».

«مثل وزارة الثقافة بلا تفعيل». سخريتُها تَلاشَت في التفافه حول خوفها، في نزعته للهدنة،

«وزارة ثقافة بلا جَرَّافات ولا دبابات تَدُكُّ المباني التي طالت تبعيتها للمؤسسات الأخرى، بوسع وزارتنا الانتظار حتى تؤول لها التركَة من تلقائها، حتى تأتيها المباني تسعى». تَلَقَّفت الريحُ ضحكتَها،

«أنتِ أنتِ قبل هذه الورقة وبعدها، لكِ مُطْلَقُ الحُريّة في التحصن أو الانفتاح، الذهاب أو البقاء. هذه مساحة بيننا للحب، أتعرفين كيف أرى الحب؟» غاب في عينيها،

«الحب اتحادٌ بين ندين، وسعيهما للنمو الروحي». فكَّرتْ مريمُ،

«الفوزُ لغةُ جسدٍ، تتحرَّك كمُنتصرٍ فيُسلمونكَ الراية، تَتَبخترُ كمعشوقٍ فيضمونكَ لصدورهم، ولجسد بدر الآن لغة السندباد، ويُبْحِرُ بها». غادرا الشاطيء صوب الأضواء الخافتة للفندق، موسيقى خافتة تأتي من مكانٍ ما، كلمات الأغنية بالكاد تجيء تهمس وتتقطع، مثل تَنَفُّس طفلٍ في بكاء،

(مَنْ يُناديكِ؟ هل تسمعينني؟

من لا شيء خذي هذه الخطوة 1، 2، 3 انطلقي...) رأت مريم عناكب من قوس قزح، خنافس حُمر، علقات زرق، رأت مخلوقات وأصوات وتنهدًات تطلع من ظلِّ بدر المتهادي بظِلّها أمامهما وعلى فسيفساء المَعَبَر، كلمة عَلِقَت بحلق مريم،

(1, 2, 3 go!)

(نبدو لكِ أننا نفشل، ويبدو لي أننا نحاول) بَلَغَا جناحَه المُطِلُّ على الحدائق المترامية للبحر، تَأَهَّبَتْ للانسحاب،

«والآن...»

«هذه الليلة تُشاركينني حجرتي، أتوق للتنصت لأنفاسك في ظلمة حجرتي، لرائحتك في المكان حولي، لاستيقاظك حولي، لمشاركتي فرشاة أسناني، لإحياء الفراغ حولي». تَتَقَطَّعُ الأغنيةُ لِتَبْلُغهما، ومهما أنصتت لم يكن بوسع مريم تحديدَ من الذي يُغني،

(ما يمنحكَ سحركَ هو تَوَجُّهكَ بكلامكَ لي..)

«دخلتُ في هذه الرابطة، لكي ابدأ فأقول نعم لأشياء ولا لأشياء».

«لسنا هنا للرضوخ أحدُنا للآخر، وتزييف مواقف كاملة من الانسجام، كلانا أخذ نصيبه من الرضوخ، أُقَلِّد ما تريد فاطمة وتُقَلِّد ما أُريد لضمان السلام، حتى ما عادت هي هي ولا عدتُ أنا أنا». صمتت الأغنيةُ المجهولة مُفْسِحَةً الليلَ لأغنية تبكي، أنصتا لأغنية إيفان سنس التي تأتي من بعيد مثل لوعة،

(كنت وحيدة تماماً رغم وجودكَ إلى جواري. هذا الألم حقيقي، هناك الكثير مما ليس بوسع الزمن أن يمحوه).

«معكِ أطمح لأسترد ذاتي وتستردين ذاتكِ، لن نسمح بأن ينسخ أحدُنا الآخرَ، نحن هنا لنختلف بأقصى ما جُبلنا عليه من الاختلاف، نحن هنا لتَشَارُكِ النقص، في الأشياء والمواقف...».

«نحن هنا لنكسر قلوبنا في مواجهات ونعيد بناءها، كما جذع النخلة هذه، تتخلص من سعفها لتعلو للسماء، لكي تنمو لذروةٍ، لا نطلب الكمال بالتواجد معاً وإنما نطلب المستطاع من التكامل، لا أريد نسخة عني تُشاركني الحياة». الحنينُ في الأغنية يمنحُ عتمَ الليل مذاقَ عنبر، يمنح الأشياء ملمساً مخملياً من جنس الأحلام، دَاخَلَ مريم شعورٌ بكونها تحلم في تلك الوقفة،

«أريد كياناً مستقلاً يقدحني حين أكمد، كائنٌ لا يُشبهني وإنما يعرفني

كما أنا ويجد مواطن كثيرة للحوار معي صوب غاية تتوحد».

«أي أن بوسعي إكمال طريقي لحجرتي، دون خيبة؟». ترجع الأغنيةُ لبدايتها، هناك من يُلِّحُ به الوجع فيستقي غيمَ الأغنية، كلما أرهفت حواسهما كلما تباعدت الأغنية لتُجرجرهما وراءها (إن شئتَ الذهاب أتمنى لو أنكَ وفقط تذهب، لأن حضوركَ يتخلف ليتسكع هنا ولا يتركني وشأني)،

«بل ستَردُكِ الخيبةُ، لا سلطان هذه الورقة، أريدُ إقبالَكِ عليَّ ودخولكِ لحجرتي من توقٍ مكينٍ فيكِ».

«توقٌ تسعى لتحريضه هكذا، بمثل هذه النظرة، وهذا الشحوب على الفم». ضحكتُه المرتجفة جسَّدَت التوترَ المتصاعد في المسافة بينهما، شيء بأعلى النخلة تَقَصَّف مثل طيرٍ يسترق السمع، لتجيء الموسيقى طاغية، (صوتُكَ طَارَدَ كلَّ لمحات العقل فيَّ)،

تلك الليلة ولحظة انغلقتْ عليهما خُلوةُ الحُجرة عَاوَدَها نفسُ ألم الإجهاض، مالت بجذعها للوراء في قوسٍ متأهب للقصف، بأمل أن ينزلق الألم بطول ساقيها ويترك بَرْكَةً بين قدميها. واقفة مشدودة كقوسٍ بالمرآة العريضة المواجهة للسرير الملكي، مطلة عن يمينٍ على بحرٍ أحمر وكثبانٍ من دم تنين مسوَّد، وقفت في ثوبها البسيط البنفسجي، شحوب هذا اللون يُعطي للنمر في عينيها توحش، التقى النمر بعين بدر في المرآة، كان يقف وراءها صامتاً لدهر، لم يمسَّها وإن تَدَاخَلَ جسداهما في خيال المرآة، حولها كان صمت،

«أنا هنا لأقول: لا...».

«أنتِ هنا مثل طيفٍ يحوم لا يُمسُّ...» استحضرت الألمَ عاصفاً مُدوِّماً كإعصار لتهمس،

«ما سأقول الآن ليس تذكرة مسٍّ، فقط لأقول لكَ أنك لم تفارقني في كلِّ تلك السنوات، موجود فيَّ، لكن ليس الآن وقت تأكيد وجودكَ. طوال

هذه الأعوام التي فَصَلتْنا، وأينما تواريتَ كنتَ حاضراً فيَّ بشكلٍ أو بآخر برؤيتي للعالم بإعادة صياغتي له».

«وهذا يكفيني الآن...».

ها هو ألمُ الإجهاض القديم ينتهزُ خلوتَها الأولى ببدر ليُغالبها كقطةٍ تلهو بفأر، تَمَدَّدت في المرآة العريضة لتبسط الألمَ على كامل الجذع، هديرٌ فَارَ من قوقعة الإذن لباطن الرأس، للحظةٍ خاطفة داهمها رعبُ أن سمعها يُقْلِع لسمواتٍ سابعة، تأوهت بكفيها لأُذنيها،

«العالم يتباعد، ما سيبقى مني حين يفارقني سمعي؟»

«السمع لا يصعد من الرأس، بوسعي مخاطبتك مباشرة من هنا» دسَّ برأسَه لبطنها يهمس، ذبذبةُ كلماته اخترقت للعظم، ارتجفت، هتفت،

«أشعرُ بألمكَ هنا». وأشارت لموطن آلام الإجهاض، وأوضحتْ،

«هو ألمٌ قديم، بدأ من إجهاض مايا».

«مايا؟».

«في الأصل أردتُ ماه، باسم آلهة المياه العميقة، لكن كيف سينادونها، هي أنانية مني، لكن دوماً كانت للميم سطوةٌ عليَّ، أشعر برحم ينفتح فيها ويشهق في الألف ونداء الياء، ربما هو توق كمين لماء الأمومة».

«توقظين فيَّ توقٌ لأمومتكِ، بوسع الرجل أن يحمل بامرأة، دوماً كنتُ حاملاً بك».

«وأنتَ بشكلٍ أو بآخر كنت الماء ينخرُ قواعدَ الهيكل الذي حاولتُ بناءه ومحسن».

«لكم أنا محظوظ بذلك..» وبختهُ بنظرة،

«وأدفع أنا؟» بأسى،

«أعترفُ جئتُكِ مثل سد بينكِ والدخول مبكراً في علاقة سوية في الولد و...».

«هي اختياراتنا، لا أحد ضالع سوانا، أرانا كالمتسوق بين أرفف لمعروضاتٍ بلاحصر وتُنادي وتُخاتِل وتُعمي، لانقرأ بطاقةَ السعر ونمد أيدينا لهذا أو لذاك، لنحاول التنصل من لحظة الدفع حين يُفاجئنا الثمن الباهظ المترتب على خياراتنا التي نأتيها بعفوية بسذاجة أو بثقة السوبرمان».

تلك الليلة اُفْتُتِحَتْ في حلم، بمِشيتها حافية، لم يُصَدِّق كم هي الأنثى صغيرة، مثل تنهيدة تَتَلَمّلَمُ بالقَلب وتطلع لتسري حوله، لم يخطر له أن قدم الأنثى الحافية غيمة تُنْبِتُ عشباً خَدِراً أينما وطئت، طافت حوله وفيه تُوَزِّعُ أشياءها الصغرى في أشيائه، منهوبة بعطرٍ وعَرَقٍ، وذلك الأطلس يُغطي حرير النوم، ويفوح بشمس، كلما قاربت خفايا الأنثى فاحت بشمس، للحجرة مثل عطر عبَّادة شمس طرية، بقلبه يرسم قوساً من أقصى الحجرة لأقصاها لكيلا يفارقها، تَعَمَّدَ ألا ينظر صوبها خَوفَ أن يَعْمَى بالنظر للشمس عيناً لعين، تَمَركز في بقعةٍ يتلقَّط طوافَها، الحفيفَ الذي يسري منها، الرغبةَ التي تطلع من جُحْرٍ عميقٍ جَرجرَ جسدَه للشرفة، مُفْسِحَاً المساحةَ لها لتركد، هذا الذي تَاقَ ليأوي هاهو يتشرَّد.

حين رجع للحجرة سَابَقَه ضوءُ القمرِ يُحوِّطها، بدت في العتم مثل حلوى مقرطسة في أطلس ومدسوسة بين الأغطية، فقط تلك الخصلات تميس بدلالٍ، بنداءٍ باتساعِ الوسادة، أحال جسدَه لمومياء قبل أن يأوي للضفة الأخرى من تلك المساحة الملكية. لم يخطر له قبل الآن أن الأطلس مُوَصِّلٌ جيِّدٌ للتيار، هَجَعَ، يأتيه ما يأتيه منها ومنه، منه أكثر مما منها، عانى ليصمد في ضفته، لكيلا يقطع التيار عرضياً للضفة المقابلة، للقبول في تلك التنهيدة، شيءٌ في جسدها لم يكف يتنهد، تأخذُها وتَرَدُّها من حيث يدري ولا يدري، من حيث تسمع لها زفيراً، من حيث تشرب الخيل بصفيرٍ بجيشان.

لم يغمض له جفنٌ، بقي يَتَنَصَّتُ للمَدِّ والجَزْرِ في أنفاسها، استلقى في اضطرابِ ذاك النَفَس لساعاتِ الفجرِ الأولى، أنصتَ حتى غَارَ

الاضطرابُ لِجُبٍّ عميق، تاقَ لقاعِ ذاك الجُبّ، تأمل في رفَّة الحلم تُحيل الجفن لرقصة،

«لو آوي لذاك الحلم، بوسع الحيِّ أن يختار صبحه...» في تلك اللحظة رَفَّت عين مريم شاخصة إليه، كمن يتحقَّقُ من وجوده، كمن يسترجع أحداثِ حلم يوشك أن يُفلت من الرأس ويغوص لدنيا الأحلام من جديد، في تلك العين وبين أستار النوم هَمَسَت بكلمات الحلم، همهمت بكلمة لم يفهمها وإنما التقطتْها حواسه، مسحت على جفنيه بدفءٍ، للكلمة إيقاع يقول: أُحبُّكَ، أو، إبقَ، أو أنتَ. ثم عادت لكلماتها معانيها،

«سَمِعْتُكَ!» كمن ألقَتْ عليه القبض مُتَلَبِّساً.

«ما كنتُ أقول؟» من سِرِّ الفجر تَسلَّلَ سؤالهُ. تنهدت في نومها غابت ورجعت،

«أعرف، وأنا نائمة كنتَ تُكلِّمني، كلُّ كلمة تطلع مثل قمريةٍ تُغنّي في الفجر...» وللحال التقطت حواسُ بدر غناءَ القُمريِّة على سور الشرفة، ومما وراء طيور بحر تُطْلِقُ تنهيدة بين لفحة فجر وأخرى لتقول: الله. في غَرْقَةٍ قبل اندلاع الفجر تَنَوَّر جسدُ مريم في الألحفة، جرَّ بدر للحلم، تَبِعَ محبوس الأنفاس، وفي بقعةٍ على خط الأفق استوى الجسدُ يُصَلِّي:

«يا الله، أنا عبدة صغيرة، بعينِ نَمِرٍ وخصلات سود مُبطنة بزغب كستناء، يا لكَ في جلالِكَ لكم اعتنيتَ بحبكي! لَعلَّك تراني الآن من سماواتك وتقول: كم هي جميلة، كم من بصيرتي وعذوبتي وقلبي عَجَنْتُ لصياغتها، لكم تُثيرُ في نفسي من حنان! مثل دمية يحلمها الطفلُ الأول على وجه البسيطة، من فكرة الدمية التي انبثق منها البشر، وإنما على براءةٍ وعذوبة. يا الله، لَعَلَّك تُحبُّني. اجعلْني أُحبُّك كما لم يُحِبّكَ بشر، لا تجعل عبداً مِنْ إنسٍ أو جِنٍّ أو وحشٍ أو نورٍ يُحِبُّك أكثر مما أُحبُّ، ضَلِّلهم عنكَ قليلاً لأصل أولاً وأخيراً، إجعلْ قلوبهم أصغر وأعتم، مَدينةٌ لكَ بهذا القلب عَلِّقْه في طيورِ عرشك الخُضر، في المتكأ حيث تسترخي راحتُكَ

التي صاغت، على المسند حيث تستريحُ مُخيِّلتك وخَيلَك اَلتي أرسلتْ».
في رقدتها فاح عطرٌ ولاح خيط بنفسجي متّقِدٌ على حافةِ البحر، حين هوى يتنشق روائحها، مما وراء الحجب لها طِيِبٌ يُدَوِّخ. ساعة أو تقل أو تنقص ثم اندلعت الشمس في الحجرة.

****

خَلَت الدارُ دفعةً واحدة، الكل غادر إلا طفول وتمثالها بديع الصبٌ وريبيكا، الصديقتان توجهتا مع رفيقٍ للوس أنجلوس بوعد المرور عليهما في طريق عودتهما للسعودية للتزود من بديع التمثال. زايد عَادَ لجدة على أن تلحق به ريبيكا فور استصداره لتصريح الزواج، عاد بغصة، اختبار القدرات قال الكثير وملخص ما قال،

«برأس زايد بقعة معطوبة، تعرَّضت لحادثٍ ما، دمرَّتْها نوبةُ فزعٍ أو خوفٍ أو صَرَعٍ في سن مبكرة وتركته عاجزاً عن التحصيل الدراسي، مؤهل بقدراته الحاليَة للأعمال اليدوية الروتينية التي لاتتطلب تفكيراً أو ابتكاراً، عمل في مصنع مع آلة يكرر معها نفس الأداء يومياً..» أي باختصار آلة من آلات المصنع، هذا ما بقي من زايد، أداء آلة. الحكم وقع على زايد كالصاعقة،

«ألف دولار ليقولوا لي: أنتَ غبي!».

«لا تنظر للأمر هكذا، الآن لدينا يقين أين تتجه بجهودكَ». ساخراً،

«أجل، آلة في مصنع. عشرة مواليد أنجبتهم أمي، ودونكم جميعاً، أنا ترس في آلة».

«كلنا تروس بشكلٍ أو بآخر...»

قاطعها بحدة: «نعم يستعبدُكِ جسدٌ أناني كهذا، هو مَعْرَضٌ مُتَنَقِّل، يكبر جسدُه بالعيون التي تراه، يكبر بكل نظرة تقع عليه، يجلدكِ ليل نهار ولا نسمع لكِ أنيناً، أنا وأنتِ لم تشرق حظوظنا ...».

«فكّر فيما أُنعِمَ عليكَ».

«على الأقل أنا لدي ريبيكا، أنتِ ماذا لديكِ؟».

«ما لدي يكفيني، نفسي...».

«أواثقة أنتِ؟» سؤاله فجّر غيمة بسواد عين طفول، سارع يعتذر،

«أعذريني، أقسو لخيبتي.. أعذريني أنتِ الفرح الوحيد في هذا البيت الآن...».

«في المملكة بوسعك العثور على عمل...».

«لا تُذكِّريني، أعرف المشوار الوعر أمامي... ما يُعزيني أن أمي تقبلت ريبيكا أخيراً».

«المهم أن تُسرع بإجراءات تصريح الزواج، هذا قد يتطلب وقتاً».

«أعرف، ويقولون صَدَرَ منعٌ بزواج الشبان تحت الثلاثين بغير سعوديات. لو صحَّ هذا انتهت حياتي، ريبيكا هي آخر ما تبقى لي».

«لا تدع الإشاعات تثنيكَ عن المحاولة، لا بد وأن ندفع الباب قبل الجزم بأنه موصد».

****

في رجعتهما لجِدَّة أَغلَقَ بدر بيتَ العائلة الكبير ليُقيم في شقة صغيرة تأوي فيها إليه كلما وجدتْ فرصة، هيأ لهما نقطة الالتقاء المادية،

«لنمنح أنفسَنا هُدْنَةً، نحيا فيها تحت سقف واحد ونرى أين يقودنا هذا القُرْبَ. هذا العَقْدُ لا يعني إلا منحنا السقف الشرعي للتواجد قريباً واحدنا من الآخر، لتَشَارُك السِرّ، لنر أين يقودنا هذا القُرب". التواجد معاً في مساحة حية، ممارسة الحياة معاً، فترة قُرْبٍ، مساحة للوقوع في الحب اليومي،

«عهدٌ مني ومنكِ بألا تستدرجنا هذه الورقة، وإنما تَبِعَاتُ التَمَاسّ

الروحي، ألا تكون مبرراً لتوريطنا في أي فعلٍ أبعد من اللقاء وجهاً لوجه، بمعزلٍ عن العالم، ليرى واحدُنا عميقاً في الآخر دون تشويش أو تداخلات. أريد أن أُرى وأراكِ...» جاءته منفتحة على الأقصى لكنه كَبَحَ ذلك التدفق،

«لنعتبرها فترة نقاهة من البُعد والتداخلات». رغم تصاعد الإيقاع بينهما حَرَصَ هو على بسطِ مسافةٍ لكلاهما للاختيار من جديد، للتنفس، خارج الجسد، لإعادة التأهيل الجسدي والروحي،

«جسدُكِ بحاجةٍ ليغتسل من الآخر، كيف لي الدخول ما لم ينهض جسدُكِ لي مستقلاً عن روائح الآخر ملامسه إخفاقاته، ما لم يطلبني خالصاً ألا من توقه». مضى على اتحادهما شهران،

صارت تأتيه متخففة من كل تبعات، من وخزِ الذنب، تأتي لتكون نفسَها وبعنفوانٍ، لِتُرَى وتَرى، لتعاود التَخَلُّقِ وتخليقَ اللحظة في الآخر الحميم.

صار لتلك المساحة سلطانٌ وغيرةٌ، تُناديها أينما كانت، بين الصغار في العمل، في حضرة أبيها المحبوس في بياض، في مواجهتها للمدينة كلَّ صباح ومساء، أينما كانت ترجعُ بها، كلما تمددت هوة الخارج كلما تأجج التحام الداخل، محراب لا يسمح بانصراف القلب أو العين، إلا فيما نَدَر، صالح - صديق بدر الأقرب والمُلَقَّبِ بالنفَّري - كان من الندرة التي احتوتها مساحةُ السِرِّ تلك، هو الضيفِ الأول يُدعى لمشاركتهما لمحة حياة:

جلستْ مريمُ على المصطبة بينما تقدَّم بدر ليفتح، من جلستها بدت كمن يسترق هدنةً للتأمل في القادم، كيف سيتلقاها وتتلقاه؟

تَقَدمَ صالح متردداً، قاومَ الرغبةَ في خلعِ حذائه، وَقَفَ طويلاً يتأمل في تجريدِ الشقة، بلا قواطع ولا حواجز، مسترسلة في الأبسط والأقل فوضى، لكأنها مساحة تتنفَّسُ، لاشيء تصطدم به العين أو الحواس، أربعة

جدران، تَتَصَدَّرُها تلك المصطبة بالوسائد الوثيرة لتتمحور حولها المساحة والترقب، وخلفها تلك اللوحة المائية، وعن يمينٍ ويسارٍ أرفف بالكتب. أمام المصطبة أمتدَّ صراطُ خضرة، بطول الحجرة للباب حيث يقفُ انبسطَ جِلْدُ حيَّةٍ يعرفه، تَتَبَّعَ بدرُ عينَ صالح على جلد الحيّة، هتف،

«مثل هذه الحيّة حَرِيّةٌ بسلب لُبِّكَ، هو جلدٌ آل إليَّ من جدٍّ غاب في رحلة للبرزخ، نقلوا عنه أن هناك مسارب في قلب العابد لحيث ينام الأخيار، في موتتهم الصغرى، قضى دهره يطوف بحثاً عن منفذ يموتُ منه ويرجع بأنباء الأحبة. في رحلةٍ بين الحجر الأسود والحجر اليماني على الكعبة المشرفة عثرتْ عليه تلك الحيّة العظيمة، كان القمر بدراً والمطاف في بيت الله على هدأة، معروفة تلك الليالي بهبوط الوحش للطواف، وحينها دخلت المطاف تلك الحَيّة الطرية، انطوت سبعاً على البيت حتى التقت جَدِّي على الحجر الأسود، دسَّتْ رأسَها إلى جوار رأسه في المحراب من طِيبٍ وقَبَّلا حلمات الحَجَرِ الثلاث، حلمةً حلمة، ما أن طلع رأساهما من الحجر حتى تهاوى جِلْدُها مثل وشاح، خَلَّتْه لجدِّي وغادرت دائرةَ الحرم، خضرةٌ تزحفُ بالحواس في دنيا غير الدنيا، في قيعانٍ لها رنين مِنْ توقِ العباد، وتجتمع للرنين أكوانٌ وأكوان يعكسها جلدُ الحَيّة في قلب الناظر. وفي تمام القمرِ لَبِسَ جدِّي ذاك الجلد وطاف حتى غاب العابد فيه عن الأبصار، وخلاه على أرضِ المطافِ ليؤولَ إليَّ.و لقدْ أهديتُه أولَ لقائنا لمريم، وهاهي بعد عقدٍ من الزمان تُخرجه هنا....» هتف صالح مسلوباً لجريان الحيِّ الأخضر.

بجهدٍ انتزع صالح بصرَه من الخضرة وتلفَّتَ، خلفه ومقابلاً للمصطبةَ أمتدَّ جدارٌ للعرض السينمائي، ليُغطّي كامل المساحة المُحاذية للباب حيث يقف مع مضيفه. لأقصى اليسار حاجزٌ خشبي للوجبات الخفيفة ويحصر وراءه مساحة للطبخ، ولأقصى اليمين مساحة محصورة بزجاج منزلق تُخفي حوضَ الاستحمام العريض، بضربة فرشاةٍ يُمكن للمساحة أن

تَتَحَوَّلَ لجسدٍ مفتوح بحيث تأخذ حماماً مفتوحاً للبهو العريض ذاك. بين الوسائد قامت مريم مثل تمثالٍ صغير في معبدٍ من معابد كاجوراهو، احتوتْه لمعةُ النمر في العينين،

«مريم...» تَنَاوَل كَفَّها الصغيرة بقبضةٍ فولاذية، شدَّ بحيوية وجاوبته ضحكتُها كاختلاج لهبٍ، ثم وحين خَاطَبَتْه بَاغَتَه صوتُها، عذوبة تُصيبُ في مَقْتَلٍ،

«الكثير من القلب في تلك القبضة..» عبارتُها العفوية ملأته بنورانية، أمام تلك المرأة الصغيرة أدركَ أن أمامه مفازة تخرجُ للحياة في تلك الفسحة من قلب، شَعَرَ بقلب صديقه بدر يملأ المكان حول المرأة،

«لم نَرَ فيكَ هذا الملهوف من قبل». بخبثٍ قرأ دخيلتَه،

«ومن بعد».

«في مكان أو زمانٍ لا يعود للكلمات من مَضَادٍّ، تفتحُ قلوبَها للمُرَادِفَاتِ والمضادات لتصير آهة واحدة...» ضحك بدر،

«قبل أن تأتي أردتُ تهيئة مريم بتلخيص مقدمة لتعريفك، لم أعرف ما أقول، قلت لها ستلتقين صالح، المتصوف الراحل وراء قبور المتصوفة ابن عربي وابن الرومي.. المنظم للاحتفالات الخاصة والسرية للموالد النبوية، لكن كل ذلك بدا جافاً وغير حقيقي..» أتجه لمريم بحديثه،

«والآن هذه خلاصة رَجُلنا النفَّري، تتعرفين في هذه الكلمات التي نَطَقَها على المتاهة الساكنة لرأس صالح... هذا ما لم استطع شرحه لكِ، هذا الفيض من اللغة وصمتها، هذه الآخرة والدنيا في كلِّ كلمة يُطلقها...» استجابَ صالح بتلقائية لتلك الشطحة، جاء سؤالُه مُحرِّضاً مُبَاغِتاً،

«وأنتَ بلغتَ آخرتكَ؟».

«ودنياي...» في الموجة بين المرأة والرجل أدرك المتصوفُ الرفيفَ، من طيورٍ تسعى بين الجسدين، تغزل الهالتين في هالة، في النظرة بينهما

استراحةٌ للعين في العين، لا كالعيون التي تَطْمِسُ بالمرور عرضاً، بالمرور سراعاً وبلا مبالاة، لا بالعيون التي حين تجيء من تُحبُّ تفقدُ تَطَرُّفَها في الكشف، هتف صالح،

«أخيراً هأنذا وجهاً لوجه مع طائر السيمرغ الذي أمضى بدر عقداً من الزمان يرحلُ صوبَه...»

«ولم أصلْ بعد، في إدراكه أدركتُ بأنه لا يُدرك إلا بدوام السعي والمكابدة... بلوغه ما هو إلا بداية الوجود بداية الفناء، وبعده لي أن أوجَد كل يومٍ في شأن منه، مني..».

«هذا مما لاشك فيه، لكِ أن تعلمي أنني أكثر من وَاجَه صدمات هذا الوجود أو الوجد، أَذْكُرُ، دَخَلَ عليَّ بدر يوماً قبل عشر سنوات، اقتحم مكتبي مغلقاً الباب، تخيلتُ حربَ خليجٍ أخرى تقوم، المهم وبعين تقدح شرراً قال: لا بد لهذه المرأة أن ترى جِريانها في دمي كم أحبها بكامل ضعفي جبروتي عقلي وجنوني... انفجر بتلك الكلمات وأنا لا أفهم ما يريد، ظننتُه ينوي الإقدام على الفناء عشقاً. وَقَفَ شَعْرُ رأسي حين أخرج تلك الإبرة آمراً أن أغرسها في شريانه، يُريدني قاتله وهو الشهيد. أرادَ أن يستقي دماً للكتابة. يا إلهي بوسعي استرجاع أدق تفاصيل ذاك الرعب، لم يتأوه، دمي تَفَصَّد مع العَرَق على جبيني وكامل جسدي، لم أصدق أن عبثاً كهذا لازِمٌ للعِشْقِ، حتى رأيتُكِ الآن، الآن أعرف ما ينتاب عاشقكِ من نَزَق وخطورة...»

«هيه، أنتَ لن تسترسل في غَزَل مليكتي...قل لي، أجئتَ بالفيلم؟».

«وهل أجرؤ على المثول في هذه الحضرة بلا تذكرة دخول؟» وأبرز الكيسَ البلاستيكي، في الداخل مجموعة أشرطة DVD، ناولها لمريم، راجعتها باهتمام،

«دوماً أردتُ مشاهدة هذه القصة: الساعات! بيني وفيرجينيا وولف ملامح مشتركة». عَاجَلَها،

«آمل ألا تكون الخاتمة...» ضحكتْ،

«ربما لا، لا نتعدى السعي للفنار..» في تقليبها للأشرطة عثرت على ذاك الشريط،

«ابتسامة الموناليزا! أخيراً بوسعنا أن نرى معاً هذا الفيلم». موجهة حديثها لبدر، التقط صالح خيط الحوار مُعَلِّقاً،

«المرأة الأمريكية في السيتينات كانت لا تزال ترى في الزواج غاية الغايات لكل وجود، لكل قراءة، لكل علم أو شهادة، كما المرأة العربية في وقتنا الراهن». بَادَرَتْه مريم مباشرة،

«وتظن ذلك يَتَبدَّل في أي زمانٍ وأي مكان؟».

«ربما لا ...».

تدخل بدر،

«ربما ليس الزواج بحد ذاته وإنما الرفقة القِرَان، امرأة أو رجل، من يستغني عن مشاركة الحياة، نحتاج نِدّاً لاستكشاف لذة الحياة، إقبالها وتراجعاتها». متأملاً ما حوله أمَّنَ صالح على كلامه:

«معك حق، القِرَان ماهو إلا مساحة للوجود المطمئن لممارسة تلك الشراكة/ المغامرة».

«لقد اجتهد الإنسان عبر تاريخه في العثور على معنى الحياة، في القبض على الحياة، بنى حضَّانات للحياة من الشعر والموسيقى والعلوم والتشكيل، كل ذلك انبثق في الحقل المغناطيسي بين حواء وآدم ليُعزز شعوره بالتوق لفردوس مَخْفيّ في صُلب الحياة التي يطلبها، مغناطيس يبعثه بأقصى الضعف من جهة وبالعملقة من جهة أخرى، رأى في تواصله أنثى وذكر بعثاً لقوى جبارة داخله. اكتشافه لذاك الحقل المغناطيسي كان نقطة التحول للأرض، حيث شاء حصره في ملموس، في ملكية، فكان القِرَان بصفته أحد تلك الحضَّانات، التي بوسعها استيعاب كل ذاك الشعر

والموسيقى والتشكيل والعلوم ...».

بمرارة عَلَّقَ صالح:

«ليس كالزواج يخنق ذاك الحقل».

اعترضت مريم: «حين نجعل غايته الشهوة وإشباعها. فما أن تبهت حتى نُصدر حكماً بالإعدام على العلاقة. الشهوة ماهي إلا وسيلة من وسائل شتى تتعادل في حيويتها لبلوغِ غايةٍ أبعد، من النماء الروحي. أنا وبدر أدركنا ذلك هنا، يوماً وراء يوم في تواجدنا معاً كنِدَّين».

«الزواج وسيلة للتكاثر، هي غاية إلهية، لكن ما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون، أي ليبلغونني بنمائهم روحياً».

«ما جذبني في هذا الفيلم هو ذكرياتي عن المحيط الجامعي بأوروبا، لا زلتُ أحيا أجواءَ الثلجِ والأشجارِ العاريةِ في مساحاتٍ من غموضِ المباني العريقةِ وأجواءِ البحثِ البشري عن معرفةٍ مُنقِذَةٍ، أجواءُ الجامعات دوماً تمنحني هذا الشعور بسِرٍّ يختفي ويَتَرَصَّدُني في نهايةِ رواقٍ أو تحت قوسٍ مفتوحٍ على حديقةٍ ذاوية، دوماً اعتقدتُ بأن أساتذتي لم يُشكِّلوا غاية المعرفة التي تلقيناها، قد يبدو ذلك سخيفاً، لكن كان الأساتذة يبدون لي مثل متعهدي الصيد، يمنحوننا حبالاً ومصائد ويرسلوننا في تلك المباني العريقة للجامعة، على أمل يلتقينا المجهول هنا وهناك ونسعى لمواجهته بلا ذعر وتأليفه أو اصطياده، أنا كانت لدي قناعة بأن ليس عليَّ استعمال تلك الحبال والمصائد، استعمالها نقضٌ لفكرة العثور على مجهول، نلتقي المجهول لا لنرجع منه بصيدٍ وإنما لنذهب معه حيثُ يأخذنا، أنتَ لا ترجع بالمعرفة لحيث بدأتَ أبداً، المعرفة تذهب بك وإلا لما كانت معرفة، أليس كذلك...» ابتسم الرجلان بتأييد، لكن أحداً لم يشأ لصوتها أن ينحسر، انطويا على عذوبة ذلك الصوت، أكملت،

«المباني العريقة كان لها فعل السحر، دوماً كنتُ أؤمن بأن علينا تحويل قصر كالحمراء لجامعة، كما زوايا القيروان وفاس والجامع الأموي

بدمشق وقصور ومساجد شارع محمد علي بالقاهرة، والسلطان حسن، وتوب كابي باسطنبول، والمسجد الحرام، حيث في تلك الأروقة والعقود الأثرية يربض المجهول الأقصى والأكثر جموحاً، يربض الشارد منا بالميلاد وعبر العصور، هناك الجو الأمثل للتعلم بلا مُعَلِّم، للذهاب بلا دليل سوى المجهول ذاته... كلُّ ذلك صحا في نفسي وأنا أرقبُ - في ابتسامة الموناليزا - ما أسماه بدر بالحقل المغناطيسي - ليس فقط بين المرأة والرجل - وإنما بين العقل والجسد، جولات الصراع والتسليم للتواصل بالحياة في ذاك الجوي القروسطي».

«بينما تتكلمين، انبعث في رأسي صوتٌ من عهدِ تَوَاجُدي بالسكن الداخلي بجامعة برمنجهام، صريرُ الدَرَجِ الخشبي في جوف الليل وأنا أسعى من حجرتي للحمام المشترك بالدور العلوي، أحاولُ تخفيفَ خطوي وأنا أتخيل آذاناً ترصد مرات صعودي، أجلس في فراغ الحمام الضيق ويأتيني ليلُ الخارج، أكادُ أسمعُ صوتَ العشبِ يتنفسُ في المساحات اللانهائية حول تلك البيوت الحجرية بعمر قرونٍ بأرضياتٍ خشبية، أكاد أسمع تنفس الطيور بين الأشجار المتلصصة على كل نافذة ورواق وباب ومعبر، أسمعُ تنفسَ الرفاق ولهاث الحب بين عاشقين بالحجرة يمين السُلَّم، في جلستي بجوف الليل، ومتبوعاً بصرير قدمي على الدرج، كان بوسعي قَبضُ حفنةٍ لا بأس بها من السِرِّ المُعَاشِ، من الحياة الدائرة حولي وفيَّ...» بحركةٍ مباغتة خَتَمَ بدر ناهضاً سيلَ الذكريات ناهضاً، انتزعهما من جوف الليل والصرير وأغنية العشب والعشق، انتابَ الضيفَ جوعٌ للمزيد مما يجول برأس ذلك الرجل وأنثاه، لكن بدر كان قد انتقل لنقطةٍ أخرى، لمحطةٍ أخرى على الطريق لغايته في ذاك المحراب،

«الساموراي الأخير، هذا ماسنشاهده الليلة؟» تَنَاوَلَه وقامَ لجهاز العرض وانبعثت مريم، اتجهت مريمُ لحاجز المطبخ حيث صينية المقبلات الفضية، تَنَاوَلَتْها، حركةُ مريم في المكان من ماء ينساب، يُعزِّزُ

السَكينةَ وذاك الحس بالرجعة لبيتٍ في ليلٍ عاصفٍ،

«من هذا يجب أن تُعَمَّر خُلوة المتصوف، من تراب هذه المرأة من صمتها...» جلس صالح حيث هو على المصطبة يَتَلَقَّى أرواحَ المكان، كانت مريم كمن يطفو على مخمل من الصمت، هذا الزاحف برأسها مغرقاً رويداً رويداً حاسةَ سمعها، كل خطوةٍ تأخذها في مخمل، جاءت بالصينية، ناولته طبقاً من الصيني الرهيف وسمحت له بالتزود، وَقَفَتْها أمامه مثل عابدٍ يُقَرِّبُ بذاراً من طينه، جاءَ بدر بصينية الشاي وأتخذ مكانه إلى جوارها، لم يتماسا، بينهما مساحة لتلك الموجة تلعب تعلو وتجزر، تفيضُ وتنحسرُ، غرقت الشقةُ في ظلٍّ حميم، في المسافة بين هذه المرأة والرجل تُبعث من موتٍ مُخَتَّم أصغرُ تفاصيل الماضي والحاضر، يصير للصغير والعابر والمنسي كلُّ المَعنى. كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة، نظرةٌ بين الرجل وأنثاه أشاعت دوامةً في المكان،

«هو وقت مغادرة مريم ..».

لم يُفصح أيٌّ منهما عن تلك الحقيقة، لكن صالح أدرك أن مهلته قد انقضت وأن عليه أن يُغادر، قام،

«آمل أن تُكررا الدعوة، أحتاج محراباً كهذا لملاقاة رحالتي».

«بأمل أن يذهبوا بكَ يوماً». لتأرجح الضحكة على طرف شفتيها كثافة، تُثقلهم عن المغادرة.

مودِّعاً على الباب اختلسَ نظرةً أخيرةً للمحرابِ خلفه، أكثر ما يسكن تلك المساحة المُشْرَعَة أشياء صالح الصغيرة والنباتات التي تكاد تلمحها وتسمع حفيفها تزحف في المكان وتتكاثر، تُغريها موجاتُ العشق بالتكاثر والتمطي في الموجودات المترعة بالعاشقين. شَعَرَ صالح بغصة، لا يزيد المكان عن مئة مترٍ مربع وإن بدا مثل مضمار شاسع للتنفس، أخذ نفساً عميقاً، شَعَرَ بنظرة بدر تُتَرَقَّبُ تَتَعَجَّلُ مغادرَته، لملم صالح ذيولَ الغيرة والحنين، وتمم،

«الروحَ توأمٌ من ذكرٍ وأنثى، فإذا التقيا تأهل الكائن للارتقاء». شيء في استراحة العين للعين ملأه حسرة، عينٌ تسترخي في عين عاشقها لتقول مالم تتدرَّب على قوله، وتَمَسُّ مالم تتدرَّب على تَقَصِّيه من خفايا، وترى ما راودها منذ الطفولة للشيخوخة لما وراء الموت...».

ترك صالح سيارته وراءه حيث أوقفها بمواقف المبنى، شَعَرَ بحاجةٍ للبقاء موصولاً بتلك البقعة من وحي، سار على قدميه مسافة، من الأعلى هطلت تلك الأغنية: «قالوا: الشوق يجرح، قلتُ: سيدي ما ترى». فكَّرَ كان يجب إطلاق الرصاص على صوتٍ مذبوح بهذا التوق، بهذه الحرقة للخضوع، كان يجب أن تنتهي مغنيته ذِكرى بستة وثلاثين طلقة.

****

تأمل زايد في صحن الطواف أمامه، بوسعه وضع رأسه على هذا المكتب والغرق في النوم، الكعبة تشمخ بصمتٍ واصلٍ للسماء وترمقه، حولها وجوه متناثرة من كل لون، أمامه بميلٍ شاشة الكمبيوتر، وعليه تسجيل الأرقام وانجاز هذه الإحصائيات المتكدسة من على مكتب مديره، لليسار مكتب المدير يفصلهما حاجزٌ زجاجي، المدير غارق في النوم على كرسيه الوثير لا يسمح لأحد بالدخول عليه مالم يتصل هاتفياً ليفيق، كان في فترة تدريب ومع ذلك لم يُرشِده أحدٌ لما يجب عليه عمله ولا كيف، لم يُفِق أحد لتدريبه بعد، هو أسبوعه الثالث في العمل وما زالت الأوراق تتكدس على مكتبه ويجتهد بقدرات ترس روتيني صغير لفك طلاسمها، يوماً وراء يوم يقرأ وجوه الطائفين أكثر مما يقرأ من تلك الأرقام، وينتظر نهاية الشهر حين يسلمونه الثلاثة آلاف ريال بَدَل ضررِ مواجهةِ هذا الصمت.

سربُ حَمَام طاف قريباً من سقف الكعبة يطوف ويعلو، كلُّ دورةٍ تحمله للأعلى مثَل سلك لولبي، مثل إعصار حتى غاب في السماء، عمال

التنظيف يقطعون طريقه في خروجه، أجساد نحيلة من قصب: سيري لانكي، أندونيسي، حبشي.

«هذا ما في مدير، هذا ما في خبز، ثلاثة شهر ما في راتب...».

«تتأخر الرواتب الآن، لكن لا حقَّ يضيع، هي أيام وتستلمون كلَّ المتأخرات دفعةً واحدة». يُكرِّر تلك الإشاعة، يطوف قليلاً بالصحن ويرجع ليجلس قريباً من خمول العمَّال الذين تسكرهم الظهيرة القارية لبيت الله، يتكئون على الأعمدة في تلك الأروقة اللانهائية بأعينهم للجسد العظيم من سواد مُكَعَّب،

«كيف لا يموتون من الجوع، يأكلون خَشاش الأرض أو ماء زمزم». بين نوبة عملٍ وأخرى يُقَطِّعون يومهم بشرباتٍ مشبعات من بئر زمزم، يطلع الجسد منهم يقطر، وتتفتق أضلعه بالماء المُقَدَّس وينبثق تحت جلده صبرٌ. المزيد من الاحتمال. يغرف زايد من ذاك الصبر يرجع لكومة الأوراق على مكتبه يتأمل في امتداد طواف الطير للسماء،

«أنا في ولد موت، حرمة موت، أبو موت، أنا في يروح سيري لانكا». أضطر أن يوقظ مديره،

«الدجالين، يؤلفون المآسي للانتقال لكفيلٍ جديد...» تعليق الرئيس من غياهب النعاس.

«يكفي ياوليدي مواجهتَكَ للكعبة المشرفة». تُلِحُّ أمه عليه للصمود،

«حتى الآن لا اعرف ما أصنع بالأوراق على مكتبي».

«العمل الكثير يسمح لك بإظهار براعتكَ».

«أية براعة في أمر أجهله؟».

«أطلب الهداية من رب البيت، وإن غمَّ عليك أمر أيقظ رئيسك للسؤال».

«الرفاق في تميعٍ واضح لكأن الرحى واقعٌ على رأسي وحدي، أريد

أن أكف عن هذا القلق».

«ياوليدي، الزملاء الكسالي فرصة لكَ لتبرز، استعن بألله وبزّهم».
يتأمل زايد في العجوز الأقرب بنظرةٍ في العمى ونظرةٍ في ضباب، يشفق أن يُلقي على كاهلها بهذا الإحباط.

يُبَكِّر للحرم، يتجاوز مكتبه ويجعل طريقه للصحن، ينطوي لأستار الكعبة ويخونه الدعاء ينعقد لسانه على رهبة،

«يا الله، معدل تحصيلي صفر الآن، أين أصير؟» ويأتيه الجواب من شيخٍ بلحية ناصعة تملأ حِجَرَه،

«ولكم فيها ماتشتهون».

«اشتهي الآن لقياكَ...» لايعرف لمن يتوجه بذاك النداء.

«التقيهم هكذا غافين وراء مكاتبهم، متكئين في الجوع على الأعمدة، يقطرون بماء زمزم والصبر بلا آخر وأضيِّع وجهَك، لكأن إبليس يتلبس لي فيهم، يهمزني لأخلع كلَّ هذا لاأعرف لأين ...».

ذلك المساء التقى بلال الوسيط الذي دلوه عليه،

«مالها إلا بلال، صانع المعجزات ومحيي الرميم، بوسعه استصدار تصريح بتنقيب البحر لو شئتَ، فقط تدفع الثمن من الحي الزُلال».
إجراءات تصريح زواجه غابت في جوفِ حوتٍ ولم تطلع، مما أضطره لهذا المخرج (بلال) الأنيق مثل قلم باركر، بنظارته الشمسية لا تهبط عن قُبَّةِ رأسه،

«أرى بها لما فوق وفوق، وفوق كل ذي فوق فوق، برأسي خرائط محفورة للسماء ومداراتها، لا صاروخ عندي يُخطيء مداره، لا قاذفة يطيش سهمها، أرمي وأُصيب وأقتسم الصيد مع أولاد الحلال، إدفعْ تَسْلُك المسَالِك للممالك، حيث لا حابس ولا داعس ولا شيء في الأرض يابس خضرة وحشيش من هنا لشنقيط...» ما إن ظهر حتى انكسفت

خضرة المقهى من السلسلة الأخطبوطية الشهيرة ستاربَك، وتكاثرت عليه العيون ولم يعتن بطردها بعيداً، انزلق في مقعده ليتمتع برشاشها لآخر عصب بجسده، هتفَ بصوتٍ رخيم يقطر عسلاً،

«مائة وخمسون ألف ريال ويكون التصريح على مكتبكَ بنهاية الأسبوع». وحولهما غرق مقهى ستاربَك في بساطته وازدحامه، سيلٌ لا ينقطع من الفتيات والشبان يقدمون طلباتهم، وينتظرون على البار القريب لتناول قهوتهم،

«موكا».

«شورت أور تول؟».

«شورت..» تكررت تلك العبارة (شورت، تول، كاراميل، قهوة مثلجة، كابوتشينو...) بلانهاية،

«لكنني لا أملك حتى الخمسين ألفاً...» ما إن نطق زايد بالعبارة حتى شعر بقصر قامته بحجم كوب القهوة الطافح برغوة.

«هذا يرجع لكَ، الخمسون تسمحُ باستصدارِ تصريحِ عمل، حلٌ وَسَط بين الجنة والنار، بوسعي استقدام صديقتكَ...».

«ليست صديقتي، لقد تزوجنا في مكتب للبـ...» قَاطَعَه،

«هذا خارج موضوعنا، لا يهم، قانون الخمسين نجمة يمشي بركن العلم وثلاثة أرباع العَلَم على الساكت، اللي يمشي فوق ما يمشي تحت، بوسعي استقدام زوجتكَ للعمل في أيِ مكان، ممرضة بمستشفى، معلمة بمدارس أو كليات خاصة وفقاً لتخصصها... تؤويها لبيتكَ ويأخذ التصريحُ مجراه بسرعة النملة أو يُدفن في الطريق فلايطلع، المهم، حين يصدر التصريح تكون قد أسكنتها التبات والنبات، أو ربما أسعفتْكَ الأمريكية بمائة وخمسين ألفاً ورجعتم فاستفدتم وأفدتمونا» .

«حتى الخمسين لا أملكها».

«ففيم إضاعتكَ لوقتي؟!!».

«صدقني، أحاول تجميع ما يمكن تجميعه...» فكَّرَ زايد في الستة آلاف المحشورة بجيب سترته الرياضية، تلك التي وَفَّرَها من عملٍ شهرين في الوظيفة المهزلة (حضانة المديرين) فكَّر في هزال وحرمانية كل ريال منها،

«حرام ويذهب في حرام...» قطرةٌ من بحرٍ عليه تجميعه وصبّه بميزابِ هذا الرجل الأنيق والذي لم يُمهله ليُفكِّر، بحسم:

«تَمِّمْ ومعك هاتفي، وأنا تحت أمركَ، وبعد أمرك الله المستعان». ترك كوبه الطويل يطفح بالرغوة لم يُمَسُّ وغادر تتبعه النظرات، كل النظرات غادرت مع ذلك الرجل ولم يبقَ حول زايد إلا الفراغ.

في الأسبوع الذي تلى جرفت زايد دوامةُ التسول، استنفار العائلة أخرج ألفاً هنا وألفاً هناك وحسًّاً عميقاً بالذنب بصدر زايد،

«هذه عُقْدَة كفني، جمعتُها فلا أُكلفكم مصاريف تكفيني ودفني ..». وفي عتم عينيها تحسَّستها بأصبعها المئة وراء المئة حتى تمام العشرة آلاف ريال، عَدَّتها أمه وتركتها بين يديه ألفاً يُحرِّض ألفاً ويكوي في البقعة حيث استوت بجيب صدره،

«هذه عشرة آلاف جمعتُها على مدار السنين مذ سكن الماء الأزرق بصري، ولإجراء عملية زرع قرنية، الآن لاحاجة لنا بها، أخوك الأصغر متعب، وقد تخرج في سلاح البحرية، يخولني العلاج بمستشفى القوات المسلحة». قالها أبوه بفخر من جهة وبحسرة من جهةٍ على الإبن الذي يجيء مثل نخلة منقعرة في حقل نخلٍ خصيب، وبقي على زايد نصف المشوار.

السيارة التي قدَّمها له أخوه الأكبر للتنقل عَرَضَها للبيع، صار يتجول بتلك الورقة الهزيلة على الزجاج الخلفي، ومنعكسة في المرآة الأمامية

تنخسه، حتى جاءته بذاك المشرف الباكستاني، يقطر بماء زمزم دخل مكتبه ذاك الصباح،

«هذا في إعلان واحد سيارة أنتَ في بِيع؟» لم يُجبه، ما الذي يمكن أن يفعله عامل بسيط كهذا بسيارةٍ بلوى، كل مشوار لها عثرة ورقدة،

«هذا في كام؟».

«أنتَ في كام يدفع؟» لم يُطق مساومة الرجل على سلعةٍ خراب،

«عشرة ألف؟».

«على بركة الله. خذ هذه المفاتيح». لم يُصدِّق العامل صعود نجمه المباغت، وقف حائراً لا يجرؤ فيفرح، شعر زايد بمرارة تتجمع في حلقه،

«أنتظر، هذا سيارة ماكينة مافي كويس، في خراب كل يوم، أنتَ في يشتري ولا روح».

«أنا في ميكانيكي هذا في خربان أنا في صَلِّح، مافي مشكلة...» ألجمه عجزٌ، أكمل الرجلُ بحماسة،

«هذا في نقل ملكية إذا في كفيل وافق». لائمته ظروف ذاك الشاري حيث من العبث نقل ملكية سلعةٍ لم تُسجَّلْ بإسمه، وحتى تأتي موافقةُ الكفيل سيجدُ طريقةً لحمل شقيقه على اتمام المبايعة.

في نهاية الأسبوع كان قد مرَّ بمعجزات، مرَّ بأخوته وشقيقاته وابناء عمومته، حتى أتم المطلوب ليطير في لمحةٍ ويختفي في حقيبة ذلك الوسيط. وفي الأسابيع التي تلت استغرقته دوامة أخرى، من اللهاث وراء الوسيط،

«تعرف، مع ظروف الإرهاب هناك قرار بمنع سفر الأميركيين للمملكة».

«المنع يشمل الدبلوماسيين، بينما الحرية الفردية محفوظة».

«لا خلاف على هذا، كما أنني اعتمد لديهم على العقد المكتوب

بينكما، عليكَ تزويدي بصورة».

«رجاءً، مثل هذا العقد قد يُعَقِّدْ فُرَصي في الحصول على التصريح هنا».

«لا تخف، ثم بشأن تصريح الزواج، افتح مخك وأنقش بالاسمنت والحديد المسلَّح: ما دمتَ لم تتجاوز الثلاثين فلا تُقب إبرة لكَ إلا من خلالي، أشطب هذا الأمل من قائمتك، المنع صريح، بلال وإلا فعلى تَبَاتكَ ونباتكَ السلام».

و مضت الأيام بين لا ونعم، بين نغمة (مشغول) أو (لا يمكن الاتصال به الآن، نرجو معاودة الاتصال مرة أخرى) معزوفةُ هاتف الوسيط.

****

تلك الليلة غصَّت دارهما في ميامي بالمحتفلين، كان فهد قد ربح بطولة المنتجعات في الساحل الغربي الأميركي، الموسيقى تداخلت بروائح البهار الشرقي ببخور العود بالسجادة الفاخرة بعرض جدار الجلسة، لو أغمضت طفول عينها لخُيِّل إليها أنها في نجد، في سهرةٍ بين كثبان الثمامة.

«سيبدأ البث بعد قليل...» حَذَّرَهم إدوارد، وتركزت العيون على شاشة التليفزيون، كانوا يبثون مباراة كمال الأجسام، في نصف دائرة تحّلق الجميع وبصبرٍ راقبوا الإعدادات وراء الكواليس، عمليات الوزن، والتأهيل، عاشت طفول هذا المشهد للمرة الثانية، تعرف أنه وفيما يجيء من أيام ستعيشه المرة تلو المرة مثل اسطوانة مشروخة:

«كيلو واحد وكنتُ سأتورط، سأُضم للوزن الثقيل، حيث فرصتي في الفوز معدومة». مضى يحكي أدق التفاصيل،

«تقريباً صُمتُ اليومين السابقين للمباراة، اليوم توقفتُ نهائياً عن شرب قطرة ماء...».

حين بدأ توارد المتسابقين على المنصة اندلعَ ذلك الصوت العربي :

«أُنفخْ يا حبيبي، اووهه يافهد، أنفخْ، أنفخْ ياحبيبي أنفخْ واكتسحهم...» تسمَّرَتْ طفولُ في نصف انحناءة لتناول منفضة السجائر أمام سايمون وألبرت، لم تُصدِّق ذلك الصوت مثل منفاخ لم يكف يؤجِّج،

«أنفخْ ياحبيبي...» صمتٌ وَقَعَ على حجرة الجلوس ليتمدد الصوت الذي يُشبهها، لم تصدِّق طفول أن الطالع من جهاز التليفزيون هو صوتها، ببطء استدارت للشاشة العريضة، في لقطةٍ بدت مثل علقةٍ تتقافز غير منتبهة لوقفتها إلى جوار عدسات المصورين، مستشهدةٍ وبلغتها العربية تجأر، بسخرية هتفت :

«ليوم الدين أدعو الله ألا يفك الأمريكان الحرف العربي لتبقى هذه الحماسة لغزاً...» كلماتها العربية المبهمة فجَّرت الضحكات، تحركت بين الرفاق بخفة بينما حَجَرٌ يغوصُ ويغوص لأطراف أصابعها بخجلٍ بذهول، بقي في العيون ظِلٌّ لايصفو حولها من حرجٍ وتعاطفٍ وفهم ومحاولات مسح.

حين لحقها فهد للمطبخ، جاءت كلماتُه مثل سوطٍ صغير يقرص :

«لا تمرُّ لحظةُ نصرٍ إلا ويُعكرِّها صوتُ حركةٌ نظرةٌ منكِ، لو كنتُ مكانكِ لتمنيت أن تَنْشَقَّ الأرض وتبتلعني...» شيء في تحملها للوقفة أمام الرفاق أجَّج غضبَه، ودفعته بخفة، ومضت تُقلِّبُ كبسةَ الأرز بالطماطم واللحم،

«بَرَاقِش يالطيف، حماسة بإرهاب، وفي كلِّ مكبرات الصوت، مثل جَفْرَةٍ في نِفاس..» حينها لمحت ظِلَّ إدوارد على الباب، شعرت بالعين تمسحها بتعاطف، تُطيِّبُ قلبها، لمحة وتلاشى الظِلُّ. حين غادرها فهد أمام قدر الكبسة الفوَّاح تعجَّبَت طفول. حدثت كَمَانَنَّنا الذي كان حاضراً لالتقاط اضطرابها :

«والله يا كَمَانَنَّنا لولا الحيا رميت ثيابي وهَجَّيت، براءة من صوت براقش الذي يشبهني وينفخ، براءة من نفسي، أتُصدِّق هذه الحماسة؟ أيمكن لصوت امرأة أن يكون بمثل ذاك الاستشهاد، الاستماتة لصنع بطل؟ نحن البدو هكذا، عيدنا سباق الهجن، لا تأخذونا على أمريكا نطلع لكم بِجَعْر/ نجأر في التليفزيونات.» لسان كَمَانَنَّنا على كاحلها جاء رطباً مطمئناً، فتحَ باباً موصداً بقلبها،

«لا تكن حنوناً هكذا، لو بدأتُ بالبكاء فلن أكف...» قلبت محتويات القدر في الطبق العريض وفاح بخارٌ حراق، غادرت وبقي كَمَانَنَّنا يلعق بقايا ظلِّها.

حَلَقَةُ حماستهم حول كبستها الفواحة ردَّتْ شيئاً من إنسانيتها، تسيل أنوفهم وأعينهم بحوارق بهاراتها بينما حفنة الأرز في طبقها تتجلَّد، أمامها على شاشة التليفزيون كانت ملايينُ البطاريق تمخرُ مياهَ المحيطات المصكوكة كختمِ موتٍ على القطب الجنوبي، جبالُ الموج والريح تبلغ السماء وتلك الأجساد الزلقة تتناثر في التيار الصاعد والهابط بلا حيلة، دَمَعَتْ عينُ طفول ترقبُ الأجسادَ المدبَّبة بلا أيدي، على البطريق أن يتعلق لاستراحةٍ بجبال الثلج التي تقطع طريقه في المحيط اللانهائي، أن يستريح ليواصل الرحلة، لماذا؟

«لليابسة الثلجية، ليُتم دورةَ تكاثره على أرضٍ». وجبال الموج تجرفه ويذهب في العمق ويطلع ينتظرُ الموجةَ الملائمةَ لحمله لأعلى الصخر، كتمت طفول شهقة، كلما بَلَغَ بطريقٌ رأسَ الصخرة جاءت موجةٌ وجَرَّتْه للماء الهائج، بلا أيدي، وبالقدمين الصغيرتين فقط عليه أن يتوازن واقفاً على جريانٍ منحدرٍ جليدي، أن ينتظر متشبثاً بتلك القدم حتى ينحسر الموج العظيم ليواصل الصعود، طاقةٌ كونية هادرة تنفذ من تلك الأجساد الصقيلة ولا الريح ولا الموج يُهادن، قاومت طفول الحزن، أسعفتْها عبارةُ أمها الانتحارية المفضلة (ما مات ناقص عمر):

في مراقبة أجساد البطاريق شعرت طفول بانتماء، لجسدها ذات الزلاقة وبمنقار، لجسدها القدرة على الإنقذاف في جسد الآخر على الحياة في تلك القذفة، على الموت حين يُسْلَبُها، وهذا ما يربطها بفهد، هذا الانبعاث من مائه ليابسته وإن غطّتها الثلوج القارسة في مواسم، عدا ذلك فالرحلة في المحيط والموت المحدق بكل نَفَسٍ والريح التي تجلد لا شيء منها يهم، كلها أقرب للمحفزات للجسد ليلتهم المسافات والموانع والتهميش:

«أي شيء إلا أن يرجع هذا البطريق للنسيان». قاطَعَها صوتُه:

«طفول، لنذيقهم الأتشار الذي عثرنا عليه في البقالة الباكستانية صُدفة». ثم موجهاً حديثه للرفاق،

«حرَّاق تأكله وتقول: أتشا..» بين ضحكاتهم قامت، وحين رجعت بطبق الأتشار كان شتاءُ القطب الجنوبي القارس يذرو بعواصفه القارةَ العصية على الحياة، لا حياة تصمد في قارس القطب الجنوبي إلا البطريق،

«يا الله..» أفلتت الشهقة رغماً عنها ولمَّت لها العيون الدامعة بالبهار. كانت ملايين البطاريق تتجمع وتتلاصق واقفة مثل شيوخ الحَرَمَ في أوشحةٍ عظيمة، في دائرة صلاةٍ مهيبة متوجهة للاقِبلة إلا دواخلها المعقودة على الصمود حتى نهاية الشتاء، كتلة أجساد بظهورها للمُشاهِد، واقفة في استحضارِ روحي عظيم لدفءٍ يقف بوجه الهبوب الذي لا يرحم، تلتهمُ أسرابَ ملياراتِ الربيان، تلتحم وتتنادى بصوتها الحنون، ويفقس بيضها ليرجع في موجةٍ أبديةٍ لخاتمةِ بَيَاتها العظيم.

ليلتها، وحين انتهت وحيدة تُصلّي في الفسحة الضيقة أمام المدخل، وعلى سجادة من حمرة غروب نجد، عاودها التوقُ لطرحِ ثيابها والانفلات للخارج، خارج كل المحيطات القارسة وكتل الجليد التي لا تمد للبطريق يداً لترفعه من التيار، انحسرت موجة الخشوع وخَلَّتْها للشاطىء الوعر، فجأة صارت واعية بتفاصيل الفسحة الضيقة مثل قفاز حول سجادتها،

حولها وعلى أرفف واصلة للسقف كانت أحذية فهد، من كلّ صنفٍ ولونٍ، أحذيةٌ رياضيةٌ، أحذيةٌ نهاريةٌ تتصنَّع التقشف على غرور، أحذيةٌ للتسلق مع عدم وجود جبال، أحذيةٌ بحرية، أحذية المناسبات على أرفف بطول الجدار الشرقي لحجرة نومها، جيوشُ أحذيةٍ وفي زحفٍ عظيم على المكان، على المحتويات على الأنفاس. تكوَّرت على سجادتها بانتظار حذاءِ تَسَلّقٍ عملاقٍ يطأ عمودَها الفقري ويقصمه، حبستْ أنفاسَها بانتظارِ وحولها تضخَّمَ الزحفُ.

«أُنفخْ». رغم استخفاف طفول بذاك الصوت الفاضح لدخيلتها، المُلَخِّص لسيرتها في عامِ القِرَانِ، لم تنم، تكوَّرت قنفذاً بأمل أن تتلقى الحذاءَ بمطاطِ عضلاتها، طوت رأسَها لفخذيها، عضلة الفخذ الأكثر مرونة واحتمالاً، طوت صدرها لتلك الفَرْجَة بين عمودين، تشاغلت بتلك الصورة لجسد يرجع لمجراه بين الفخذين بينما الصوت يحوطها ويتحدى رغبتها في الحياد، يتحدى تفاديها لقراءة مابين السطور وجريان القمل الشاحب على وسادتها وفي سوادها، ما وراء الروائح والاعترافات المقموعة لبلاط الحريم حولها:

«صوتٌ تافه، لو سمحتُ له بالتنفس فسيقصم ظهري النحيل»

شَقَّ رنينُ الهاتفِ الصمتَ الملغم حولها،

«أمي، هل هو عيد؟» إذ لا تتصل أمها إلا في عيد، وبدا القلق واضحاً في الصوتين،

«زايد حبيبي، بوساطة أخوكِ سلطان وجدوا له عملاً في شركة بن لادن لصيانة الحرم المكي». مكالمة أمها جاءت مثل بلسم، فخرٌ عميق يُبطِّنُ الصوتَ، أكملت،

«الأجر لا يهم، أَبرَكُ خاتمة بإذن الله، يخدم في الحرم، يقابل الكعبة المشرفة». تمددت الطمأنينةُ بصوت الأم،

«بَرَكَةُ هدايته لريبيكا النصرانية». صدم طفولَ وصفُ ريبيكا بتلك

العبارة،

«ريبيكا أعلمتني قبل أن تُغادر، أرجوك لا يجب أن يعلم زايد بمغادرتها لضيافتنا، كان قد تركها عندي، وقبل أيام لم تُطق البقاء، قالت لا تريد استغلالي أكثر، هي لم تعتد أن تتسلطن ويسعى الخلق بين يديها، رفضت ارهاقنا وغادرت».

«لكن زايد على اتصال بها، تعلمين يدبرون لاستقدامها تعمل هنا».

«أعرف، ولست واثقة من صواب هذا الحل».

«هو الحل الوحيد، يقول عَقَدَ عليها، هي حلاله..».

تلك الطمأنينة تلاشت في المكالمة اللاحقة بعد تمام الشهر:

«أخوكِ زايد، أهو عندكم؟ لا نعثر له على أثر، لا أعرف ما أغضبه، هَجَرَ عمله لانعرف علامَ واختفى». شيء في صدر طفول تَقَلَّص،

«ربما، فكر الاعتراف يَتَلَبَّس تلك المرأة». لكنها لم تُفصح عما لايمكن الافصاح عنه،

«أوقع بينهما خلاف؟».

«عَبْرَ البحار؟!! والله ما دريت يا بنيتي، هي عندكِ أسأليها».

«لا أظن...و المرأة حامل...».

«ياعيباه، ولدنا يولد في الغربة ولأي نسب؟» بعد صمتٍ أضافت الأم،

«برأيكِ، من يمكن أن يُقرضني للتعجيل بالتصريح».

«أرجوكِ يا امي لا تُحَمِّلي نفسَكِ فوق طاقتها وتفضحيننا، هي اضاعة للمال والوقت».

«المال ولا ضياع النسب، فلذات كبودنا يكبرون بين النصارى». غرقت طفول في الأريكة تحسست قماشَها برهبة، بذعرٍ، روائح دخيلة تجتمع على سماكة جلد الأريكة باحتماله المبالغ فيه، بوسعها تتبع كلً

رائحة لصاحبها لكنها تخاف، أن تسلك رائحةً فتقودها لخرابٍ،

«استشيري أُخوتي، اتفقوا على قرار، إياكِ والاندفاع والتورط...».

«زايد هذا ومذ وَلِد جمرةً بصدري، والآن يحرقني ويغيب، إن اتصل بكِ قولي له إنه يحرق قلبي، ورضاي عليه لا يرمح ويرميني». حاولت طفول طمأنتها،

«ربما يبحث عن عمل، سيعاود الظهور ما دامت ريبيكا هنا وفي الطريق ولد، ريبيكا هي القشة التي تَعَلَّق بها في كلِّ ما مر».

«فِصْ ومِلْح وذَابَ، أخ يا وليدي، وكأنكَ يا زايد لم تكن! وهذا الوسيط زادنا من الشوق سطراً، يقول القوانين تتغير وتُبدِّل جلودها بين يوم وليلة بين عشية وضُحاها ابتلع الخمسين ألفاً لم يُسَمِّ، وهاهو يُجرجرنا وراءه يغوص ويطلع ولا نعرف الصادق من الكاذب، والله ييسر».

****

ما أن توقفت الحافلة حتى اجتاحت الشاطىء موجةٌ من آثار أقدام صغيرةٍ تتخللها آثار الكبار، تَقَرَّرَ أن تكون الرحلة في البقعة الأقرب من البحر حتى لا تُشكِّل مجازفة كبيرة، لذا كان ميدان النورس هو الأمثل. رفيقاتُها المعلمات يتوزعن بين الصغار، المربياتُ يُحومن بابتسامتهن المشجعة، كلُّ مربيةٍ تعرف مهامها، تتدخل حين يحتاج الأمرُ لتبديلِ ثيابِ الصغار، أو حين يحين موعد إطعامهم.

الصغار يجلسون على الرمل، أطرافُهم مغطاة بالرمل الرطب، تشعر بهم مريم مثل أفراس النهر الكسولة تتمرغ في الطين والبلل. طيورُ النورس جاءت وأحضرت معها طيوراً ونسور غريبة بأعناق طويلة ورفيعة بالغة الدقة.

أحدُ الطيور يقف على الشاطيء، بجرأة أو بفضول قريباً من مجموعة من الصغار، يُعطي ظهرَه لنورة ونواف وفيصل ويرقب البحر، تعرف مريم

أنه يرقبهم بكامل جسده، يلتقط أدق حركاتهم. تلفت مريمُ نَظَرَ الصغار،

«انظروا الطائر، كيف سنتحرك لو أن لنا عنقاً طويلة ورفيعة هكذا؟» يُلقي الصغارُ على الطائر نظرة غائمة.

«فيصل أترى عنقه؟» فيصل يقف متأهباً، يمد عنقه الرفيعة ورأسه الصغير الحليق والمُطَيّبِ بِدُهنِ العُودِ،

«أيه... أنا رايح أذبحه...» ويركضُ بخطواته المهزوزة، بكل الثقة التي تسمح بها قدماه الصغيرتان. يفرُّ الطائرُ مُحَلِّقاً، احتجاجاً على هؤلاء المتوحشين الذين غزوا شاطئه فجأة.

نهال تأخذ بيد مريم، طفلة دمية ببشرتها البيضاء الجميلة تلمع بالشمس والعرق، وذاك الشعر المقصوص بخصلات حادة وكثيفة من سبائك صقيلة، وجنتاها متوردتان دوماً،

«تعالي، ادفعيني...» مشيرة للأرجوحة.

متأرجحةٍ بين سماء وأرض فارق نهال خجلها، صاحت بحماسة،

«من هنا الشمس بيضاء؟».

«تأكدي من أعطاها الأبيض؟» وهتفت نهال،

«لأنها.... لأنها صحت من نومها الآن، عالياً في السماء...».

«ومتى يصير لونها احمر؟».

«في الآخر، في العصر، عندما تشرب عصيرها وتلبس بيجامتها الحمراء... مثل بيجامتي..».

«وفي الليل تنام بلون أحمر؟».

«لا، تغمض عينها وتصير سوداء... سوداء سوداء لا أراكِ فيها!».

«وكيف أعرفكِ والشمس سوداء؟».

«تمسكينني وأضحك... الشمس أيضاً تضحك وتصير بلون أبيض..».

«تقصدين القمر؟ القمر ضحكةُ الشمسِ في الليل؟!».

«نعم، القمر ضحكة...».

«وتضحك الشمس ضحكة واحدة فقط؟؟؟».

«لأنه ظلام، ظلام كثير، ماما لا تتركني أخرج للحديقة...».

«لا أظنها ضحكة واحدة يا نهال، من بيتنا أنا رأيتُ أكثر من ضحكة...».

«نحن عندنا في بيتنا نجمة...».

«أين؟ في حجرتكِ؟».

«لا على كتف أبي...».

«كم هو جميل أن يكون أبوكِ ضابطاً في الحرس الوطني ويُدْخِل لبيتكم نجمة».

«عالي عالي...» صارت نهال تحثُّ معلمتها على دفعها أعلى. فكَّرت مريم أن الشمس أيضاً تضحك وتتركُ قمراً على وجه نهال، هذه التي مثل العصفور في السماء،

«نهال أنتَ تطيرين...»

«أنا أطير، أنا أعلى من الأرض» وتُحَرِّكُ رجليها في الهواء بنشوة،

«قولي لي أنتَ أعلى أم الطيور؟» ترسلُ منالُ عينيها وراء الطيور في السماء.

«الطيور...».

«أتحبين الوصول إليها؟».

«أبي...».

«أنا أراك عالية جداً، أعلى من الأرض وأعلى من خالة أسماء...».

«أعلى من الأتوبيس، وأعلى من السيارة، وأعلى من البحر... وأعلى من عمي الصياد، ومن سيارة جمع الزبالة...».

«قولي لي، ماذا ترين في السماء؟».

«طيور، وبالونات...» تُدهش مريم،

«أين البالونات؟» وتشير نهال للسحب.

تَوَجَّهَتْ باهتمامها لبقيَّةِ الصغار يفترشون الشمسَ والرملَ البحري، للأجساد رائحةٌ تُشرقُ منعشة، الهواءُ القادم من الماء يُجاهد لاستمالةِ الشمسِ، شيءٌ في جسدها يستجيبُ للرمل. يتحوَّلُ لذَرَّاتٍ تَسْقطُ عن قلبها المُثقل من حياة الخارج،

«للخارجِ حياةٌ وهنا حياةٌ أخرى، الصغارُ هم الكوكبُ الآخر، الحضارة المتقدمة التي طالما فَتَّشَ عنها الإنسانُ على كواكب أخرى...».

نَظَرَتْ حولها في الرؤوس المُنْكَبَّة على الرمل، في خصلات القصب والليل والشقرة المتدلية على مَهَامها الصعبة والممتعة،

«لا يُقْدِم الأطفالُ إلا على متعة، ولا تَحْولُ بينهم والمتعة مَشَقَّةٌ أو تعب أو كلل». الكلُّ يستعمل المَجَارف والقوالب ويجلسون بحرية وتآلف مع الرمل مدموغاً بأطرافهم.

مفتونة مريم بذاك المسرح الصغير وشخوصه الطفولية، لكنها وبمجرد مغادرتها لمحيط الصغار ولمبنى الروضة لا يعود للحبكات المماثلة نفس القبول، تفقد مريم مرونتَها في تَقَبُّلِ عملقة النقائص، حين نملكُ نقيصةً يجب أن نَحْرَصَ فلانغادرَ دنيا الأطفال، نستقي براءتهم، أن نسعى للرجعة بكلِّ نقيصةٍ لدنيا الأقزام لا حَشْد المَدَد لها من دنيا العمالقة.

****

«أوضاعنا هنا تتدهور، صديق ذو نفوذ دعاني لزيارته في بيروت، هناك يحتاج إشرافي على تدريبه، وهذه فرصتنا لبدء حياة حقيقية». بهذه العبارة بدأت الاستعدادات لشحن طفول للرياض. تمَّ كلُّ شيء بسلام ولا قِشَّة تَعَكَّرَت في ذلك البيت، لكأنما خارطة تتشكَّل برأس فهد وتقوده لحيث لاتعرف، كلُّ خطوط الخارطة تتجه لاستقلالٍ، كلُّ نظرةٍ يلقيها فهد

لامرأة تُسجل وتقارن وتضع القياسات المطلوبة لسد الثغرة التي تتركها طفول برحيلها في بيته وجسده، حتى دنا يوم رحيلها وبدأت الشروخ تظهر على جلد فهد، في خَدَرِها فكَّرت طفول،

«مثل بطن الحامل تكبرُ ويتشقق جلدها لاستيعاب التمدد».

ليلة رحيلها لم يهدأ، ليث في قفص، كلما أغمضت لتنام تَسَلَّل، مثل ماء ينسرب لكافة مسامها، حتى صار جلدها يتفصد به، تجده هنا وهنا أينما وضعت يدها أو مالت بعُنقها أو انطوت أو انفتحت، في الغائب والحاضر منها، جريان منه إليها ويجرفها فيه، لم تشأ أن تُفيق أو تتحصَّن تتزود آخر زادها، حين غفت تَمَّمت عليه غارقاً لا يطلع، ملمومة على قيامته كختم لكيلا يُفارق، ليس الليلة، ليس على حافة الجرف الفاغر فيها، في منطَقة من نومها المضطرب خُيِّل إليها أن أنفاسه سكتت، أفاقت مذعورة لتجده في شهقةٍ لا يطلع،

«لا أستطيع ترككِ تذهبين». صوتُ تهشم انبعث من قوسٍ على الحجاب الحاجز، صوت صرير فولاذ يسحق فولاذاً، سحق عظيم يتمُّ في امتشاق المرأة.

«حين تصادف بئراً في صحراء تشرب النوق حتى تتفتق أضلاعها استعداداً للرحيل في ظمأ». يدع لجفنها أن يغمض ليوقظها من جديد،

«لن تذهبي لأي مكان، أقتلك بيدي هاتين لو جرؤت وخطوت خطوةً خارج هذا الفراش». وبانبساط كفيه العظيمتين، بانبساط العضلات المسبوكة ينغلق على عنقها يضغط حتى تغيب أنفاسها،

«أُزهِقُ أنفاسَكِ وأضمن ألا تغادريني...» تغفو أو تسقط في غشية وحين تُوقظها تلك الحرقة تُفيق، لأنفاسه سَحْقٌ وتبديدٌ ومَخْرٌ،

«لن تغدريني، أقتلكِ واستريح، نار في صدري، في جذعي». ويفيض عَرَق يُلهِبُ أكثر مما يُطفيء. حين أوشكَ انفصالُ الخيط الأبيض عن الخيط الأسود قامت طفول رطبة تغتسل لتتهيأ لصلاة الفجر وتنوي

الصيام، كرهتْ استقبالَ أول أيام رمضان مفطرة. النظرة في عين كَمَانَنَّنا ذَبَحَتْها، في ذاك العتم الشاسع قرأتْ طالَعَاً لا تُريد مواجهته الآن، كان عليها ترك الكَمَانَنَّنا بوعد أن يستوفي فهدُ الإجراءات المعقدة والأوراق اللازمة ليرافقه في الرجعة إليها.

في الصباح رجعت الشقوقُ المثلجة على جلد فهد، تجاهلت الشاسع في عين الكَمَانَنَّنا وتبعت فهد الذي قادها صامتاً للمطار، وهناك بدأ يتململ، غاب ورجع بتذكرتين،

«أرافقكِ لنيويورك، قد تخطئين رحلتكِ..» بدا في حاجةٍ للاعتذار عن حاجته لملازمتها خطوةً أبعد.

في الطائرة لنيويورك تكاثفتْ طبقةُ الشقوق على جلده، منهكاً من عصف البارحة انتقل للمقاعد الثلاث الشاغرة وغطَّ في النوم، يُفيق فقط لتناول الوجبة بعد الأخرى والكأس تلو الأخرى ويعود لغيبته.

في طريقها راجعة من الحمَّام بمؤخر الطائرة وقع بصر طفولُ على فهد، راقداً بعرض ثلاثة مقاعد، والممرُ يفصلُ مقعدَها عنه، وما حول أزواجٌ تغفو طيورُها على أكتاف الأخرى، عيونٌ تتلاقى وتتبارز أو تتقاتل، أزواجٌ تتقابل وتلتحم أو تختصم في علنٍ في عفويةٍ، وجوهٌ تنهمك في كتابٍ أو لعبة، زوجٌ بملامح عربية كان يُصلي، آخر اعتذر عن الشراب والوجبة كان صائماً، مشاهد حياةٍ على توقيعات شخير فهد الخفيف المهدهد.

في وقفتها تسمَّرت طفول، على ارتفاع 40000 قدم عن الأرض في الممر الضيق ذاك تأملتْ في فهد، للمحةٍ لا تعرف ما انتابها، شريطٌ من عامها معه، تركز الشريط على قملة، لم تفهم ما عَنَتْه تلك القملة، لكن جلاءً عجيباً تَمَدَّدَ بجوفها، جلاءٌ مخيف لم تجرؤ معه على فتح حادثة القملة والتملي فيها، دَفَعَتْها لمكانٍ عميق برأسها، أيقظتها يد المضيفة على كتفها تعتذر للمرور، بسكينةٍ انسلتْ لمقعدها ورفعت يدها بالدعاء:

«يا الله إن عَلِمتَ في هذا الرجل خيراً لي وإلا فانتزعه من قلبي وحياتي، مثل شعرة من عجينة!» لا تعرف من أين انبثق ذاك الدعاء، قملة صغيرة غبراء ظلَّتْ تروحُ وتجيءُ في رأسها ولاتسمح لها أن تُفصح.

«قملة؟» تكّررت الكلمة حين كان يودعها في نيويورك ويبكي،

«لا أطيق فراقكِ ...».

«ولا أنا».

«أرجوكِ تمسكي بي، حين أدفعكِ بعيداً لا تُصدِّقي، اعلمي أنني لم أعشق امرأة مثلكِ، لم تتآكلني كالنار امرأة مثلكِ، أرجوكِ لننس ماقررناه، أرجعي معي لميامي ننهي متعلقاتنا ونرجع للمملكة معاً ...».

«فات الوقت لذلك». كلما تَمَنَّعت أجَّجتْ رغبتَه، ليس أحب على طفول من إتيان اللامُتَوَقَّع والمباغت، أن تُلقي بأوراق التذكرة للهواء وترقبها تطير بين الأقدام العَجلَى، أن تجلس في هذه الطائرة الصغيرة وترقب بينما الطائرة المتوجِّهة للرياض تُقلع، تجلس حتى يجيء عمَّالُ التنظيف ويُرغمونها على المغادرة، كلُّ تلك المفاجآت تُحرِّضها تؤججها، لكنها تعرف إن قالت لا قال نعم، أبيض أسود، وهكذا،

«هاتي تذكرتك، مزقيها وارجعي معي...» وأخذ يدها ودسَّها في صدره،

«هذه نارك، أتسمعين..» لم تسمع مثل ذاك الدوي إلا في جسدها حين يطويها طياً، كادت تلقي بثيابها وتركض في تلك الممرات اللانهائية، تصرخ بأنها لا تريد أن تخرج من تلك النار، لا تريد لطرفٍ فيها ان ينجو،

«قملة..» نَفَخَ جسدُ الحشرة الأغبر ساخراً وسرا عميقاً في سوادها، الأرجل الخيطية أيقظتها،

«لكنهم بانتظاري، والتذكرة مخفضة ولايمكن استبدالها أو تغيير موعد السفر، سنضطر للاستدانة لشراء ما يكفي لرجعتنا، ثم أنتَ لن

تتأخر». شعرت بحاجة للتنفس وحدها، في فراغ المحيط الفاصل بين أوروبا وأمريكا، في الصحاري القاطعة للجزيرة حتى تهبط الرياضَ وحيدة.

****

في الرياض انغلق بوجهها بيتُ حماتها وانفتحَ بابُ رزقٍ، تَلَقَّتْ عقدَ عملٍ مُبَاغِتٍ للإشراف على البرامج الإبداعية بمركز المعوقين جسدياً.

«دخلٌ يفوق التوقعات..». سارعت تُهاتفُ فهد، ولم يبد عليه الحماس، عن بُعد كان بوسعها رصد الشقوق تنفغر بجلده،

«بوسعكَ أن ترجع الآن...».

«ليس قبل عثوركِ لنا على مَقَرٍّ، بيتُ أمي كما توقعتُ موصدٌ بوجهي، ولا تتوقَّعي إقامتي معك ببيت شقيقتك...» لم يخنها المَطْلُ في صوته، لكن شوقها كان حرياً باتراعِ مدينةٍ محوطة بقفرٍ كالرياض، لم يبقَ من فهد إلا سحق أنفاسه وإبادتها، خائنٌ عميقٌ فيها يستحضر دمعَ الرجل ممزوجاً بناره، لاكت صوتَه ومزجته بحنين لا يسكن،

«تركيبة ثلاثية الإبادة، هذا أنتَ وإن لم تحضر حالاً خرجتُ هائمة للطريق». نداؤها أرسل شهقة في الطرف الآخر من المحيط الأطلسي، كلما نفخت من نارها صارت رجعته محتملة، يعرف أن بوسعها جرجرته لعبور المحيط، يعرف الكلاليب التي يُمكن أن ترسلها بجسده لتعود به، لذا بدأ يتفاداها، لا تعرف كيف، لكنه وقطعاً استنجد بالكثير من المُغَيِّبات والملاهي. كلما نأى تفطرت له، للانطواء به وفيه، في حُمَّى بدأت طوافها للمدينة بحثاً عن سكن، الليلة التي حطَّ فيها فهد بدا مبهوراً، وصل في زحام، حفل تم ترتيبه قبل وصوله ليكون في استقباله،

«انتظروا حتى أريكم شريط ماريا كاري في الجي سترنغ، سليب رست، هاي فاي. أبو خط الله بين جبلين وكيلكَ!!». وألقى نظرة لا مبالية لمؤخرة طفول الممشوقة، العبارة بَرَكتْ على قلب طفول مثل بعيرٍ على

شرارة، لهفته فاقت لهفة رفاقه على متابعة الشريط المرة تلو المرة.

«لا فائدة». صوتٌ برأس طفول صار ينخر، وتُخرسه، حين خلا بها تلك الليلة بادر،

«لا أُنكر، هذا البيت فوق التوقعات، لكنه في خططي لا يزيد عن محطة، في طريقٍ مُعاكس لحلمي بالبطولة». رَجِعَ برسم الخارطة الخفيّة برأسه، ويأخذ يتكامل ويحمله لحيث لا يعود بوسعها أن تتبع، تُكابر ساخرة:

«لا عَكْس ولا نَفْس، اعتبره محطةَ انطلاقٍ مُؤقتة، فيها تتدرب وتلحق أينما جدَّت فرصة مباراة». كلماتُها انزلقت على صلد وغيّبَها اللهاث الذي تلى. تلك الليلة بدا شرساً كأنما يقطع حبالاً بجوفها، كأنما يطمس طريقاً للرجعة، يطمس كلَّ ما يُرجِّعُ صدى ويُلقي حولَه شِراكَه. ذلك صار الإيقاع الذي انتظَمَ لقاءهما فيما تلى من ليالٍ.

تَرَقُّبٌ قامَ بينهما، بحسٍّ حيوانٍ أدركت طفول أن هناك ما يتجمَّع في خفاءٍ، في لاوعيهما، لا أحد منهما خطَّطَ لما جاء لكنه جاء، تلك الليلة نامت وحيدة، وحين أشرق الصباح ولم يطلع عليها فهد قامت تبحث عنه، على الباب الخارجي ألصق لها في حينٍ من الليل تلك الورقة وغادر، فتحتْ الورقةَ الهزيلة لتُفاجأ بخط فهد المتعرج، مثل حشرات تنوء بزوائدها وتتعثر بكلماتٍ لاتعرف من أملاها عليه،

«أُقرَّ أنا فهد ال.... بأن زوجتي طفول ال... طالق طالق ثم طالق!» كَتَبَها بالثلاثة وفصلها ب (ثم) ليضمن قطعها...

وقفت هناك بالورقة في يدها لدهرٍ. حين أفاقت عادت لحجرة نومها غاصت بين ملاءات الساتان وغابت عن الوعي ليومين متتاليين، ولم يكن لفهد من أثر، تلاشى من كامل المدينة، حين جاءوا لتفقدها أعلموها،

«اتصل فهد من بيروت، لقد تزوج فتاة إعلان، تعرفينها تلك التي تغني للقشدة...» في تلك اللحظة انفتحت وردة بقلب طفول ولم تعرف لها

تفسيراً، لم تعرف حقاً هوية ذلك التكوين الذي تحوصل بقلبها لحظة أنطلق الخبر: صدمة أم شعورٌ بالخلاص المفاجيء.

للمحة، ثم كان رأسها من فراغ لا تُعكِّره غير عبارة سخيفة، تُكَرِّر:

«كان سيترك لنا باباً من طالقٍ أو طالقين للرجعة مالم ينوي الصيام للإفطار على القشدة اللبنانية...» لم يجدوا من كلمة لعزائها، عيون راحت وجاءت، صمتٌ راح وجاء من باب فيلتها لباب حجرة نومها راحوا وجاءوا بخَرَس. أرادت أن تشرح لهم أن جوفها سلام فلم تُسعفها الكلمات، كلمة وينفجر السد القائم بينها والماء المالح يحرق على حافة العين، على حافة القلب.

«عمي بندر يطلبكِ...» في غشاوة تلَّقت الأمر، لم تعي ما يمكن أن يقول لها أبوه بندر،

«وحده يملك زمام فهد..» كادت أن تُفلت منها ضحكة (من يريد زماماً لمن انفلت؟)

«عمي بندر يُلِحّ لرؤيتكِ، وأكَّدَ علينا، ينتظرُكِ غداً صباحاً في مجلسه...» داخلها لم تنكسر بعد البوصلة التي تقود لهم دوماً، أمر السلطان مُطاع.

في الصباح كان عيد الفطر، قابلها جسدُها النحيل في المرآة وناشَدَتْه،

«لمرةٍ حاسمةٍ وأخيرة يجب أن تكون جميلاً اليوم». العيد في الخارج، العيد في بيت أبيه ويأتيه بشوارد القبيلة وجموع المريدين، لا وحدة في الخارج كل الوحدة مجموعة في هذه الحجر». ومن وحدة طلعت في ذاك الثوب السادر من بياض، حين أقبلت في حدائق الأب قادوها لاستراحةٍ في الحديقة، كل الحشود سيقت للمبنى الضخم إلا هي يُهيئونها ربما للوجوه،

«حجرة الشتاء.. هكذا اسميها». كلمات الأب بندر سقطت، وزاغ بصره في الحدة بين نصاعة الثوب وسواد الخصلات المستريحة للخاصرة، في انشغالها وهَجرِها نما عليها العشب، بدت أهدابها أطول وأكحل، بدت

عينها غارقة لبقعةٍ شمسية كل ما حولها يبرق، السواد بقلب البؤبؤ بينما حوله برق، شعر برعدة من مواصلة النظرة في تلك العين، في طرف الحجرة البعيد كانت جارية عجوز مسبوكة من أبنوس تتقرفص أمام سجادة مغطاة بالورد بعرض أمتار سبعة في أمتارٍ سبعة، حافية بجسدها الضخم على قدميها الصغيرتين تقوم تنتقل من بقعةٍ لأخرى من ضفة لأخرى تعبر لقلب بحيرة الورد وتتوازن على جُزر بحجم القدم من خشب العود الأصيل تصفو دهونها بالوطء، تخوضُ وتُقلِّب حبات الورد الطائفي، كلما آنست ناراً في وردة سحقت بتلاتها لتحضير المعمول، المستعمل للبخور، بتلات حمر وزهرية تختلط بمسحوق خشب العود وسواد العنبر والمسك وتنعجن في كرات تتأهب للنار، كلما أتمَّت خلطة حرقت منها طرفاً واختبرت موازينَ بخورها: موازين خفية لتلك التركيبة السرية، موازين في وقفتها في الهواء، في القباب التي ترسمها على الأجساد، في اندساسها بالعرق والمغابن، في تفاعلها في السر والصمت، في خلاصاتها مع فوح الجسد، في سَكْرَتِها طالعةً من الأنا للآخر بهيمنة وقسر وتطويع وتأليف وحلول بلا خروج أو فِكاك. في عمود بخور رفيع تقرأ الجاريةُ أمشاجَ خلطتها وتُحَكِّمُ موازينها لتميل هنا وتطفو هناك تُؤجِّج أو تكمد بزيادةِ حفنة بتلات هنا، قطرة صَندلٍ هنا، مسحوق خشب العود هناك، من أطيب العود الكمبودي فإذا ما خالط أجساد الطيب الصحراوي جُنَّ واستحكم، تعجن وتدحي بين كفيها على فخذها الذي تُعريه بين كرة وأخرى وتدحي على السهل العظيم على الحرير من سوادِ الحيّ، كفان غاية في الدقة بحجم كرة من تلك التي تدحيها في تدوير وتكويرٍ لا يكف، وغابت طفول في راحتَيْ الجارية في فخذيها من غبارٍ عجيب، وأدرك الشيخُ بندر غيبتها، أزعجتْه وألذته في ذات الآن، بدت الجارية غائبة عن الداخلين لتلك الحجرة تُقلِّب أجساد الورد وتنتقي للسحق، وتنتقي للنار، غائبة في تمام التمام، ومع ذلك، وبإشارةٍ من يده، نفضت الجارية راحتيها من طِيبِ وقامتْ، في عبورها

لضفة تربيعة الورد وقفت بجرة بلور، استخلصت كرات من المعمول واتجهت لمجمرتين على الرفّ، بنفخةٍ نفختين ثلاث أجّجَت الجمرَ النائم في كل مجمرة، وفرطت كرات المعمول الطري وركّنت كلّ مجمرةٍ لركن من أركان المجلس، وبدأ قوس من بخور يعبر لرأس طفول ومضيفها، مازج بياضها وسوداها، تلملمت في قوس البخور وصار بوسعها أن تُرخي أجفانها وتحلم لأول مرة في عام طويل، شعر مضيفها بالذعرِ من إطباقة تلك الأهداب، لو هَوَت لجَرَفَتْه، تحركت يده في الهواء تُعكّر القوس، غاب صوتُه، بينما الجارية تُغادر، في منتصف المسافة للباب الصغير في الخلف وقفتْ مثل فرس جموح تركل، رفعت كلَّ قدمٍ بدورها ودستها لبَطّةِ الساق المقابلة وجريانها للأسفل، خَطَتْ خطوتين وتأملت في الأثر، رفعت كلَّ قدم للبطة المقابلة من جديد، حتى اطمأنت لصفو آثارها، خطوة أخرى صوب الخارج ودسّت كفيها لطيات صدرها، مستريحة تحت سواد شيلتها على كوزيَّ ثدييها، شعرت طفول بجسدها ينضم في تلك القبضة بغبار الورد والعنبر وبقايا أدهان الطيب، خلطة سِرّية لا تُجيدها إلا الجواري القادمات من زمنٍ غار وانقرض. مطمئنة لخلو خطوها وكفيها من السِرِّ غادرت على رؤوس أصابع تلك القدم توشك أن تتلاشى في كلِّ خطوة (طقس من كهنة الرمل لايُبيح لذرةٍ من السر أن تنكشف للخارج، للظاهر، للمُسْتَخفِ).

تابعتها طفولُ حتى غابت وماغاب خط الطِيب في الممر الذي تركته في هواء الحجرة وراءها. بقي في المكان شبحٌ يُقلّب أجساد الورد يخلطها بخفايا الزائرة في بياض ويُهيئها للنار.

كعادت طفول لم تهرع لتقبيل يده كما يفعل الجميع، مدَّت يدها لمصافحته، شَدَّ عليها بكلتا راحتيه، وأبقاها لدهرٍ ناظراً فيها، ضائع البصيرة،

«حقُّكِ عندي». الكلمة التي أسعفتْه.

«تسلمْ!» جاء صوتها رائقاً من صوتٍ أول لم يجري على حنجرة ولم تمسّه أُذن،

«فهد لم يظلمكِ وإنما ظلم نفسَه...» بدا عاجزاً عن إتمام سطرٍ، بينما كان بوسعها استباقه وقراءة صفحة كاملة بذاك الرأس السلطاني الحاسر، هي المرة الأولى تراه حاسراً بجُمَّة الشعر الفاحم لكأنما طُلي حديثا، تاج وبموجة تعقفه للأعلى، تبسمت واسترخى السلطان، راحة غمرتها أن تقطعت رواية (الشقي المحفورة بالنيون)

«عهد أقطعه على نفسي أمامكِ الآن، أنتِ من هذه الرقبة...».

«الله يُبقيكَ». الصوت الأول لم يُلقَّن غير الدعوات، بقية الكلمات لم تدخل قاموسه بعد، وكان يُكرِّر ما يعرف، الحجرة حولهما غرقت في ضوء خافت، مثل ضمادة على عين طفول على حواسها، بدأت تستكين، في جهتها الشرقية حوض نارٍ عظيمة لإيقاد الشتاء، ولم يبق منها غير بحيرة رماد تتمدد في وعي طفول بفضَّتها، في تلك اللحظة لَعَقَها لسان لهبٍ صغير مخفي في تلك البحيرة،

«أنا أعرف ما أنتِ..» كان يقول ويغوص بنظرته في عينها، يُريد للكلمة أن تترك حرقاً هناك،

«فهد أعمى، أنا أدرى بما ضيّع، وسيأتيكِ زاحفاً راكعاً...».

«أعزَّكَ الله ولا ركع لكَ نسل». من هذا الذي ينطق عنها، وحولهما تمطَّت بُسَط الصوف بتعريقاتها الفاقعة السواد والحمرة، كل الأرض تشتعل أي شتاء يجرؤ على الدخول على ذاك السلطان، على الجدران بقايا حروبٍ مضت، بنادق بمقابض من عاج ومطهمة بالفضة، وخناجر بعقفات تتنوع ومُطَعَّمة بالأحجار الكريمة، ومنفاخ يرقب على الحائط القائم على حوض النار، هاجمتْها ضحكة، أرادت أن تهتف بمحدثها مشيرة لذاك المنفاخ:

«هذه أنا».

«الإيمان محله القلب، ومن لا إيمان له لامحل فيه، أين تحل المرأة فيمن لا محل عنده، فهد ضيقٌ في ضيقٍ مُذْ وُلِدَ شحت معه أرزاقي لولا أن أسفعني الحظ بخالد ومسح خسوف فهد..». أعجبتها تلك الفلسفة، كانت وفي تلك اللحظة بأمسِّ الحاجة لمحلٍ تتلملم فيه وتغفو، شعرت بتعبٍ يَحِلُّ بعد أيامٍ من جَلَد،

«لكلامك ياعمي وقع الغيث على قلبي، شكراً لاهتمامك». وغالبت الدمعة على طرف الهدب تزيد في طوله يكاد يقطر، كادت يد الشيخ تُسارعُ لالتقاطِ سقطةِ الرمش ذاك، شلاله، لم يسبق له ورأى رمشاً يطول تحت بصره بين الكلمة والأخرى، بين النَفَس والآخر:

«بنظرةٍ عرفتُكِ معرفة البدوي بالنجم، والدليل بربعه الخالي، وفهد ولدي، لا تغرُّكِ نفختُه، لايُسمن ولا يُغني حتى نفسه بين جنبيه.....» كان يُكرِّر، ولم تعرف ما المعنى الذي يُجاهد لوسمه برأسها،

«كل عام وأنتَ بخير ياعمي، ما أنا وما هو، هذا لا مكان له الآن، ليس بعد أن انقطع ما انقطع».

«ما عاش من قَطَعَكِ، والله أنتِ غالية، غلاكِ عندي الكلّ عارفه، والكل حاسدكِ».

«عشتَ، هذا شرف لااستحقه...».

اندفع الطفلان في المكان يشقان في غمامة الترقب وروائح الحطب المزمن، يركضان خلف الكلب الضخم بخصلاته الواصلة للأرض، صاح الأب:

«ردُّوها عن الورد..» وانبثقت اجساد الخدم سداً بين المقتحمة وسجادة المعمول، وقوراير الطِيب وجرار البلور الحاوية لكُرات المعمول الجاهزة للبخور، بقعة من كنوز الأرض والسماء وتحمل لأرض وسماء سابعة قامت في حجرة الشتاء تلك تُطيِّب أرواح فصول عامٍ من أعوام

المشيخة. وخلافاً لتوقعاتهم اندفع الكلب ليدس خطمه بساق طفول يتشممها، بين الإفتتان والتوبيخ صاح الأب:

«سلطان ومشاري، للخارج، ألم أنهكم عن إطلاقها تتجول في البيت..».

«star ضاق صدرها، واليوم عيد..» بأعينهما تتمسح بالمرأة في بياض، ضحكت طفول،

«ستار ضاق صدرها في هذا العز...» وبادرها سلطان،

«عمتي طفول، تحبين الكلاب؟» تجاهلت النهشة بصدرها،

«وبَعد أنجبتُ كلباً بدل الولد...» ضحكوا، أكملت،

«وسميته الكَمَانَنَّنا.. ينبح ويقول نَنَّا نَنَّا!» استغرق الولدان في كركرة مسَّدت قلبَها، تقافز حولها مشاري،

«أينه، نريد أن نراه؟ وينبح نَنَّا؟ أنا أيضاً أنبح نَنَّا نَنَّا».

«تركناه ينهي دراسته في أميريكا سيدربونه ليصير كلباً بوليسياً، وسيرجع لنا بعد التخرج».

«ستار أيضاً نُدربها». تَحَمَّس سلطان:

«كان يجب أن تتدرب حين كانت طفلة، الآن بوسعكم تدريبها لتصير نجمة استعراض..».

«فكرة، سوبر ستار وهي سوبر...» قاطعهم الأب بحسم،

«والآن للخارج، لا ترجعوا لهنا، ولا تتمسحوا كثيراً بستار وإلا قضينا العيد في المستشفى...» ثم أكمل،

«في أعقاب حرب الخليج استشرت أمراض الحساسية في الصغار والكبار، صرنا لا نحتمل ملاعبة كلب ..».

«الله يحفظهم لكَ..» رجع الصوتُ المستغرق في الدعوات وتَكَثَّفَ الترقب،

«أي شيء، فقط آمري، لو شئتِ جئتُكِ به مخفوراً...».

«معاذ الله، ماهو بالبعير نسوقه للناقة للتسافد».

«إن عافته نفسكِ فتحتِ لكِ داري فكنتِ فيها المصونة المكرمة..».

«أبقاكَ الله، لكن، كلُّ ما أريد أن تسمح لي بالرحيل لأهلي».

«أفهم، جرحك طري والمكان هنا يثير اللواعج، إن شئتِ أرسلتُكِ لبيوتنا في ماربيا تستجمين، وفهد الله لا ردَّه، لتشبع به اللبنانية».

«أهلي يريدون رجعتي، تعرف العوائد؟».

«إن شئتِ طلبتُهم وسويت الأمر معهم».

«كرمك غارم، لكن كما لايخفاكَ فإن بقائي مجحف بحق المرأة التي على ذمته الآن..».

«الله لا ردَّها..».

«هي لا ذنب لها...».

«طبعاً، يقطع لها البلاد والرقاب، والله اللبنانيات يستاهلن القطع والربط لكن ما باليد حيلة، أم سلطان ناشبة بحلقي...» ضحكت للمعة في وجه الرجل،

«بعد قليل يجيئك بها وتملأ عيونكم، في بيتكم فتاة إعلان، فيما يختص بالنساء فهد لا يقع إلا على ثمين...».

«يِخسا، ماشفنا عليه زين غيركِ، وهذه لا تليق بنفخته الكاذبة...».

«الله يستر عليه وعلينا». كادت تضحك للشيخوخة في ذاك الصوت،

«بيوتنا بيوتكِ..» وغاص عميقاً لجوفها، شيطان صغير انبثق برأس طفول هَمَسَ (نجمك هابط وإلا لقطع الأب لا الابن طريقكِ!)، انتزعت قلبها من تلك النظرة وهتفت،

«بقائي إثارة للأقاويل، لكأنما أستجدي رجعة».

«لجهنم بالناس..».

«أهلي في صدمة..» في هذا كانت محقة، أما لو أعلمتهم برغبة هذا الرجل في بقائها فلا تدري ما ردود أفعالهم.

«إن احتجت أي شيء فلا تترددي أنا هنا».

«أكرمكَ الله».

«أي شيء...» حَفَرَ تلك العبارة،

«الحمد لله، لا أحتاج شيئاً الآن...»

«سامحه الله أفقدكِ وظيفتكِ واستقلالك وهاهو يرمي بكِ، لكن حقك عندي».

«الآن لا أعرف، أشعر بتعبٍ عن مجرد التفكير بالعمل، لكن، ربما بعد حين أقصدكَ في هذا».

«رجعتُكِ لعملكِ الحكومي دينٌ في عنقي تستوفينه وقتما شئتِ».

«اعتمدُ على الله ثم عليكَ في هذا». وبإشارة سارع الساقي الفلبيني ورجع ببطاقة تعريف أنيقة وشاملة لأرقام بلا حصر، وضعها بين يديها:

«أي شيء، وفي أي وقت..» كانت العبارة الأخيرة التي ودَّعَها بها، وقادوها من حجرة الشتاء للخارج، تنفست الصعداء أن لم يفرض عليها مجاملة الحشود المجتمعة للعيد وللفضيحة.

حين تمالكت جسدها وجدت طريقها للمطار راجعة على أول طيارة لجدة. تركت وراءها جنةً لمقام رجُلٍ طار ليرجع بوليفة! حين حطَّت الطائرة بمطار جدة هبطت في ذهول كامل، تَبِعَتْ شقيقَها متعب الذي جاء لاستقبالها، في زجاج صالة الاستقبال لمحت طفول ذلك الوجه الغائب:

«تركتِ مملكةً هناك...» سَخِرَتْ من ذهولَها في المرآة،

«خلصنا منه أخيراً». حنقُ أخيها أخرجها من ذهول الزجاج.

«والله؟؟!!» لم تعرف ما مأخذهم عليه، لكنها لم تجرؤ على نَبشِ خزين أيٍّ منهم. فور وصولها لبيت العائلة الجديد اعتكفت بوحدتها، لا

يخالطها غير وجهها في المرآة والذي أدمن محادثتها، يُثرثر وينهاها عن الشكوى:

«إن اشتكيتِ فارقتُكِ، أكره الشكوى». فإذا غابت عنه عاد يُحنِّنها:

«ما بكِ؟ لا احتملُ خصامكِ أنتِ أيضاً!».

في الليلة التالية تَكَلَّمَ هاتفُها النقال، قاطعَ حيرةَ أهلها بالرنين، بحركة آلية أجابت فجاء عويلُه على الطرف الآخر، فهد يبكي كما بكى دوماً وأذهلها، فَتَنها، فكَّرت بينما هو يبكي:

«لا شيء يفتنني كما بكاء الرجل!» وفهد، على قصر عِشرتهما، لم يكف يبكي بين يديها، وكان يقول:

«افتقدُكِ، لا جسد يعرفني كجسدكِ، هذه المرأة غلطة، لوح ثلج، وأنا أموت بعيداً عنكِ..».

«الساعة المباركة...» وأغلقت الخط. وبالفعل كان ولشهر في العناية المركزة مع لوحٍ من ثلاجات الشربتلي، سلسلة جلطات في الساق والرئة، نتيجة للأستيرويد الذي يتعاطاه لتكبير ذلك التمثال البالغ الكمال.

انطوت على مزيج من نصر وحسرة، ليس غضباً ما ينتابها أو حتى حنق تجاهه، فقط هذا الذهول في مواجهة حقيقة وجهها في المرآة، لا تُصَدِّق ماترى.

«أسمعي أنا لا أصدق أنكِ مني وقادرة على ما قدرتِ عليه...» أهملت نداءاته المتكررة على هاتفها النقال، لكنها لم تتخلص من الهاتف، كانت تجلس تُحصي متى يطلع ذلك الرقم، متى تضغط السماعة الحمراء، أو تتركه يرن بلا نهاية.

بردٌ وسلام حطَّ في بقعةٍ بصدرها لترجع إليها بين الحين والآخر، بدأت تخرج للناس، لتلاحقها لأشهرٍ فواتيرُ تقسيط الأجهزة الكهربائية وأجهزة العرض المتفوق في بيت سيؤوي قريباً بديلتها، شجعوها تنهمك

في تأثيث الطابق الثاني بفيلا والديها، تعمدت البساطة، بين الأسود والأبيض:

«هذا ما احتاجه لامزيد من الرمادي أو درجات اللون، أسود وأبيض».
ما أن فرغت من دوامة التأثيث الصغيرة حتى عاودها الذهول، كل مافيها يميل شرقاً ليميل غرباً، تعرف وفقط أنها لن ترجع مهما كان الثمن لفهد، لكن قرصة تُلاحقها من تلك المعرفة،

«سقطتْ بوصلةُ البدوي من رأسكِ، تتذبذبين من شرقٍ لغربٍ لشرق!!» تُكرِّر حين تنتهي كلَّ مساءٍ وحيدةً لحجرتها:

«هنا صارت لكِ حجرة وصارت لكِ طفول كاملة بلاشروخ، لن تشتكي الزحام بعد الآن بقدر ما تشتكي وحدتي معكِ في المرآة، أعرف تريدين مصارحتي، لكنني لست مستعدة لكلمةٍ منكِ، ذكاؤكِ لا يعنيني، لا يهمني، نبشك عن حكايا وراء الحكايا يبدو لي مضحكاً مثل وسواس في مسرحية لا أشتري تذكرتها، استرحنا الآن وأرحنا، إن كان لديك مشهد كوميدي فهاته». في سنة غيبتها بأميركا أتمَّ أهلُها انتقالهم من بيت العائلة المختنق بالأجساد لهذا المجمع السكني الحديث، لكلٍّ ابنٍ فيلته الخاصة ولطفول ووالديها فيلا، على الأقل تتوفر لها مساحة كافية للذهول ولمحاورة هذا الوجه في المرآة بصوتٍ عالٍ. لا تترك على جسدها من ساتر وتقف لمرآتها، تتأمل في الحنيات، في المؤخرة التي لا تنهض لبديع ماريا كاري، في الرقصة على الأطرف بلاصفاقة،

«نعم تنقصكِ صفاقة هنا، ولمحةٌ بلدية هنا، ولمحة من فتاة تحت مصباح شارع... ينقصكِ الكثير... لكن هنا نرد لكِ اعتباركِ، هنا سواد سيظل يصبغ فهد لقبره...» ويصحو فيها توقٌ للحديقة بين بيوت أخوتها،

«بوسعك الصراخ هنا، هذا طابق كامل لترمحي، اصرخي وسيأتون لتفقدكِ هذا إن جاءوا، بعدها سيعرفون أنكِ جننتِ ولن يرجعوا مهما صحتِ...» وتكتم الصيحةَ متعمدة تشرب ذبذباتها الطاغية لسوادها

الغميق، تغيبُ.

في المرة الوحيدة التي أغراها فضول فوق الفضول للرد على هاتفها جاء صوتُ شقيقته، وكانت هي أيضاً تبكي:

«نفتقدُكِ، حرقتُنا حرقتان، للآن لم يفارقنا الذهول...» فكَّرت طفول (صبغة دائمة، رَزَّة مزدوجة!!!) أكمل الصوت الباكي:

«خسرناكِ، لا نُصدِّق طلاقكِ والأدهي زواجه في نفس اليوم...» وعاجلتْها طفولُ بضحكةٍ ساخرة،

«وتوقعتِ أن يدخل في عِدَّة؟»

«لكن، لم يُمضِ يومين على طلاقكِ!» اعتذرت عن إتمام المكالمة بحجة أنها في طريقها لعرس، لا تعرف لَمِ اضطرت للكذب، لكن كان عليهم أن يعلموا أنها ماضية في العيش.

ليلتها وخالية لمرآتها راجعتْها دهشةُ شقيقته:

«لم يُمضِ يومين على طلاقكِ...» لكأنما يأتيها الخبرُ لأول مرة، بنهشة في صدرها، وجحظتْ عينها في صورةِ المرآة تلومها:

«أنتِ!» ظَلَّتْ سبَّابتُها توجه التهمة لصدرها.

«ماذا تتوقعين حين تقفين في السماء وتطلبين المَدَد؟!» راجعتها صلاتُها في الطائرة المتجهة لنيويورك.

«استرحتِ الآن؟ يبدو أن دعوتكِ قد صادفت ساعة استجابة». شعرت بغضبٍ يعتريها صوب صورتها في المرآة هذه التي تتخبط بين لومٍ واحتقارٍ وشفقة،

«أنتِ لا موقف لكِ، أبداً لم يكن بوسعك التزام موقف، لولم يقطعكِ هو من الساقية لطفتُ للأبد تُجرجرين تمثالَ كماله..» الانكسار في وجه المرآة أرسل دمعةً لوجه طفول، حدثت نفسها:

«ربُّكِ رحيم أن صادفتِ ساعةَ استجابةٍ على ارتفاع 40000 قدم».

لليالِ، وكلما عَبَرَت طفولُ خيالَها في المرآة رجَّعَ لها صيحات المرأة:

«أنفخ ياحبيبي، أنفخ واكتسحهم!» عبارةٌ لخَّصتْ وجودها مع تمثالها البديع، تنفخ وتنفخ حتى تفجَّرَ فيهما معاً.

تبسمت طفول ساخرة من تقلُّصِ وجهها في المرآة:

«ثلاثة ليقطعكِ، ولم يعرف، أنت جونسون لآلام اللمباجو».

****

كان زايد قد تركَ خطابَ استقالته على مكتب المدير الغافي وغادر، انتهى بصحراء، صديقه مسفر رافقه كمرشد للفصل الثاني من بحثه عن موقعٍ للبدء بحياة، حرَّضَه،

«تسوق من جدة في طريق مستقيم، لا تحيد يميناً أو يساراً، حتى تأتيك لوحة تقول: الشركة الوطنية للربيان! من اللوحة تنحرف يميناً وتمضي حتى تبلغ مقر الشركة على شاطىء البحر الأحمر في منطقة الليث، هناك تجد مسلمين بلا إسلام، هناك بوسعك العمل مع نصارى حطموا أرقاماً قياسية في الولاء للعمل وإتقانه». وكان مسفر يعمل مشرفاً على عمال تصنيع غذاء الربيان في تلك الشركة، في الطريق اجتمعت عليهما عواصف رملية لم يسبق لها مثيل لترده، وواصل، الحرس على البوابة أذنوا بدخولهما حين لمحوا بطاقة تعريف مسفر،

«بحجم مدينة، 70 كيلومتراً مربعاً، وزيادة، لا تبلغ آخرها إلا بالسيارة». لليسار استقبلهم مصنع تصنيع غذاء الربيان،

«بلا ذرَّةٍ مِنْ موادٍ كيماوية، خلطةٌ خاصة كما لوطُهيت في قاع البحرِ مِنْ قِبَلِ الطبيعة». على اليسار أيضاً وبمحاذاة البحر على مسافة نصف ساعة بالسيارة تمتد محطة تحلية المياه التي يكفي نتاجها لرفد نصف مدينة كجدة، بين المصنع والمحطة تمتد بيوت العمال الجاهزة وحبال نشر

الغسيل ومركز التسويق المتواضع والمسجد، لليمين تظهر مباني الإدارة والمسجد وسكن الضيوف ذوي الرُتب العالية، يليها مصنع الربيان، بينما على البحر ومحصورة ببوابة محروسة تمتد بيوت مُلاك الشركة مهجورة إلا من الخدم بانتظار سيد يظهر في مواسم للتمتع بأجمل الشواطيء.

قاده مسفرُ لليمين لمبنى الإدارة، هناك استقبله المشرفُ على التوظيف، في بيتٍ من البيوت الجاهزة،

«نُشجعُ العمالةَ السعودية، معجزة أن نجد سعودي مستعد للعمل بعيداً عن المدينة». فَكَّر زايد:

«هذا أنا، معجزة، من بين عشرة مواليد جئتُ أنا الترس البليد». مضى المسؤولُ،

«عمالتُنا غالباً من إندونيسيا وسيري لانكا، السعوديون نُعينهم للإشراف غالباً، نقدم لكم الحوافز لمعرفتنا أن ظروف العمل هنا ليست يسيرة». تأمل فيه ليرى وقع كلماته، ربما بأمل أن يدفعه للتراجع، تَرَكَّز اهتمامُ المشرف على بنطلونه الجينز من آخر تقليعات ديزل.

«يجب أن تعلم أن هذا ليس بمكانٍ للنزهة...» ومضى زايد ينظر في عينيه بصمتٍ، أكملَ:

«سنُعينك مشرفاً على سير تصنيف الربيان. مهمتُكَ مراقبة دقة العلميات الجارية وانتظام العمال ولياقتهم بدنياً ومهنياً. تعمل في نوبات، وحين أقول نوبات فهذا يعني ثمان ساعات من العمل المتواصل بلا تهرّب أو تراخٍ، في إجازاتكِ الأسبوعية تُغادر في حافلات الشركة لمدينة جدة لو شئتَ، والتي كما تعلم لاتبعد أكثر من 180 كيلومتراً». سلموه زِيَّه الرسمي: قطعة واحدة من العنق للقدمين بلا تفاصيل، من زرقة البحر في ليل عاصف.

في الأيام التي تَلَتْ دخل زايد في روتين مهدىء، بين ملاحقاته لبلال الوسيط ومهام عمله وساعات الصمت والرمل التي يقضيها في الحجرة

التي يسكنها من ألمنيوم بلون واحد، لا يشعر بوحدة إذ حوله تنتشر علَب مماثلة للمشرفين، تُحيطهم بحيرة من الجبال التي تورق ألواناً كل صباح وتُسقط ورقها مساءً عند رجعة العمال من المصانع، للثياب المنشورة رائحة تفوق روائح الصابون، رائحة أجساد بشرية تستمر تَتَعَرَّق حتى على مَنْشَر. نفحةٌ في ذاك العَرَق تُشعر زايد بالحيوية، بكونه في وَسَطٍ لا يَكِلُّ يُصارعُ ليطفو على سطحِ بحيرةٍ غير منظورة، بحيرة يجلسون في قاعها ويرفعون مياهها وأحياءها في الهواء لتتنفس وتزدهر بينما أطرافهم تزرق وتضمر، صراع حيوي يشحذ الجالس بكهرباء تُرسله أبعد وأبعد، في رحيله شرقاً وغرباً لم يشعر زايد من قبل بمثل هذه الحيوية والانتماء.

كانَ عليه الوقوف على سير تصنيف الربيان، لساعات كان يقف ويغيب في موجة الربيان تجري على السير، ربيان بلا رؤوس، ويعبر بسلام، بلا تدخل من تلك الأيدي البلاستيكية، وربيانٌ برؤوس تُغري الخطافات بملاحقتها وفصلها عن أجسادها الهلالية. لساعاتٍ كان يقف ويغيب في تلك الرؤوس بشوارب تنقصم وتُلقى، أكداس من تنقيط العيون السود الجاحظة والشوارب السلكية تتجمع كل ساعة عمل في تلك الحاويات ليأتي من يأخذها بعيداً، ربما كانوا يُعيدون تدوير تلك الرؤوس لتصنيع أغذية الربيان الصغير لتكبيره للتعليب والتصدير لبقاع نائية من الأرض، بعضُ العمال يُهرِّب حفنة من تلك الرؤوس لسلقها والتلذذ بحسائها. أنهار من الربيان العملاق انتهت مقطوعة الرؤوس في كراتين مختومة للشاحنات التي تنقله عبر البحار لمن يدفع في اليابان وأوروبا وأميركا.

«لم أعرف من قبل أن بحرنا يُصَدِّر للعالم».

«National Brawns» معروفة دولياً كأكبر شركة ربيان في العالم، تتفوق على محميات الربيان في اليابان والعالم أجمع، الخبراء الذين يعملون معنا نختارهم من أندر التخصصات». في تطوافه اليومي بتلك

المقاطعة أدرك زايد ضخامة التكوين الذي أنضم إليه، يتجول على قدميه لساعات ولايرجع إلا في جوف الليل بلا حاجة إلا إلى دفن ساقيه في أغطيته المسكونة بالرمل. في تطوافه بَلَغَ المناطق المحظورة:

«أية عربة قد تتسبب في تلوث يتسرب للرمل ويتسرب للماء فيلحق ببحيرات الربيان النادرة، أترى تلك السدود على البحيرات العظيمة مهمتها رفع وديانٍ من الماء للسماء وحماية مزارع الربيان، ولا ذرة من المواد الكيماوية، كل شيء طبيعي مئة بالمئة، لذا فإن شروط النظافة هي الأهم لاستمرارك في هذا العمل».

أقام لأسابيع في تلك البحيرة من زنك وحبال الغسيل والأذانات بأصواتٍ بدائية وأجساد يتقشر نيلها كل مساء ليُسفر عن أطرافٍ من وترٍ مشدود للحياة. تآخى والعواصف الرملية التي تُبطِّن حناجر الأحياء ورئاتهم بطبقة من رذاذ الذهب الخالص، كان يستغل ساعات الغروب ليرقب الشلالات العظيمة طالعة باندفاع عظيم من سدود البحيرات يُعادل في قوة تدفقه وعنف تياراته الأنهار العظيمة كالدانوب والرون، بحيرات كاملة يجففونها لشفط الربيان التام النمو ليجري بين يديه مستسلماً لقصف رؤوسه وتعليبه وتصديره! في طوافه كان يأوي أعمق وأعمق لجوف ذلك التكوين البشري العظيم، يتأمل في حيويةِ المنشآت التي صنعها الإنسان على شاطيء البحر ويرى الله، يرى تياراً يصعد من تلك التكوينات ويختفي في السماء، يشعر بأنه قد أوى أخيراً لفضاءٍ يلمه، بدأ يستكين رغم بعده الطويل عن ريبيكا، ورغم الشوق وحرقة العواصف الرملية التي لا تكف، كلما كشطت عن سريرك وحواسك طبقةً من الغبار تَجَدَّدَتْ طبقة:

«لتحيا في الصحراء تحتاج تطوير جلد ثانٍ من الرمل، يتآخى والذرات الصغيرة يتلاغى مع عَرَقِها ونارها، مع حرقتها التي لا تسكت تحت الثياب وفي المغابن، تحتاج أن تخلع لنحت الريح ملامحكَ، لونكَ، وتتحول لسحلية بعيونٍ جاحظةٍ من كوارتز رملي». لم يحتج زايد الكثير للتأقلم رغم

الشظف وبعده عن المرأة التي أعطت لحياته معنى، المرأة التي قالت له أنه يمكن أن يُحَبُّ ويُضَحَّى من أجله، المرأة التي قالت: (أنا أراكَ!).

ذلك الغروب قادته قدماه للسد، وقف يتأمل،

«في جسد ريبيكا النحيل من اندفاع هذه الشلالات، في أطرافها الرشيقة رقصةٌ تنفتحُ عليَّ من الرأس للقدم، ما الذي تعشقه هذه المرأة في رجلٍ مثلي؟» دوماً يُخامره الشك في قابليته ليصير معشوقاً! سَلَّم جسدَه لاندفاعة المياه وغاب حين ظهر ذلك الخبير الياباني، لم يمض على وصوله شهر وصار زايد يراه أينما اتجه في ليلٍ أو نهار، كل الرفاق يجزمون أنهم يرون ذلك الياباني في أكثر من مكان، في كل مكان، في ذات الوقت.

«الجاوة جَدَّتُهم جِنيّة، وهذا ابن جنية». شَغَلَتْهم أسطورةُ الخبير الياباني في الستين من عمره.

«هذا رجل لا ينام». مراقبته، متابعة تنقلاته الخاطفة بين المواقع وبين الشركة ومدينة جدة، صارت موضوعهم المفضَّل في ذاك القفر.

«يذهب لجدة أكثر من مرة في اليوم ويرجع، لكأنما المسافات لا تلحق بخطواته العملاقة». في ذلك الغروب وجد زايد نفسه وجهاً لوجه مع ابن الجنيّة، ابتسم الياباني مُحيياً، ومن لامكان انبثق السؤال:

«كم ساعة تعمل يومياً؟» وبدون تفكير جاءه الجواب بإنجليزية سلسة،

«15 ربما. من السادسة صباحاً للثانية عشرة بعد منتصف الليل».

«هذا يعني 18 ساعة».

«لا لنحذف منها ثلاث ساعات في السيارة في طريقي إلى جدة ذهاباً وإياباً في مهام للشركة».

«لكن ساعات الطريق هي ساعات عمل».

«لا، في الطريق يتوقف جسدي عن الحركة، ويسرح عقلي في الكثبان هي بنظري قطعاً ساعات خارج العمل».

«تبدو مسحوراً مثلي بهذه الشلالات بقلب الصحراء». واختفى مثل سراب ليظهر في أكثر من مكان في لمحة. شعر زايد بالانتماء أيضاً لذاك الوجه البض لابن الجنيّة، للطاقة التي تنبعث في شلالاتٍ عظيمة بصحراء قلبه.

حتى بدأت تُهاجمه نوبات الربو، استدعاه رئيسه، وكان النابغة الياباني جالساً يرقب، بدا زايد متوفزاً وبوعيه أنه يوم وصول ريبيكا للعمل كمعلمة لغة في المدارس الدولية، انتابه نصرٌ يحصد، لأول مرة تنفجر حظوظه وتدفعه في مجرة لا يبلغه فيها أحد بوسع ريبيكا التجلي في هذه العزلة، حيث لن يُقابل سواها، حيث لايفرغ منها إلا لها، حيث تحلب وتسقيه، شعر بحاجة لتوزيع الشوق المحتشد بصدره ويتصاعد، شعر بحاجةٍ للانفجار وتلويث المحيط المُعَقَّم في تلك المحمية، تأمل الياباني في العامل الأسمر بصمتٍ بينما جاء صوتُ رئيس العمال السعودي بأسى ممزوج بفولاذ:

«نأسف جداً، وسندفع لكَ تعويضاً مجزياً لتفانيك، لكن نضطر للاستغناء عن خدماتك حالتك الصحية لا تسمح، بقاؤكَ يضر بك بالدرجة الأولى ولا نريد معاقاً بين أيدينا، بقاؤك أيضاً يُضرّ بمشروع يتكلف مئات الملايين». خرج زايد ولم يره أحد بعدها إلا مرة: حين أقبل على مدينة جِدَّة بَدَتْ له في غمامةٍ من رؤوس الروبيان وتنقيطات الشوارب وأيقظت بحر رمال تحت ثيابه!

خاض في بحر الرؤوس والتنقيطات وانتشل المرأة الوحيدة في الكون لقلبه، انتهى بها للسيارة التي أجَّرَها لهذا الغرض، ما أن أنغلق عليهما فراغ السيارة حتى احتواها بين ذراعيه، وشعر بكامل تدوير تلك البطن ينغرس بصدره، أوى إليها ومضى بينهما دهر، لم ينطق ولا نَطَقَتْ، حين أدار المحرِّك بدأت المدينة تنحسر أمامه، لم يكن في بصيرته غير الجسد بتكويره إلى جواره، كل الكون بطن امرأة حُبلى، أوقف السيارة في

منتصف طريق الملك وأرسل كلتا يديه على البطن المكورة، يغتسل يتوضأ يمسح وجهه ويديه حتى المرفق، جنود حاجز التفتيش أمامه رمقوا عربته بشك، أضطر لمواصلة الحركة، حين انتهى بها لبيتهما، لتلك الحجرة خانتهما الكلمات، انطوى على تدويرة البطن وسمح للرمل أن يسح من جمرتي العين من الصدر المثقل بعناكب، ومن لا مكان جاء صوته، يحق له الآن الشكوى التخفف الطيران بين يديها وعلى قُبَّة تلك البطن.

«لقد سرَّحوني اليوم من عملي، أنا وأنتِ على الله». وهاجمته نوبة سعال مثخنة ببلغم، حين أفاق من النوبة كان دمعٌ يحرق على وجه المرأة، على تكويرة بطنها، تحوَّل الرملُ لفتاتِ زجاجٍ يسري تحت جلده، وأحاله لعمودِ دخانٍ أزرق، شهقتْ وأزبدَ الاعترافُ على شفتيها:

«هو عقابٌ إلهي لخيانتي». تلك العبارة التي أضمرتها جدرانُ حجرتهما، وحين غَادَرَها مصعوقاً حفظت الجدرانُ نسخةً من جحوظ العين من كوارتز أشهب بخطوط من دماء تتجلط لسواد كلما مضى للخارج خطوة، جحوظٌ تَرَكَّزَ على انتفاخ بطنها الحامل بجنين لا يمكن التكهن بلونه ولا بكماله ولا بنسبه.

****

هامتْ مريم في ممرات المستشفى، فَقَدَتْ طريقَها للخروج مرتين، كانت تخترق وسط نظرات المرضى والزوار والممرضات، وجهُها وراءَ ستارٍ كثيفٍ من الدمعِ يَحجبُ عنها العيونَ والفضولَ، إنها حديقة المستشفى، من هنا تعرف طريقها للمواقف حيث سيارتها، تحت شجرة مكللة بزهر أصفر توقفت، انتبهت لصوت قديم من عشرتها لمحسن، انبثق الصوت تحت الترقوة مباشرة مثل شرخ:

«أكثر ما يصيبني بالكآبة في هذه البلاد لونُ السماء...» نظرتْ صوب السماء. عصافيرُ في أسرابٍ تأخذُ طريقَها للأغصان استعداداً لليل، تغريدٌ،

«ما للسماء؟!!».

«انظري، تكسوها صفرة...» لم يخطر لها أن سماءَ الجزيرة يمكن أن تُتهمَ بشائبةٍ،

«ربما من رطوبة البحر العالقة في الهواء...».

«لا بل من الصحراء، من أين برأيكِ تجيء السماءُ بزرقتها الصافية؟ من جريانها على ماء تعكسه كمرآة، ليس لسمائنا ما تعكسه إلا الرمل والجبال البركانية...» نظرتْ بفزعٍ صوب الأفق، منتظرة كتلاً من سواد تُبقّع السماء، أن تَتَمَرَّى الجبالُ البركانية في السماء، شعرت بإهانة لسماء الجزيرة، وقَرَّرَتْ:

«ليست السماء التي تصفَرُّ وإنما عدسات آلاتنا المسلولة...» وَقَفَتْ مريمُ مُحَاصَرَة بتلك التهمة، فوقها كانت ملحمة العصافير قد بلغت ذروتها، فجأة سمعت مريم صوتَها يُغني، يُهمهمُ لحنَ الأغنيةِ لا كلماتها، في تموجات الصوت بدأت صورة القيد تخفت، صراع الأب، تكشيرة أنيابه، غور عينيه يكتسي طبقةً رومانتيكية، فكَّرت أنه يُشبه المحاربين المعتصمين في أبراج القلاع المنسية، وصار بوسعها الاطلاع على ما يدور بذاك الرأس المربَّع،

«هو الآن جندي، وقد فَتَحَ خزانةَ أسلحته ويُحاربُ أشباحاً بيضاء في الهواء، حين يكفُّ عن إطلاقِ النار تَغْرَقُ مدينتنا في الأبيض...» عرفت أنها تهذي وليس كالهذيان يطفيء حرقة ما رأت في حجرة الأب: وقعتْ عيناها عل تلك القوقعة البيضاء على الطاولة بجوار السرير الأبيض،

«سمَّاعةٌ! قوقعةٌ تُنشب عنكبوتها في غضروف الأُذن وتتنصَّت. حين يموت قد أُطَالِبُ بتلك القوقعة انتصت فيها لعالمه المخفي، ما تُرَى يَجْمَعُ في تلك القوقعة». تبعت نظرتَها نظرةُ الممرِّض.

«يُصَمِّمُ أن يلبسها، ويرفعها لأعلى حِدَّةٍ، أكادُ أُجزم بأنه لا يسمع

شيئاً، وإن سَمِعَ لا يعي ما يسمع لكننا في صراعٍ يومي، لا يفارقها في نوم أو يقظة، أنتهزُ غَرَقَه في نومٍ عميق لأنزعها، وكثيراً ما يُفيقُ فورَ لمسي لها ويُطالب بإرجاعها، ينوح كحيوانٍ جريح حتى أُرجِعها، أحياناً استسلمُ وأتركهُ ينامُ بها مدسوسة في أذنه حيث تُوقظه وشوشات عالية وفوضى كهربائية في دماغه، أجزم إلا شيء مفهوم يجول بذاك الرأس فقط هذه التشويش الكهربائي».

«أرجوكَ لا تخلعها، دعْه وما يشاء، هي القِشَّةُ الأخيرة يتعلَّقُ بها، لا تحرمه إياها».

«لكن أخاك مروان شدَّد على خلعها ليُسكت الفوضى في رأس العجوز المسكين».

«أرجوكَ طاوعه فيها».

«كثيراً ما يهدأ رغم الآلام التي تتفجر في رأسه من الفوضى الكهربائية، لكأنما مزاجه يعتدل كلما شعر بها في أذنه». تتأمل مريم في القوقعة الحائلة للصُفرة، تتأمَّلُ في أطرافِ الرجل القصير، لا يناسبه لقب عجوز، فهذا الجسد لا يشيخ بقدر ما يَنْدَكُّ ويَقْصُرُ ويَتَهَرَّبُ من التجاعيد والتَرَهُّلِ، هو جسدُ دُميَّةٍ مربَّعة وتزدادُ تربيعاً، لكن بأطراف متآكلة، الأصابعُ تحملُ آثارَ نهشٍ، الذراعُ أيضاً، الركبةُ، كانوا يقاومون وبشراسة رغبتَه المتأججة لنهش جسده.

«ما الذي يُوقظُ في الجسد وحشاً ينهشه؟ ربما هو هذا الحبس». لم تجرؤ على فتح قضية إرجاعه للمنزل،

«فات الأوان لمثل تلك الفورة العاطفية، تَعَاظَمَت الهوةُ بينه وبين حياتنا الآدمية». وهأنذا بحاجة لمثل قوقعته لاستعادة العالم الذي يتباعد.

«أنا مثله مؤهلة لختام حياتي مقيدة بعيداً عن الإنسان الذي يراني؟».

«أي عضو أُعطبه فأخرج من دائرة البشر القابلين للحَجْرِ والنفي والتعذيب، الرأس؟ الأذن؟ الساقين أم البطن، ربما لو تنازلنا عن الرغبة

المستعرة بالبطن لصرنا مثل الأشجار لا يُؤويها غير الفضاء الطلق». تنفتحُ عينُ الأب وعميقاً بوجهها، تشعرُ بالنظرة تستقرُ بجوفها، تتأمل في العين، تستنطقها:

«ما الذي يدور برأس هذا الرجل القوي، المكتسح / العقيد بالجيش الجوي / المقاتل الذي كان يطوي المسافات مثل خرقة بيده، وكان يكتسح الليل بالنهار، يصنعُ توقيتَه الخاص، لم يكن يومُ أبي 24 ساعة، كان 48 ساعة، و96 ساعة، علاقاتُه بلا حصر، يكتسحُ الناسَ كما يكتسح المسافات». فجأة انفتحت هوةٌ بوجه الأب، وصَعَقَها المشهدُ داخل الفم، لم تكن هناك أسنان ولا حتى لثة، كان بياضٌ فاغرٌ بقاعدةِ الفَكِّ، عظامُ الفك عارية للناظر، ولنظرتها بدأ الفَكُّ يطحنُ الفَكَّ، بدأت الحركةُ القارضة، الصريفُ الحاد لسحق العظم أَصَمَّ مريم. هتف الممرض:

«ها هو يضطرب ويبدأ بقضم فكه، لقد سَحَقَ كلَّ أسنانه وأكملَ بطَحْنِ اللثَّةِ وهاهو يَصِلُ لِعَظْمَةِ الفَكِّ...» حَاوَل أن يردعه، سَارَع يحقنه بجرعةٍ مهدئة، استغرق الأمر دهراً ليهمد الجسد، لأول مرة أدركت مريم أن وجهَ أبيها قد انطبق وتَرَبَّعت قاعدتُه وانطمستْ شفتاه، لأول مَرَّةٍ تلمحُ غيابَ العَظْمِ الرَافِعَ، لم يخطر لمريم أن القهرَ يُمكن أن يَسْكُنَ الفَمَّ بِمِبْرَد يَبْرُدُ الأسنانَ لِيُصَيِّرَ الرَجُل أهتماً.

«لا بد لأبي وأن يموت ليقطعَ الطريقَ على كلِّ هذا القهر، لابد وأن يموت قبل أن يبلغَ التآكلُ عَظْمَةَ الفَكِّ، قبل أن يبلغ الغيظُ عُظْمَ الفك فيَبْرُدَه». كان لا يزال الممرض واقفاً يرقبُ مريضَه الغائب عن الوعي في قيده بلا مبالاة، يرمقُ القيدَ براحةٍ عظيمة.

«حتى تحت تأثير المُخَدِّر ليس بوسعنا فَكَّ قيوده، لأن بوسعه مقاومة أقوى المهدئات والقيام فجأة ومهاجمتنا». وللحال، وكاستجابةٍ لذعرِ الممرِّضِ، انفتحتْ عينُ الأب شاسعة نارية، وقفزتُ عينُ الممرض للقيد، تَنَفَّس الصُعداء، بينما تجاوزت عينُ العقيدِ وجهَ ابنته لتحرق العالم حوله

بتلك النار، للعين فحيح:

«كيف ينجح في إذكاء تلك النار، يوماً وراء يوم، عاماً وراء عام، هذا عامُه الثاني، ولا يزالُ يُقَاوِمُ...» فما الذي تنتظره؟

«أن يموت؟!!» وهاجمتْها زَخَّةُ دمعٍ.

****

مُشَارَكَةُ رَجُلٍ لسقفٍ، مُشَارَكَتُه لمساحةٍ أطلقتْ دَاخِلَها حواساً فوق الحواس، صار جسدُها متأهباً لعبِّ العالم، لابتلاعه والتَلَذُّذِ بأدَقِّ تفاصيله شوكه عطره. أليس هذا ما يُدَرِّبُها عليه سِرُّها،

«بدر لا يُدرِّب بقدر ما يوقظ، يعرف أين يتوارى جسدي ويُخرجه من مخابئه ليواجهني، ليُطالبني ويُطالبه بالمزيد! دورةُ التدريب استمرتْ لشهرين ربما، لكنها تبدو مثل لمحةٍ أو مثل دهرٍ..» تأملت في جسدها، مسَّت فَرَاشة النار التي خلَّفها بدر على النحر، يلذ لها الآن تدليل ذاك الجسد مناغاته:

«تَعَلَّمَتَ كيف تَرى وتُرى، لكن ليس بوسعنا مشاركة أحد هذه الرؤية، هاهو يراكَ وتراه في كل الوجوه حولنا، يحاورك ويداورك وتدوخ بنظرةٍ بفراشة على العنق بعطرٍ على الرسغ، فيُخرجك وسط الزحام من وحدتك، هذا المخفي فيكَ ويُخفي عن الفضول حقيقتَكَ الحميمة، هذا الوحشي فيكَ، هذا السالب والموجب». وتَتَبَّعُ مجاري الحي في سبكته، تغيب بابتسامةٍ حميمة.

إنها الظهيرة، حين تتقد المدينة وجوهها، يلذ لها أن تُرسلَ الماءَ بلا حساب، لاتعرف كم وقفت تحت الماء، لكنها حين طلعت ورغم أجهزة التكييف بدأتْ بَرَابخُ العَرَقِ تنطلقُ لِتُخَالِط طبقةَ الماءِ الشفيفة، تشعر أن جسدَها يذوب، وفي مثل ذلك الذوبان اعتادت أن تشعر بحاجة للتمازج فيه. تؤمن أن جسدَها الدقيق كان يوماً جسداً فارعاً كبقية أجساد النساء،

وإنما صارت تصغر وتصغر مع توالي ذوبانها في مياه الظهيرة، في جريان بدر، أنفاسه، توقه، فيها، من يتجاهل نداءً كهذا؟!

ترقرق الزغب على مؤخر عنقها برذاذ المسك، ابتسامةٌ سِريَّة انشقت بصدر مريم، في صمتٍ تحسَّستْ حقيقةَ أنها قد اجتازت وحشتَها، وحشة الشك في الذات والآخر، لمنطقة انفتاح تلتقي فيها الآخر بآثار الجرح القديم ولا تستخفي أو تتجمل، تَحَسَّست بدر الراقد عميقاً هناك، يراها من الداخل مما تحت الخدش، هاهي تستشفي الآن بالدخول في آخر.

«وأنا الآن أَعْبرُ مرحلةً من الصمت، أشبه بالبَيَات الجسدي والروحي، مرحلة من استرداد الحواس لي وللآخر، إعادة إحيائها وتأهيلها لتعي الآخرَ». مسَّت تدويرةَ الكتف بشفتيها هامسة (بدر) سرا الاسم ناراً على نار الظهيرة، أن حبيباً مخفياً بالصدر كفيلٌ بموازنة كل تلك المعادلات النسبية مع العالم وكائناته.

«لكل منا ساكنٌ خفي، ولكي يتم التواصل بيننا والآخر فلابد مِنْ تَبَادُلِ للساكن الخفي، لابد وأن ننفصل عن الآخر قليلاً لنرى ساكنه، ونسمح له برؤية ساكننا، ثم نسمح للساكنين بالتواصل على مستوى الحقائق، على مستوى تبادل الأسرار، لا نُجرد ساكننا من السِرّ وإنما نسمحُ له بالبذل من سِرِّه، باستعماله كدقيق للتمازج بدقيق الآخر، بقدر ما تتطلب وصفة الحياة، لا أكثر ولا أقل، لا نُفرِّط في السر وإنما نجعله مادة للحياة اليومية، للوصل اليومي. لا نُجرده من هالته، وإنما نسرق من تلك الهالة للفعل اليومي».

تناولت زجاجة عطرها (آن كلاين) من العطور التي تنقرض، رَشَّتْ سحابةً في الحجرة ومَشَتْ فيها، تستحضر بدر،

«بينه وهذا العطر علاقة مشبوهة..» تبتسم بقلب غيمة العطر، تُراجعُها قناعتُه،

«هناك عطرٌ يعرفنا وعطر يشعر بغربة فيُفارقنا، يُخَيَّلُ إليَّ أن للعطر

مَسَاكن في نفوسنا، يعرفها ويأوي إليها، ثم يخرج لنا بكنزه، يصوغ من عَرَقنا من حميمِ روائحنا أجساد يفتننا بها، نحن لا نستدعي العطر هو يَشمُّنا ويجيء».

يشتكي بدرُ شوقَها، يقولُ،

«كلما غبتِ أرشُّ غيمةً من عطركِ وأمشي فيها». تأمَّلَتْ في سماعة الهاتف، بحفنةِ أرقامٍ بوسعها استحضار صوته، رَاودَها أن تهاتفه لتقول جملة واحدة،

«أعرفُ أين تختبيء مَسَاكن العطر». واسترجعَتْ مَنْ قَالَ بأن: (الذكريات البصرية تسكنُ مُحيطة بالدماغ كما على جدران حوصلة، بينما ذاكرة الروائح تستقرُّ بقلبِ الحوصلة للقاعِ قليلاً. وأن أدمغتنا تضمر وتموت ونحن أحياء، ولا نجاة إلا في استرجاعِ الذكريات المبهجة، والروائح خاصَّة).

«نبعُ الشباب ينام في مساكن العطر تلك». تأملت الرف من المكتبة حيث ينام العقد،

«أتخلصُ من جبني ونُطْلِق هذا السر!، نضعُ نقاطاً على حروفٍ تلذذتُ طويلاً بتركها صامته، الأحرف الصامتة نعمة إلهية، حتى الآن أردتُها علاقةً لاتتجاوز أثنين ولا تقع كوارثها إلا على رأسين، الآن، فيها من النضج ما يؤهلها لمواجهة العالم بانسجامها ونشازها!» ومُلْتَحِفَةً بطِيبِ اندسَّت عميقاً في فراشها، كان يجبُ عليها التوجه لزيارة طفول بعد طلاقها، تعرف أن عليها التزود لذاك اللقاء، لأن طفول مجروحة والجرح هو ما تتجنبه الآن، ليس في فترة النقاهة التي تعبرها، نادَتْه، «بدر!».

بقعةٌ مِن دفء بطول الصدر والجسد احتوتها من الاسم، آمنة في قلبه صار يسيراً عليها أن تستخرج السواد لمحةً لمحة لتنفضها خارج قلبها. كان عليها ان تقوم، تعرف.

«ليس الآن، نفحة بعد، لمسة، نظرة وأقوم...» استحضرتُ أصابعه

الطويلة من عزفٍ، أجرتها في مجاريها، غابت، بهمس غارقٍ في الوسادة ناجتْه:

«دوماً أردتُ أن آتيكَ بهذا الاعتراف: فقط لأقول لكَ إنك لم تفارقني في كلِّ تلك السنوات، الحَاضِرَ في لحظاتِ يَقْظَةِ هذاالجبار: جسدي. ضعْ كفَّكَ هنا وأنصتْ: في غسلي من كلِّ طمث، حين يبدأ الرحم يكشط جدرانه ويُهيء البطانة لبويضة جديدة، أتشعرُ بفعل الكشط عميقاً هنا؟ أتتلقى رَفَّتَه: عابدٌ حميم ملحاح يتمسح بجدران رحمك، يُمَسِّدُ ويدهنُ ويُطَيِّبُ، عميقاً دَفَنتُ ملامح هذا الساكن لرحمي، له وجهُكَ يا بدر، له لمسة يدك هذه التي ترجف بصعقةٍ تطول، بِمَسٍّ من نار! وحدكَ تعرفُ كيف تُصَلِّي بينما تعشقُ جسداً، كما تفضحُك تلك الرجفة البعيدة بصوتك. طوال هذه الأعوام التي فَصَلتْنا، وأينما تواريتَ لي مَعَكَ كلِّ دورةِ غُسلٍ لُقيا، تأتي دفيناً فيَّ كما كاهن منقطع في غارٍ، وله تراتيل وتعويذات تستجلب الجن وتُفلتهم لقاعٍ قاعي».

حين دخلت على طفول كانت الأخيرة تُحَدِّق في السقف، زيارة مباغتة تتبع فيها مريم نفس تكنيك طفول في الاقتحام (ما إن يفتح لها الحارس حتى تندفع لتنتهي في حجرة مريم لا يردها أحد)، الآن مريم شَقَّت طريقها للجناح المحظور محتذية لتحذير أم طفول،

«والله يا بنتي خائفة عليها، مثل خفاش لا تخرج إلا ليلاً، ولا ترى وجهاً، لا ذنب لنا وقاطَعَتْنا جميعاً...».

ما إن شعرت طفول بوجودها في الحجرة حتى قفزت،

«يا الله». ضمَّتها إليها وبدأ خيط دمع ينساب بصمتٍ على تلك الوجنة النحيلة، بعد حين ابتعدت لتتأمل في مريم:

«أعرف وزني كارثة، أذوب مثل شمعة، لا مؤخرة بعد الآن، لولا صمود هذا الصدر لاستحلت ولداً». ضحكت مريم،

«النحول يعطيكِ لمحةً ارستقراطية، مثل امرأة من دخان..».

«ما لنا إلا الدخان..» أشعلت سيجارة وعبَّت منها نفساً عميقاً:

«لحقتِ بالمدخنين؟».

«لمحة ارستقراطية، ألم تقولي ذلك...». وعبَّت نفساً آخر:

«لو رأت أمي هذه السيجارة لانهارت، مُصَابُ تدخيني أفدحُ عليها من خسارة ابن الشيوخ».

«لكم اشتقتُكِ!!».

«أنا وأنتِ لم نتبادل كلمةً في عامٍ كامل، لكنني لم انقطع عن محادثتِكِ، أراكِ في عين كلبي كَمَانَنّنا..» ضَحكت مريم،

«كَثَّرْ خيركِ..».

«نقلتُ لكِ مَشَاهِدَ حياتي بالتفصيل، لو صح التخاطر عن بُعد لأصبتُكِ – على قولكم يا الحُجُزْ – بغُربة وكُربة وهمّ للركبة».

«أحكِ لي، كيف أنتِ الآن...».

«حيثُ كنتِ صرتُ، وحدة قبر ووحشة قلب ووجع على كل عَصَب، والله جسدي عدو، يُتعبني، تَعَبُه يفوقُ أيَّ تعبٍ يمكن أن يلحقني من فهد والعالم مجتمع». تفهم مريم هذا الآن وبوجود بدر وباستغراقه فيها واستغراقها فيه.

«الحمد لله، على الأقل جَنَّبَني هذا في طلاقي من محسن».

«أسمعي لا تُعيدي مثل هذا الكلام أمامي، كلما استخففتِ بالمرأة فيكِ تنتابُني حاجةٌ لخنقكِ...».

«وأنتِ، إلى متى ستُلازمين هذه الحجرة؟».

«عندما طلَّق سالم، ابن عم فهد، زوجتَه، ورأوها في لندن بدت متألقة، أصابتهم بحسرة، أنا أيضاً بودي لو أُصيبهم عن بكرة أبيهم بحسرة، لكنني وكما ترين أخسر من وزني كل يوم كيلو، بعد قليل لن يبقى فيَّ ما يُكيدُ ويطحن...».

«العمل هو الحل».

«أي عمل؟ بتصفية حقوقي قطعتُ كلَّ الطُرق لرجعتي، والأعمال الخاصة شحيحة».

«لابد من وسيلة».

«حاولنا، لكن ما باليد حيلة...» تذكرت وعد حماها،

«عمي كان قد تعهَّد بمساعدتي في استرجاع عملي، ورقة منه، أو من معارفه، كفيلة بإعادة تعييني في لمحة..» تحمسَّت مريم:

«لمَ لا؟».

«أعاذني الله من الوقفة ببابِ أيٍّ منهم، كرامتي، أصون كرامتي من قبل حُبِّي...»

«أنتِ لا تطلبين حسنة، لامساس لكرامتك في طلب عمل، هذا أقل ما يقدمونه لكِ بعد الذي جرى منهم ...».

«حرام، لم يفعلوا غير الوقوف والفرجة بانتظار أن يقوم فهد بالضربة القاضية يعرفون عنه مالن أعرفه ليوم القيامة».

«لا ترددي، لنفكر في وسيلة، أبوسعكِ الوصول لعمك الآن؟».

«ما رأيك أأيمله؟».

«أحقاً معك بريده الإليكتروني؟» ضحكت طفول ساخرة من سذاجتها،

«لهنا ويقف سحر عمي بندر على سن ورمح».

«لا رقم هاتف؟».

«والله لم أُلقِ نظرة لتلك البطاقة، مهلاً...» ونبشت في حقيبة يدها، تَجَنَّبَت الأوراق: بقايا التذاكر، أحمر الشفاه، زجاجة ملح تحملها لفهد أينما ذهبا، ربطة رسغه، من كومة الوخز التقطت البطاقة الأنيقة.

«واو، ورقٌ مشغول يدوياً!».

«هذا هُم، ورقٌ مشغول...».

«هنا كافة أرقامه..».

«أسمعي أنا لن أحدِّثه ولو تشردتُ وطفحتُ الحنظل...».

«هذا فاكس مكتبه وفاكس بيته... لنُرسل له فاكساً». استوقفتها طفولُ:

«داخلي شك في أن يقودنا هذا لنتيجة، نرسل وفقط من باب الإختبار».

«لن نُخبر عن المستقبل، فالمستقبل دوماً قابل للتغيير، وإعادة الكتابة..».

«من باب: الدعاءُ يَرَدُّ القضاءَ؟».

«ومن باب: كما تعودتِ طَرْقُ كل باب». ومضى النهار عليهما رأساً لرأس تدبجان الطلب بمرحٍ تُؤججه كل عبارة مستكينة أو ماكرة أو شَرَك.

(عمي الفاضل بندر،

أكتبُ وألجأ للرجل الوحيد الذي وقف ليشد أزري، أأشكر أم أكتفي بالدعاء لكم بطول العمر ودوام العز؟

يتردد وعدُكَ لي،

«أي شيء، وفي أي وقت...» تلك عبارتُكَ التي سَدَّدَتْني لأقفَ كما اقف الآن لأتماسكَ، ولأعيد حياتي لمجراها بعد الإعصار الذي اجتاحني.

آتيكَ أستوفي وعداً قطَعتَه متطوعاً على نفسكَ.....) ومع الغروب وقفتا على الهاتف ترقبان بينما انسابت الورقة بخطها البديع في جوف الفاكس لتستحيل بقعاً ضوئية تنتهي بين يدي الرجل الذي لا يبلغه أحد إلا بإجازة.

****

«أنا في لوعةٍ لبدر!» حَجْبُها عن بدر يُجَفِّفُ الصبرَ القليل فيها، كلما غادرته لبست قناعاً ينزلق عليه الوقت لترجع إليه، وفيه.

«حين يعبرُ الوقتُ لايعود بوسع الحالَ أن يبقى كما هو، ولا البشر كما هم، ولا الجدران، ولا يعود للورقة المخفية بكتابٍ على الرفِّ أن تكتم سِرَّها، يعبرُ الوقتُ فلايسع الحالُ إلا أن يَحْوَلَ، فيخرجُ وجهُ بدر للأضواء، يُعْلِنُ عن وجودَه، تَخرجُ ورقتُهما، تُعيد تمثيلَ مَشْهَدِ الشرعية، تحتلُّ رضى الأهل فلا يعود بوسع أحد تَحنيطها على رفٍّ، وقبل كلِّ شيء تخرجُ للعَلَن تلك المساحة بجلد الحيّة وحشد النبات والتوق، يحول الحال ويخرجُ جسدُها للوجود».

تجرَّدتْ من الثياب لتضيف للمساحة حول جسدها، لكأن هناك طبقة من الفراغ تمتدُّ من الأشياء صوبَ الجسد الفردوسي، هكذا ترى للعُريِّ، أجسادٌ فردوسية تظهر من خالص الطين، بين طيَّات الأغطية الساتانية فاحت تلك الرائحة، (رائحة لعاب الإبل تمضغ زهر الإثل بعد طولِ سفرٍ في الجوع والعطش..)

«أين سمعتُ هذه العبارة...» قامت، كان صباح خميس، تحجَّجَتْ للخروج، وانتهت إليه:

تجاوزا بوابةَ جِدَّةَ الشمالية ونَصْب الخيول التي تَرْمَحُ مُقَطَّعة، من المدهش أن تُجَرَّدَ خيلاً بقصم ظهورها والحبس في مستطيلٍ للزينةِ، والسماح للغادي والرائح بتأمُّلِ سباقها المحموم لتجميع أوصالها المقطعة ولتجاوز تلك البوابة التاريخية صوب الرمل!

هي المرَّةُ الأولى التي تجرؤ فيها مريم على مرافقة بدر في سيارة وعلى طريقٍ سريع، المُخَاطَرَةُ أرسلتْ خدراً لذيذاً بقلبها، لذَّةٌ لا تُضاهى في الظهور معه تحت الشمس الحارقة وعلى طريق تسافر بلا توقف، لذة أن تبادلَ رُكاب السيارات الأخرى نظرةً نِدِّية،

«أنا أيضاً أقطعُ الأرضَ مع رفيق، أتحرَّكُ مع جريان الأرض وأشعرُ به قريباً إلى جواري، هكذا!!» وبأطراف أناملها مسَّتْ ذقنَه العريضة، تَشَرَّبَ طوافَها بعظم الفك، حين رفَّت الأنامل على الشفتين انطوتا عليها، المسُّ

الرقيقُ سرا بالخَدَر لأطراف مريم، تحوَّلتْ بانتباهها للطريق.

«أأنتَ واثق من الاتجاه؟».

«أنا عضو جديد في الجمعية، هاكِ مجلتهم النصف شهرية، فيها خارطة الرحلة، دليني، أنا بين يديكِ إن شئتِ تضليلي في هذه الصحراء ضللتُ فلم يُرجعني وحشٌ ولا خارطة...» تصفَّحَتْ مريمُ في المجلة، الجمعيةُ العالمية لهواة التسلق (هاش)، إعلاناتٌ عن أنشطة مرافقة للمناسبات الدولية.

«هل قرأتَ هذا؟ رحلتُنا اليوم احتفالاً بذكرى سقوط الباستيل والعيد القومي للجمهورية الفرنسية، تُنَظِّمُه الجمعيةُ تكريماً لأعضائها من الجالية الفرنسية».

«مارك ذَكَرَ لي شيئاً من ذلك؟».

«هل هي جمعية فرنسية؟».

«هناك نسبة من الفرنسيين بينما غالبية الأعضاء الذي التقيتُهم هنا من البريطانيين، والبولنديين والأمريكيين العاملين بالشركات الأجنبية». نَهَبَتْ بهما الفولفو ذات الدفع الرباعي طريقَ المدينة المنورة شمالاً، عند نقطة التفتيش بذهبان: رسم بدر نصف دائرةٍ راجعاً باتجاه الجنوب، ثم انعطف يميناً مخترقاً صوب البحر الأحمر مسافةَ خمسمائة مترٍ تقريباً. الطريقُ الصغير لاح لهما فجأة مما وراء مصنع الإسمنت المهجور ذاك، هتفت مريم بحماسة:

«انظر هناك، أهذه هي الإشارة التي ننتظرها؟» على الرمل أمامها ظهرت الإشارةُ الأولى: سهمٌ ضخم بالطباشير الأبيض المصبوب على رمل بطول متر لنصف متر، انحرفت السيارة تلقائياً تتبع رأس السهم، بعد مسيرة عشر دقائق ظهرت الإشارةُ الثانية: هذه المرَّة خط مُتَقَطِّعٍ يمنعُ من الذهابِ في خطٍّ مستقيم.

«هذه نهاية خطنا المستقيم، لا يجب أن نتجاوز لما وراء». سحابةُ

غربانٍ حلَّقَتْ مما وراءَ الخط، ثم تَتَالَت الإشاراتُ لتقودهما في طريقٍ متعرج صاعد وهابط بين الهضاب الرملية المتحجرة والرخوة، في حُفَرٍ تنفتحُ تحت العجلات فجأة، في مساحاتٍ من الطين المترعِ بمياهِ بحرٍ سُفلية، بمنعطفاتٍ مُباغِتَةٍ وَسْطَ جبالٍ سود بركانية، لمدة تزيد عن الساعة، وأخيراً وفي انعطافة مباغتة انشقَّت الجبالُ والهضابُ عن ذاك السهل، وفي السهل فاجأهما مهرجانٌ من العربات والوجوه المحمرة والبرونزية، ارتفعت الأيدي وصرخاتُ الترحيب مُلَوِّحَة بحرارة، جماعاتٌ تَحتشد هناك بانتظارِ الواصلين تِبَاعَاً ليبدأ التسلُّق والمشي، من بين الأجساد انفصل مارك وأقبل لاستقبالهما، جِرَابُ الكنغر على ظهره يُخفي وجهَ طفلٍ لا يزيد عن الثلاثة أشهر، وتركَّزت عينُ الطفل الزرقاوان مثل بحرٍ على مريم،

«هاي..» هتفت للطفل:

«مارك، وهذا جون الصغير، يبدو مهتماً بالجميلات من سن مبكرة».
وأضافت زوجتُه ماري:

«الشمسُ لها نفس مفعول الوجه الجميل على جسد جون، هذا الطفل يتألقُ في النور، لا أعرف كيف أرجع به لغيم بولندا؟» وقادهم للتسجيل في سجلات الوصول، لوحةٌ ضخمة تستقرُّ على الأرض وفوقها قوائم بالأعضاء المُتَوَقَّع وصولهم وقوائم أخرى بالزوار المرافقين، في تلك القائمة وَقَّعَا: (السيد والسيدة المنصور)، رَفَعَ بدر كفَّ مريم لشفتيه، نَصَحَهم أحد المنظمين:

«فور إنجازكما للرحلة ورجعتكما للمخيم الرجاء الحضور للتوقيع حتى لا تخرج فِرَقٌ للبحث عنكم». بانتظار وصول بقية الأعضاء انشغلت امرأةٌ فرنسية في الستينات برسم العَلَم الفرنسي على الأجساد المتطوعة، أعلام بالأزرق والأحمر والأبيض انتشرت على أجساد الصغار والكبار، على الوجنات، الجبهات، الذقون والسواعد وظهور راحات الأيدي، بَدَتْ بقعةُ الرمل تلك مثل بحرٍ من سماء ودمٍ فرنسي.

«ألديكما أطفال؟» فضولُ ماري الزوجة أرسلَ حمرةً لوجه مريم، سَارَعَ بدر للإيضاح،

«سنعمل سريعاً على ذلك، قريباً يكون لنا فريق كرة قدم». العبارةُ نجحت في إرسال سربِ نحلٍ بصدرها، وجَّهتْ حديثَها للزوجة:

«أرأيتِ، لا يُفكِّر الرجلُ إلا بتكثير جيوش نوعه».

«تقولين ليْ!! انظري ما فعلَ مارك بي!» وأشاعت الضحكاتُ دفئاً في الأربعة، وزادت حماسةُ جون الصغير.

«سنتبع مسارَ جماعة السير البطيء، نريد لجون أن يتلذذ بهواء الصحراء النقي». وانفصلت المجموعات، مجموعة (المشي) ومجموعة (الركض المتقطع) ثم المجموعة المُحْتَرِفَة (للركض الركض بلا توقف) لا يُسْمَحَ بالانضمام لها إلا للقادرين على الجهد، "تعرفت على ماري في واحدة من رحلات الركض، كنتُ أركضُ حين التفتُ لأجد هذه الشقراء الجميلة تركض ورائي، أبطأتُ قليلاً لأسمح لها باللحاق بي...».

«حقاً، يالك من متفاخر، لقد فزتُ ببطولة الركض في الجامعة».

«صَدِّقُوني، للنظرة الأولى أستقرَّ وجهُها في قلبي، لم يعد لبلوغ القمة من معنى، ركضنا جنباً إلى جنب نلهث ونحكي، حين بلغنا القمة كنتُ أعرفها وتعرفني كما من دهر، أعلنا خطبتنا في نفس الليلة ولقد احتفلت الجماعةُ بلقائنا في هذا السهل، رتَّبوا لشواءٍ ومكبراتِ صوتٍ تبثُ موسيقى سيمفونية، تصوروا، شهرزاد بقلب الصحراء، منذ تلك الليلة صار للقائنا طعم كما من حضارة الصحراء، صرتُ أرى نفسي بدوياً، وأنجبنا جون فارساً للقبيلة..» تمدَّد الحوارُ الخفيف والضحكاتُ، بينما كانوا يتتبعون الإشارات الطباشيرية، فاجأهم مارك بالصراخ فجأة:

«أون، أون، أون» ...on, on, on وجاءت أصواتٌ من الخلف تُرَجِّعُ تلك الكلمة،

«أون أون أون...» فجأة ضجَّت الوديان والهضاب والجبال بالنداء أون أون أون، كل من يعثر بإشارة يُرسل تلك الصيحة لتتبعه بقيَّةُ الجماعات الصغيرة والتي تبحث عن مَعَالِم تتبعها للمسار، إشاراتٌ منسية هنا وهناك وتَتَطَلَّبُ بصيرةً للعثور عليها، في مرحلةٍ من الصعود اتسمت الإشاراتُ بالمخاتلة، صارت تقود للاشيء، إشارةٌ قادتْهم لعُشٍّ نسورٍ بين الأجراف، ظَهَرَ العُشُّ مقطوعاً في الهواء،

«من هنا لاسبيل، ليس أمامنا إلا التحليق». اضطروا للرجعة أدراجهم، للإشارة التي سَبَقَتْها، وهناك وبعد تأملٍ وبحثٍ عَثَروا على إشارات خفية قادتهم لطريق، نقاطُ التيه الصغيرة تلك كانت مدروسةً لإضفاء جو من الإثارة على مسارات التسلق.

«فريقٌ من الخبراء يأتون للمكان قبل الرحلة بأسبوع لتحديد المسارات، يتركون لنا هذه العلامات لنتبعها، ونحن نتبع المسارَ السهل، أما المسار الرئيسي والشاق حقيقة فلا يسلكه إلا العداءون». الخطوطُ بطولِ ذراعٍ تأخذهم للأعلى والأعلى، في جرفٍ صخري لمحوا تلك الصناديق الكرتونية:

«أهه أخيراً يا جون، ها هي استراحةُ البرتقال التي تُفضِّلها». أمامهم سَبَقَتْهم جماعةٌ من المتسلقين تتجمَّعُ حول تلك الاستراحة المباغتة، صناديقُ طافحة بالبرتقال وزجاجات ماء بانتظار المتسلقين في بقاعٍ متنوعة على طول الرحلة، أخذ مارك برتقالةً وبدأ بتقشيرها، تَنَاوَلَ قطعة وعَصَرَها بفم الصغير الذي كان يتلذذ بالحموضة والحلاوة، بدر اختارَ برتقالةً دموية، وكان يُلقم مريمَ قطع البرتقال، كلُّ قطعة مسَّتْها تلك الأصابع الطويلة، مذاقٌ غيرُ مسبوقٍ يمتزج بشمسٍ وعطرٍ وذاك الشعور بالتحرر من كل قيد وعائق، بعفويةٍ مَالَ بدر يلعقُ خيطَ برتقالها الجاري على الذقن، انخسفت الأرضُ تحت قدميها، لم يخطر لها أن لِلَّمْسَة فعلَ تيارٍ مجروح، أحد المتسلقين الذين شاركوا استراحةَ البرتقال كان يمصُّ برتقالة ضخمة

ويتناثر العصير مع كلماته، مُوجِّهاً كلامه لبدر:

«هستيريا من الذعر اندلعت بين أهلي وأصدقائي حين أعلمتُهم بتوقيعي لعقدِ العملِ في السعودية، أمي بكت، قالت: تذهب للموت بقدميكَ؟ وهأنذا، مضى على وجودي هنا أسبوعين، لم يخطر لي أن هذه هي السعودية، هذا فردوس مخفي في أرض الله، أناسٌ تحتفلُ وتشرب وتضحك بهذا الترف والشمس، وفي هذه الصحراء الأسطورية!».

«لكن ليست هذه هي كل السعودية». أكَّدتْ له مريم ضاحكة،

«أعرف، لكنني محظوظ لهبوطي في هذا الفردوس».

«بعد حادثة ذبح المدرِّب على طائرات الأباتشي الأمريكي قرَّرَتْ سفارتُنا أن نرحل، أنا لم أجد مبرراً للهرب من الموت، لا أحد يهرب من موته، لذا قرَّرتُ البقاءَ رغم كل التحذيرات، بالطبع لم أشأ لعائلتي أن تجازف معي، حين جاء موعد سفر زوجتي ظلَّت تُماطل كانت تبكي بحرقة، لا تريد المغادرة، لكنها اضطرت للذهاب لارتباطنا ببرامج مدرسية، المهم سافرتْ بالأمس فقط وأعرف أنها لن تلبث أن ترجع، الحياة هنا ملائمة لنا، نحيا كملوك في سرادق من ألف ليلة وليلة». كان عليهم استئناف التسلق، ألقت مريم بنظرةٍ للوراء، في منحدرات الهضاب والجبال، وفي بقعٍ متفرقة ظَهَرَتْ رؤوسٌ بشرية تسعى صاعدة لكأنما في حَجٍّ، أطفال وشيوخ وشبان، إناث وذكور، شقرة وسواد وحنطة، تتمازج في الصعدة بلا تمييز تُرَدِّد النداء أون أون أون، لكأنما هي صلاة للصعود في طقس مرحٍ يُعطي القفرَ والسماء ملمحاً قدسياً مُرحِّباً، في تلك اللحظة تكاثرت نقاطُ الرؤوس الصاعدة وضَجَّ القفر بتلك التعاويذ أون أون أون، شَعَرَت بنسرٍ يتخلق بين جنبيها كان بوسعها بسط جناحيها والتحليق، فجأة شَعَرتْ بذراع بدر يحتويها، انتزعَها في الفضاء وضمَّها إليه بقوة، شَعَرَت بأضلعها تتهاوى مثل ريش، في لمحةٍ خلاها وتمهَّلت كفاه على خاصرتها، تاق جسدها ليفيض يتمطى كقطة على سحابة، فيها من توق

الموجة لأعتى الريح أعلاها، فيها تَقَوُّس وانقضاض في آن، فيها انفلات وكمون فيه ولجسده، فيها انجرافٌ للأعلى والأسفل، منفلتة موصولة به، ألقت بجسدها للسحابة وتلقفتها كفاه، فاض الجسد بجوامح تصعدُ بها وتصعد وتتدلل لا شيء فيها يريد أن يرجع، على ذاك المرتفع وقريباً للسماء دار بها، لم تعد تعرف جسدها صارت من جنس الريح وتُقوّسُه نشوةٌ بالغة الخفة، نفحة واحدة وتطير ولا ترجع، لكن مارك تدخّل:

«هيه، رفيقتُكَ ستتلاشى...» ضحكةُ بدر القصيرة قَطَعَتْ تلك الخفة، عادا يكملان الرحلة.

مع الغروب وبعد تسجيل عودة كافة الأعضاء والزوّار بدأ طقس التختيم،

«رقصةُ الخِتام». اجتمعَ الجميعُ في حلقةٍ كبيرة، وظَهَرَ الزعيم، وبقيادته بدأوا الغناء ترافقه رقصة، (إبهام للأعلى، صدر للخارج، مؤخرة للوراء، ركبتان معاً، أصابع قدمين معاً)

Thump up,

Chest out,

Bottom back,

Knees together,

Toes together.

رفعوا أيديهم للأعلى وهزوا راحاتهم، وتطوحوا يميناً ويساراً مكررين، ثم داروا حول أنفسهم يُردّدون (أنا أغني في المطر)،

«I am singing in the rain. I am singing in the rain»

استسلمتْ مريم لتلك اللحظات بأملٍ إلا تنقطع، لم يسبق وعاشت لحظات من الخفَّةِ كهذه التي يفتحها لها بدر، لم تتواجد بهذه البساطة ولا

حتى مع رفيقاتها، شيء فيها كان يتفتَّح للحياة، للتَمَاسِّ مع كائناتها وإغوائها، جوعٌ عاصفٌ لم تعرفه من قبل، ثم نادى المنادي على (مايكل)، تقدم مايكل، صاح المُنَظِّمُ بصوته الجهوري،

«مايكل سيُغادرنا غداً وهذه فرصتنا لتوديعه، ما نقول لمايكل؟» وفجأة انهمرَ سيلُ الأصباغ، من لا مكان ظهرتْ حاوياتُ اللون، صاروا يقذفونه بحفنات اللون والماء في جوٍّ هستيري من المرح، مريم وجدت لذة في قذائف اللون، كمن يدمغُ فرحتَه الطاغية بجسدٍ بشري، يترك توقيعَها النشوان على كائنٍ حي، تحوَّلَ مايكل للوحةٍ تجريدية حديثة من الأحمر والأخضر والأزرق والضحكات المجنونة،

«تَذَكَّرْنا». أمروه، وكيف للوحة أن تنسى مُبْدِعها؟

«والآن ليتقدم الزوار الجدد للتعريف بأنفسهم». ودفع مارك مريم للوقوف برأس الدائرة، وعن جانبيها أحاطتها العيون بفضول.

«مريم...» لأول مرة تعلن عن هويتها على ملأ، تُلخِّصَها في كلماتٍ بسيطةٍ لا تقول إلا ذاك الدفء المنتشر فيها،

«مريم المنصور، أنا هنا مع زوجي بدر...» مشيرة لبدر عن يمينها، تسللت يده للإحاطة بكتفيها في حركةِ تَمَلُّكٍ طفولية، كانت المرة الأولى تُعلن مريم رباطهما وعلى مسمعٍ،

«أعمل في روضة أطفال لتحفيز الإبداع لدى الصغار من خلال اللعب، أحبُّ الصحراء ويعجبني السير هكذا متسلقة جسدَ العالم». ضحكوا، قاطعها المنادي بصوته الجهوري،

«تريدين تقديم نفسك، بَزْ أف، أغربي عن وجهي..».

«You want to introduce yourself? Buzz off!»

و تَكَرَّرَ توبيخُه المازحُ والحاسمُ لكلِّ مَنْ تقدموا للتعريف بأنفسهم، الشاب النيوزيلندي مال ليهمس بإذن بدر:

«هي المرة الثانية أحضر لقاءات الجمعية، لكنني أدعي الجِدَّة لأكرر التعريف بنفسي، تعجبني هذه اللعبة». وانطلقت ضحكاتهما. ونادى المنادي:

«والآن مارك يتقدم». وفارقهم مارك راقصاً لوسط الدائرة.

«لقد أتم مارك مائة عملية تسلق، لقد تأخر بالطبع مؤخراً لفريق المشاة، لكننا نقدِّرُ سرعةَ القلب». ضحك الجميع بينما كان مارك يحتمي بذراعيه كمن يتلقى طلقات تلك الكلمات التهكمية.

«لنُهنيء رفيقَنا مارك». وانهالت عليه طلقات اللون، بدر كان يعتني بتوجيه الطلقات لتحويل صديقه للأحمر، الطفل على خاصرة ماري بلغ درجة من الحماسة، اندفع في البكاء يشتكي أشباحاً في السماء، ونادى المنظمُ مارك:

«قل كلمتكَ..» ومن موقعه متقدماً قليلاً للمركز بالطفل بين يديه اختصر مارك كلمتَه الفخرية بإنجازه:

«أعدكم بأن يكون خليفتي جون الصغير برفقتي عضواً في هذه الجمعية المعلَّقة بالمرتفعات، حين يشتعل العالم من حولنا، ولا يبقى غيرنا نحن المتسلقون من كل اللغات وبكل ألوان الوجوه...» مع تلك العبارة انحنى محيياً وعلا التصفيق وصرخات التشجيع،

«والآن، السيد كالن، يتقدم.» وتقدَّمَ رجُلٌ يُشارف الستين بجسد مفتول كمصارع،

«نحتفل الآن بالعمالقة...» وقاطعه التصفيق.

«نحتفل ببلوغ السيد كالن للركضة الستمائة، محطماً رقماً دولياً في التسلق ركضاً، وبالطبع بعض الأعضاء هنا مثلي قطعوا أربعمائة مناسبة ركض أو تزيد، ونحن في الطريق لبزِّ رفاقنا الذين سبقونا بتحطيم الأرقام القياسية في الركض المتسلق. والآن حيوا السيد كالن». وانهالت زخَّاتُ

اللون لإبراز البطل والإعلان عنه بلطخاتٍ صارخة، ثم أفسحوا له لإلقاء كلمته.

«كلما لَمَحَتْني سُحليةٌ سَابَقَتْني لتنفث في وجهي، ليس لدي أدني شك بأن كلَّ سكان هذه الصحراء الخفيين مدركين ويحيونني لتحطيمي للرقم القياسي، وحين أبدأ الركض صاعداً الأجراف ترافقني أصوات العالم السُفلي...» الضحكاتُ التي استقبلت كلَّ عبارة أجَّجتْ طَرافةَ الرجل، «لقد عرفتُ بتجاوزي للستمائة رحلة ركض حين وقفتُ بتلك القمة، لحظةَ تَشَقَّقَ تحت قدمي زلزالٌ صغير، بدأت الصخور تنهار، لم يكن حولي ما أتعلق به، لا حبيبة ولا أولاد ولا ورثة بعيدين ولا عمل، وقد سرحوني لضرورات أمينة، عرفتُ أنني أهوي وأن المجد الذي سأُحرزُه ذاهب لا محالة لورثتي من الحكومات المتصارعة، وبدأتُ أهوي حتى التقطتْني هذه الصُفرة ومعها هذه اليد السماوية للجميلة نانسي». مشيراً لعجوز في الخامسة والستين في بذلة ركضٍ صفراء فاقعة، مَضَت الكلمةُ تسخرُ وتُؤججُ، تشمُّ مريمُ رائحةَ فضولِ الرمل مثل رائحة حطب يتقد ليعبق به شَعَرها وكامل جسدها، أجمل العطر عطرُ النار.

قبل تحركهم أقبلَ المنظم في حديث خاص مع مريم:

«السيدة المنصور، سنسجل هذا التاريخ الثامن من يوليه 2004، كموعدٍ لكسرِ امرأةٍ سعودية للرقم القياسي في حضورِ مناسبةٍ مفتوحةٍ كهذه، يُسعدنا حضوركِ، ولقد سجَّلناه، كلُّ من يحضر يُسَجَّل له، ونُحصي مرَّات حضوره، أعضاء جمعيتنا من الرياضيين العالميين المرموقين وأنا يُشرِّفُنا انضمامُ رياضية سعودية.» ضحكت مريم،

«أنا سعدت بحضوري، آمل أن أتمكن من تحطيم شيء في سجلكم».

«الخميس القادم سننطلق من بريمان، الكوبري على الخط السريع، نأخذ المخرَجَ ونضعُ العدَّاد على الصفر وننطلق.... ستجدين التعليمات في مجلتنا نصف الشهرية».

ثم كانا في العربة وتنهب بهما الطريق خلف صف العربات الطويل صوب أُبحر، ثلاثون عربة أو تزيد تتحرَّك في العتم بحثاً عن نقطةِ لقاءٍ، ألقت برأسها للمقعد مستسلمة لتعبٍ لذيذ، تعب من فرط الخِفَّة، غرقت في طبقات الظلمة وموجات الدفء المنبعثة من جسده إلى جوارها في المقعد، تَلَّذذت في الصمت بالإنصات عميقاً لصوت تنفسه إلى جوارها، صوت دقات قلبه لو أمكن، كانت في سباق مع فقدان السمع الذي يهددها ويحتل مواقعَ على طبلة الإذن يوماً وراء يوم، كلما فقدت صوتاً زاد توقها لشرب الأصوات، للتلذذ بما لا يُسمع، هدير العربة والليل حولهما كان له دبيب تلتقطه بوضوح، في لحظات، وغالباً في رفقة بدر، معه تُصبح لذة الأصوات مضاعفة لدرجة تُنسيها ما ينتظرها، تُنسيها حقيقةَ الحاسَّة التي تُغادرها بلا رجعة.

«الشاطيء الأزرق، هنا سيعقدون الاحتفال بذكرى سقوط الباستيل وتوديع كالن». عند دخولهم للشاطيء المحروس انبسط يستقبلهم الرملُ والبحرُ والشموع، غابة من اللهب تتراقص بامتداد البصر للماء وتقف، أطفالٌ من كلِّ الأعمار يركضون بين الأقدام يطاردون كلاباً مفرطة الأناقة، نصباتُ الشواء توزَّعت في المكان، صيحاتُ بَشَرٍ وحيوانٍ تؤرقُ نومةَ الغربان، غرابٌ يُرسلُ نعقة بين الحين والآخر من مكمنه على مظلة من السَعَف، رائحةُ الشواء تتماهى بالليل وبالعطر على خصلات النساء وبالعرق، النباتيون انهمكوا في شواءِ الكستناء وحبات البطاطا والطاطم والجزر، هتف مارك:

«بالنسبة لمصاصي الدماء أمثالي، لا نُوقد ناراً إلا لتحمير حيوان من لحم ودم...» عَلَّقتْ مريم بصوتٍ خفيض،

«لم أكن من أكلة اللحم المتحمسين، لكن النباتيين يُثيرون لدي هذا السؤال الوجودي، يؤمنون بشي النبات لا الحيوان على اعتقاد أن الحيوان روح لا يُزهقونها، فماذا عن روح النبات أتستحق المحرقة؟» الضحكات

جاءت أكثر حدة، مذ بدأ الصمم يزحف على طبلة أُذنها ومريم تشعر بالنشوة في الصخب، كمن يستزيد من أصوات العالم وفوضاه، كمن يطلب الأقصى قبل إعدامه، جو المرح أحتدَّ بزجاجات البيرة الـمَصَنَّعةِ منزلياً، صار للضحكات ترجيع ومَدَد.

بين الأرجل جرى الصغار والكبار يقفزون من الماء للرمل، عَلَمٌ فرنسي ظَهَرَ بغتة على ظهر الكلب الكنيش، شاسع البياض بشعر طويل وعلى آخر الظهر مستطيل الأزرق والأحمر والأبيض، قفزة في الماء وانحلَّ الأحمر والأزرق في الأجساد والشعر الحيواني، والسيدة الستينية لا تزال تنقش رُقعاً من الوطن البعيد، لكأن كلَّ بقعةِ أزرقٍ وأحمرٍ وأبيضٍ تستدعي رائحةً من الأهل والطفولة، رقعةً من السين والفاونتن بلو وشعراء التروبادور، رَسَمَتْ على كفِّ مريم علماً.

«بوسعي قراءة الكف، وكفُّكِ مثل الكوابل المحملة بالطاقة، فيكِ كهرباءٌ ساكنة لكن مميتة..» ثم وجّهَت الكلام لبدر:

«عليك أن تَحْذَر، تُرسلُ من هذه الطاقة ما يُحييك لا ما يُحيلك للوحش الأخضر».

«عشقتُها لهذا الغرض: التحوّل». والتفت ذراعُه حولها لتأخذها بعيداً.

«لنسبح...» اقترحت.

«بثيابنا كاملة؟! لم أتوقَّعْ حماستكِ للماء وإلا لجهَّزتُ ثياباً للسباحة». لم يُتمَ عبارته وكانت في الماء وتُغرقه، سبحا بسكينة حتى الخط الفاصل بالكُرَاتِ الحُمر تُحذِّر من التمادي.

«كلُّ القروش الفتَّاكة وراء هذا الخط...» حذَّرها مازحاً.

«فما الذي يمنعُ قرشاً من عبور الخط؟» أحاطهما صمتٌ مُلَغَّز يرفع ويخفض.

«وأنتِ في الماء حتماً لن تُقاوم مخلوقاتُ الماء، للقرش قدرة على

التقاط رائحةِ قطرةٍ من العَرَقِ أو الدم البشري على بُعد أميال من الماء، لو كنتُ قرشاً لما أبقاني شيء خارج الماء في هذه اللحظة». ودنا منها على حافة الجُرف العميق من مرجانٍ سحيق.

«لجسدكِ في هذه اللحظة رائحةٌ تُدَوِّخ، من زهر الإثل بعد المطر، من التوق في لُعَابِ الإبل بعدَ رحلةِ عَطَشٍ وجوعٍ في الرمل». وفي العمق أطبق على بتْلَةِ المرجان المُشرَّبة بملح، لم يعد الماءُ يحملها، تيارٌ خفيٌّ انبثَقَ فجأة ورَفَعَها خارج الماء وفي الهواء، صارت في بحرٍ من تياراتٍ تصعق وتتلاطم، صارت في ماءٍ من مائها، ولَمَّها إليه أدركت أنها كانت تغرق، رئتاها، جسدها كل بقعةٍ من مسامها مسكونة بذاك الماء المدوخ ولا مساحة لالتقاط نَفَس، قَطَعَ بها المسافة راجعاً.

«لتَعي كم أنتِ فيَّ، لا بسلطانٍ ورقةٍ وإنما بهذه الرغبة الفوَّاحة فيكِ». انفلتت منه مسرعة صوب جون الذي كان يحبو على الرمل.

«أنه يأكل الرمل..» على حافة الماء كان يجلس في ثياب البحر الفاقعة الحمرة، يغوص بكفيه في الرمل المبلول ويرفعهما مبسوطتين للتأمل فيها ثم وبتصميم يمسحهما على فخذيه وساقيه، كان آدم الأصغر يَتَعَرَّفُ لذَّةَ الرملِ الخارجِ عن جسده، عن رجعة الطين للطين، البارد للحي، كلما رفع كفيه بطينٍ مرَّرهما على جسديهما مستغرقاً.

رجع لهما بدر بحبات الكستناء المشوية، دسَّ حَبَّةً ساخنةً بين شفتيها، قَضَمَتْها حارة، مُلُوحَةُ أصابعِه لا تزال ناطقة في حلاوتها. استلقيا قريبا من الماء، إلى جواره كان البولندي الحديث الوصول.

«لن يُصَدِّق الرفاقُ في بولندا وجودَ مثل هذا الفردوس في الجحيم الذي يصورونه في مملكتكم، أنا محظوظ بالتواجد في جو حميم هكذا بعد برودة شتاء بولندا والوحدة». ويَعبُّ من زجاجة البيرة:

«أفكر في الخروج للتسوق، لا أعرف أين».

«بوسعي أن أدلَّك على الأفضل...» ومضت الحوارات، شارفت

الحادية عشرة حين أوصلها بدر لسوق حراء الضخم، خلاها أمام البوابة الخلفية 13، لتخترق السوقَ للبوابة 5 حيث ينتظر سائقُها، قبل أن تُغادر استوقفتْها عبارتُه:

«انتظري حتى آخذكِ لاحتفالِ الجمعيّةِ السنوي بماليزيا، حيث يجتمع كلُّ متسلقي الجبال من مختلف أقطار العالم».

****

ظهورُ طفول في روضةِ مريم جاء أشبه بمعجزةٍ، كانت حيلة من طفول للرجعة للواحة التي تملك كافة مفاتيحها وطلاسمها وأسحارها: قلوب الصغار!

طلاق طفول تركها معلَّقة في فراغٍ، أملها في الرجعة لوظيفتها الحكومية تَبَدَّدَ مع صمت حماها بندر وتَعَذُّر الطرق الرسمية، شح الأعمال حفر هوة حول طفول صارت لا تطلع من فراشها إلا لتعود إليه. استجابة لفجيعة الأم أعارتها صديقةٌ عجوز شقةً صغيرة في عمارة بطريق المدينة لبدء أي مشروع يروقها مقابل نسبة 30% من الأرباح، وفي حمى بحث طفول عن مشروع لجأت لما تُجيد: تدريب الأمهات على توجيه سلوك أطفالهن وتعزيز قدراتهم الإبداعية.

المشروع بدا مثل بحر يرتفع مده وجزره، حين يُقبل تُزهر طفول وتوزع حماستها على مدينة بأسرها، سعت لاستصدار تصريح لمرافقة متدرباتها لروضة مريم لمراقبة الأساليب العملية في توجيه السلوكَ، وتوثقت لقاءاتها بمريم بعد انقطاع، في التركيبة المضطربة الجديدة دفنت مريمُ سِرَّ بدر عميقاً حتى عن صديقتها. يُحرّضها أن طفول لم تشعر بأهميةِ لإسرار أمر، كل ما يخطر لها يتدفق في أحوالها وكلماتها، لذا نأت مريم ببدر عن الخوض. لكنها انهمكت قلباً وقالباً في حرب تلك الغشاوة التي تُعشي عين طفول حين لا تكون هناك عينٌ ترقب، وحين تأوي لوحدتها ليلاً.

«لكي تنسى المرأة رجُلاً فليس أمامها إلا الإنهاك جسداً وروحاً في تجربةٍ جديدة...» قاطَعَتْها طفولُ ضاحكة:

«تجربة جسدية؟ هذا يروقني...».

«أقصد تتعلم مهارة جسدية...» وقاطعتها مغيظة بخبثٍ:

«هذا بالضبط ما يثيرني...».

«أقصدُ مثلاً تتعلمين السباحة». اعترفتْ طفول:

«في جسدي حاجة للماء».

«وأنا أيضاً».

«بَنَى أهلي استراحة من حجرتين وحوض سباحة لقضاء عطلات نهاية الأسبوع، ليست بعيدة خلف محطة الرحيلي على طريق المدينة شمالاً، لمَ لا نقضي النهار هناك نسبح ونبكي حظنا؟» غادرتا مبنى الروضة، طلبة المدرسة الابتدائية المجاورة ينصرفون، أطفال بين السادسة والثانية عشرة، أحاطوا بسيارة مريم، طفل لا يتجاوز السابعة يمسك بغصن شجرة لوز ويهاجم مقدمة السيارة، أرخت طفول الزجاج وصرخت،

«يا وِزْغ عاملين باد بويز؟» بعينه العسلية غَمَزَها موجهاً ضربة مازحة للزجاج الأمامي، قالت مريم لسائقها:

«محمد أمين أكمل طريقك لماذا توقفت؟» وصاحت طفول بالصغير،

«ترا تندم». ومحمد أمين سائق مريم الباكستاني يتجاهل الأمر، شامخاً في مقعده يرمقهم بازدراء مثل ملك خمسيني، دوماً تجنب المواجهات على الطريق، ودوماً في وجود طفول تنهمر المعوقات، وهذا ما يضيف إثارة لشبكة ذهابه الأبدي في المدينة، أن يرقب ردود أفعالها المثيرة كلما رافقت سيدته مريم، حين دوت الضربة بسقف السيارة وتماماً على رأس السائق اندفعت طفول مغادرة للطريق، ولحقتها مريم، في لمحة كان الصغار يتسلقون الأشجار القريبة ويصفرون ويغنون مغازلين:

«يا البرتقالة، يالبرتقالة!» وقفت طفول بوسط الطريق ضاحكة:

«هذا شكل برتقالة؟!!» ضحكت مريم، بينما صاح بها طفل آخر:

«الله الله يا المعجرمة...» رجعت طفول لمقعدها وانطلق محمد أمين بنصف ابتسامته الساخرة لايلوي على شيء.

«يُشَبِّهونك بنانسي عجرم... قمة الإطراء!! بينما أنا، أرأيتِ فيديو كليب أغنية البرتقالة وراقصاته الذريات؟ هي دعوات أمي بأن يُمَلِّحْني في عين خَلْقِه، وإلا، يالبرتقالة هذه تدوير لا أطمح لبلوغه!! ما في ما يتبرقل وأنا المايسة الدّقّاقة...»

في عبورهما لمصانع الشربتلي للثلج ضحكت طفول،

«كلما مررنا بمصانع الشربتلي يتجسد لي فهد وصوت المرأة الكوميدي في هستيريته ينفخ، ربما لو يلقِ بي للطريق لكنت لا زلت بين قدميه في حجرة العناية المركزة، وفيما بعد في رحلة الانحدار، ربما كان بوسعي العمل، أي عمل لإعالته، لتكبيره، للنفخ فيه، الرجل معذور، صدقيني، نحن البدو العميان انتحاريين بشهادة أمريكا، حي موت نلقي بأنفسنا، يشهد الله لم يطلب مني تضحية، فقط أراد لنفسه كل شيء وأنا وافقته، وحين شحت الموارد لم تشح تطلباته كل ما حدث أنها تمددت لتجتاح حدودي ومواردي وأنا لم أحتجّ أو حتى أمتعض، واجهت ذلك بابتسامة، بطيب خاطر تركت له أن يتمدد على حساب جسدي وروحي وينفجر بالنهاية بوجهي...»

انبسطت الرمال على جانبي طريق المدينة، المطر الأخير كسا الرملَ بزغبٍ من خضرة على امتداد البصر، قطعان الجِمَال تتبعثر بين الكثبان في سعيها للأفق، تسريح البصر في لانهائية تلك الحركة الصاعدة للسماء يمنح سكينة، تزحف رويداً رويداً من الصدر نزولاً، من لامكان ووسط ذاك الفضاء اللانهائي وتحت الشمس الحارقة لاح ذلك البدوي، شيخ في السبعين ربما، مثل نحتٍ رملي مشدود أمام كومة بطيخٍ عظيمة. سيارة

سوزوكي صغيرة بصندوق خلفي أقرب في حجمها للدَرَّاجة بثلاث عجلات، مؤخرة السيارة مكسوة بالبُسط الحائلة اللون، على البُسط تنتشر حِزَمُ النعناع والعطرة، وتنبثق لوحة على عود تقول بخط يتعرج: (نعناع المدينة)، نوافذ السيارة مغطاة بملاءة فاقعة الصفرة والحمرة تمنع تسلل الشمس لجلد المقاعد الحائل، على طرف الطريق كومة البطيخ تُلقي بظلها على البدوي المفترش الأرض متكئاً على كومة رمل، وقفة الرجل في الخلاء تدعو للدهشة، تساءلت مريم:

«ماذا ينتظر هذا الشيخ؟ من يشتري في القفر؟».

«الأرزاق تعبر الرمال لتصل لأصحابها، هذا ما ينتظره الشيخ بائع البطيخ ونعناع المدينة». هتفت طفول بالسائق:

«محمد أمين توقف، نريد بطيخاً.» ما أن توقفت السيارة حتى أسرع الشيخ منجذباً للمعة الوجهين الشابين.

«يا محمد أمين اختر لنا بطيخة حمراء، أتعرف...».

«هذا في معلوم...» وهبط مثل طاووس، بلمحةٍ تَقَمَّصَ محمد أمين دورَ السيد لحمل مسؤولية التنقيب عن بطيخة خرافية، بمهارةٍ كان يصد الوجه البدوي عن سيدتيه، وبعربية مدغمة برنة باكستانية:

«هذا في بطيخ حلو؟».

«يا محمد أمين هذا في معلوم وتسأله؟!! ألا تعرف كيف تنتقي بطيخاً أحمر...» وتجاهلها السائق مكملاً حوراه الخطير مع الشيخ:

«أنا في ذُوْق..» ومثل سلطان اتكأ على كومة البطيخ، بيدٍ تحمل قطعة بطيخ خرافية ينهشها بتلذذ وأخرى على جسد بطيخة مبقور ة كدعاية لجودة البضاعة، ينقل اليد الحرة بين الحين والآخر للطَرق برتابةٍ على جسد بطيخة يعرضها عليه الشيخ بحماسة، يطرق ويُنصت باهتمام عجيب ويقضم ويمضغ بتكرس، هتفت مريم ضاحكة:

«يا محمد أمين، هذا والله في معلوم أنكَ تشبع ونحن هكذا بانتظار حكم سيادتكم؟» أرختْ طفولُ زجاجَ نافذتها لتُبادر الشيخَ:

«يا عم أختر لنا بطيخة على مزاجك...» تلقف سؤالها بعناية اقترب بوجهه قريباً من الزجاج يخترق لوجهيهما في فضول عجيب،

«أحمر وسُكّر على السكين».

«ياساتر!!!» ضحكت طفول لوصفة المزاج العجيبة تلك.

«إن طلعت بيضاء أُرجعها إليكَ ولو وصلتَ زيمبابوي...» مضت في مشاكسته، ووبّختها مريم:

« لا تُعذبيه، وقفنا لنُكرمه...».

«هذا لا يمنع أن يُكرمنا ببطيخة تبرد قلوبنا، أليس كذلك ياعم..».

«برداً وسلاماً على قلبكِ...» ضحكت طفول للغزل الواضح في حال الشيخ،

«يا عم هل لكَ بيتُ قريب؟».

«أرض الله بيتي...».

«سأطرق بابك لو لم تكن حلوة».

«خذيها من ها اللحية».

«والله لحية زينة ومُحَنَّاة من فخر البوادي».

«وجوهكم البَرَكَة والبرود في حر الشمس هذه».

«محمد أمين ماذا تنتظر ساعد العم لوضع البطيخة في السيارة...» كان السائق يتأمل بلامبالاة ويتلذّذ بصوتٍ مسموع بالتهام البطيخة تشر لمرفقه، في الوقت الذي فتح الشيخُ بابَ السيارة ودفع البطيخة، سألته طفول:

«بكم؟».

«فدا رجولكم...».

«حقيقي، بكم؟».

«بثلاثين...» هنا تدخل محمد أمين:

«هذا في حلقة خضار عشرة، عشرين...».

«أعطه الثلاثين يامحمد أمين...» على مضض تنازل عن مسرحية المقايضة، بمنديل ورقي مسح أصابعه بعناية، كان يملك كل الوقت لذاك الطقس، رفع قميصه الباكستاني الطويل، ومن جيب سرواله العريض من قطن أخرج محفظته لدفع المبلغ.

حين تحركت السيارة بالفتاتين لحقتهما عينُ البدوي مثل شاهين، حتى غيبهما الطريق الممتد مثل ثعبان بلا آخر.

بأطرافها المنحوتة شَقَّت مريمُ الماءَ راسمة قوساً في القاع لتطلع إلى جوار جسد طفول الممشوق يعُزره البكيني الأسود.

«اتركي جسدَكِ للماء، امتنعي عن المقاومة وسيحملك الماء...».

«معاذ الله لا أعيدها، هذا بالضبط ما فعلته مع فهد، المؤمن لا يُلدغ من جُحرٍ مرتين.» لكنها وببراعة انصاعت لتعليمات مريم، وبدت أطرافها الرشيقة مثل ضربةِ ريشة طائرٍ مهيأة لشق الماء،

«سيكون تعلمك للسباحة يسيراً لو استجبت لانسياب أطرافك». بحركةٍ عنيفة غاصت في الماء وأخذت تتخبط، جرتها مريم للسطح فطلعت تسعل،

«الثقة العمياء، قلتُ لكِ لا تُبالغي في مديحي أبطبطها». جرت محاولات للطفو بجسد طفول، جرَّبت الطفو على ظهرها.

«هذه نومة تناسبني، لو أترك نفسي للبحر هكذا يقودني لحيث شاء». ضحكت مريم،

«هذا إن لم تعترضك القروش..».

«نحن فيها، أعرف أن كل قروش البحر متأهبة لغرقة بدوية فيها، يشمون رائحتنا من بُعد قارة». بعد محاولات تحركتا قريباً من جدار المسبح

واستغرقتا في تمارين مائية، تأملت طفول في الشمس التي تتحول لبقعة بيضاء على رأسيهما، في النسور الضخمة التي تحلق عالياً مترفعة عن إلقاء نظرةٍ للأسفل، في صوت محمد أمين في حوار باكستاني ساخن من وراء جدران حجرة الحارس، بدا لكأن العالم يتراجع ليدع لهما تلك الفسحة للتملي في العمق، هتفت طفول:

«البارحة شاهدتُ فيلماً عن فريق علمي يقوم بتسجيل الذبذبات الكهربائية التي تُسَجَّل في الدماغ أثناء التجارب العاطفية واليومية وغيرها، أي يقوم بتسجيل هذا التيار على أشرطة بوسع الغير إعادة إدارتها مثل أغنية للاستمتاع بذات النشوة أو الألم الذي حصل داخل الدماغ المُسَجِّل. أتخيل اسطوانة من التيار داخل دماغي فترة حياتي مع فهد، هل بوسع أحد أن يستمتع بتلك المعزوفة، أنا وللمحاتِ كنتُ في حالةِ تَجَلٍّ ربما يُمتعُكِ يا مريم الاستماع لشريط مِن اللحظات التي كان يأخذني فيها بين ذراعيه باقتحام بغصبٍ مثل خاطفٍ من القرون الوسطى.» شعرت مريم بالذنب مما تُخفي عن صديقتها، لو سجلت مقطوعة من التيارات التي تنتابها مع بدر لمنحت طفولَ متعةً حقيقية. قاطعهما رنينُ هاتف طفول المتشبث بحافة حوض السباحة في إنتظارِ أبدي لرسالةٍ لا تجيء، تبسّمت طفول،

«سلمان هذا: لا يأس، ولا التقاط نَفَس!» وقرأت عليها رسالتَه الهاتفية.

ضحكتا، وتساءلت مريم،

«سلمان؟!!».

«سلمان، صاحب المكتب العقاري الذي أعانني على البحث عن سكن في رجعتي من أمريكا لا يكفُّ يُطاردني على الهاتف».

«إن كان يُعجبكِ وهو جاد فلِمَ لا؟».

«الجدية لا أستطيع الحكم عليها الآن، يبدو مفتوناً».

«وأنتِ؟».

«لا اعرف أشعرُ، كيف أشرحُ لكِ: حَجَرٌ على قلبي.. وقلبي تحته مدعوس». وللحال طردت مسحة الحزن وأضافت ضاحكة،

«للحق، وجهه يُذيب الحجر، أنا في حضرته عرقي مَرَقي...».

«طفول أنتِ لن تُعيدي حكايتكِ وفهد...».

«أحيانا حين انفرد بنفسي أشعر أنني أنا من سمح لتلك الحكاية بالشذوذ..».

«وأنتِ من ستخوضين كل الحكايات التالية، وأنتِ خير من يكره التكرار».

«انطمس الكثير من ذكرى فهد، لكأنما سَقَطَ سهواً من رأسي، بقي صوت واحد يصرخ (أنفخ)، ونظرة واحدة، هي آخر نظرة ألقاها فهد صوبي. الآن، وكلما انفردتُ بتلك النظرة أقسمُ بيني وبيني بألاأسمح لكائن أن ينظر إليَّ تلك النظرة، نظرة لفريسةٍ تعبدُ سِكِّينَها».

«تذكري هذه النظرة حين تقدمين على أية خطوةٍ مع سلمان هذا، إن كان جاداً فمرحباً، فقط لا تُكافئيهم على استهلاكك بالمزيد من جسدِكِ...» حولهما امتد سلام الصحراء، قطعان بعيدة دسَّت أنوفها في زغب الأرض، مغمضة عيونها تعبُ العطر الرملي وتسبح صوب مضاربها، حين تنهي الشمس رحلتها للغرب تكون القطعان قد بلغت رعيانها وانضوت تحت عرائشها، شعرت مريم في جسدها بمثل ذاك الخدر يقودها لترجع لعريشتها، بدر. بهمسٍ مستجيب لموجة القطعان ردَّتْها طفول للواقع.

«كلما نظرتُ إليكِ يامريم يزيد يقيني أنكِ تعيشين في عصر آخر، في سماءٍ أخرى.. باختصار: قديمة».

«ولا أكون سبيلاً لكل عابر».

«الأسبلة هي التقليعة الوحيدة التي تطورت لتقتحم العصر الحديث كرمز، المرأة بالذات سبيل». هزت مريم رأسها بلاحيلة. بَاغَتَتْها طفول

بالسؤال:

«كم صمدتِ مع محسن؟».

«ثلاثة أشهر... وأنتِ؟».

«رقمي سندريللي، على الثانية عشرة كان عليَّهم فتح الأبواب ودفعي خارج الحفلة، لا تزيد ولا تنقص تزوجتُ ليلة عيد فطر وتطلَّقتُ ليلة عيد فطر». بعد تفكير أضافت،

«أنا وأنتِ نقيضان، يربطني بالرجُل الكثير بجانب الحب، أما أنتِ فبغياب الحبِّ لايعود لبقية حاجاتكِ من وزن، أشك أن لكِ حاجات بجانب الحوار العقلي أو الروحي كما تُسميه، ثلاثة أشهر كانت الرقم القياسي لاحتمالكِ، بينما أنا لو مدّوا لي في الحبل والرجال لما قطعتُ ولا خَفَضتُ ولا رَمَشتُ فَاتحتها على الغارب». ضحكت ساخرة،

«أتسمعين، أتكلم بصوت أمي!!».

«أما أنا فأفتقد صوتَ أمي في صوتي، لقد ظلمتُ محسن بقبول هذا الزواج منذ البداية».

«بالله لا تحزني علينا ولا عليهم، الدنيا لا ظالم ولا مظلوم، ما يظلم العبد إلا نفسه...» بعد صمتٍ أضافت،

«لقد تعلمتُ من تجربتي أننا مولودون لنَشقَّ في الصخر، يُولَد الإنسان ليأخذ يحلم، ويبني من حلمه واقعاً في حجارةٍ يسكنها ومخترعات تُلهيه بالإبادة والإحياء لتُحيله رويداً رويداً لضوء كما في الاتصالات الحديثة. برأيكِ لماذا هبط آدم وحواء للأرض؟ أتظنين أكلَ آدم للتفاحة جاء مباغتاً للخالق؟ التفاحة كانت في صميم تركيبة آدم، كان أبونا في الفردوس وكل شيء بدا كاملاً وجاهزاً لولادتنا هناك، لكن لا شيء كامل، ربما ولا حتى الفردوس، لذا هبط آدم ليُجرِّب ويخوض سلسلة الأحلام وتجسيدها سعياً لكمال لا يجيء.. ليخوض هذه العذابات لأنه في العلم الإلهي لا شيء يُضاهي الحياة على أرض ولاحتى الفردوس، لاشيء يُضاهي اختبار الذات

ابتلاءها والنجاة أو الهوة بها». تَرَجَّعَتْ كلماتُ طفول مثل نذير على الماء وحُمرةً على جسديهما، وعمَّ صمتٌ.

رنينُ الهاتف أخرجهما من تلك الوقفة في الماء هو سلمان أيضاً ورسالة جديدة.

مع ميل الظلال للشرق غادرتا الماء على مضض، وقفتا تحت الدش الضخم بوسط الحشائش الممتدة، دخلت الجسدين لمحاتٍ من ماء وطير وسماء تنفتح على غسلهما، تحت سيل ماء صاحت مريم بنشوة:

«بوسعي الوقوف هكذا للأبد، تحت رشاش ماء في سماء مبسوطة على رأسي...» ضحكت طفول.

«يَسْوَدُّ جسدي وتفقد أمي صوابها، تُخطِّط لاصطياد زوج ببياضي» ضحكت ساخرة،

«لا تعرف أمي أن سوادي في مواطن تذبح، وأن ذاك ما كان يخبل فهد، يرتعب وينجذب لمايسميه الأوركيد الأفريقي، أسمعتِ بأوركيد أفريقي؟ شَرَكٌ مستحيل».

«للآن لا أعرف كيف أطاقَ فهدُ خسارتَكِ، بلا مبرر، ولا هدف...» نَفَخَت طفول ساخرة:

«حتى هو يكرر دهشتَكِ، ولا يعرف كيف ضَيَّعَني، يقول عملوا له عملاً. ليس كالسحر تبريراً لحماقاتنا». قاطعتها مريم:

«بالمناسبة ألم تتلقِ إجابةً من عمك بندر؟» ضحكت طفول ساخرة،

«لا حِس ولا خَبر! ».

«لا أفهم، أليس هو من تبرع بالوعد؟».

«بطريقته لا بطريقتي، الخلاصة: لا مكان لنا بينهم، ليس على مانشتهي». انتهتا لتجفيف جسديهما تحت الظِلَّة المتقدة بشمس تُصارع لخطف لعقة من النعومة البشرية، بفوطة لا تزال تجفف شَعرها غابت

طفول في المطبخ، رجعت بسكين ضخمة،

«يُخيفني ساطور كهذا في هذا الخلاء الخالي، بوسعي ارتكاب جريمة...».

«هذه البطيخة بحجم طفل، لا أطيق الانتظار أكثر...» وتعاونتا على ذبحها عرضياً لكوزين، حملت طفول قسماً لحجرة الحارس، طرقت النافذة فجاء الحارس من البوابة، سلمته نصف البطيخة ورجعت،

«محمد أمين سيطفح بطيخاً اليوم...» اقتطعتا نصف الكوز العظيم وقسمتاه لشرائح، هتفت مريم،

«يُغريني نصف البطيخة هذا، أتعرفين حلمي أن آكل البطيخ مثل كلب أو قطة أو بقرة...» ضحكت طفول:

«لمَ لا، ما الذي يمنعك؟» وللحال غاصت مريم بوجهها في الجوف الأحمر، تقضم بأسنانها من اللحمة الجوانية وتلوك، في لحظة غاصت بكامل وجهها للحمرة الغنية بالعصارة، للحظات لا تريد أن تطلع، ضحكت طفول:

«دعيني أجرب...» وشهقت:

«يا الله، لا أُطيق هذه اللذة...» وتبادلتا الغوص في الجوف الناري المثلج...

«حقاً البقر والكلاب والحمير في نعيم، بعد اليوم لن آكل إلا هكذا...» الرسالة الهاتفية بقيت تومض على الشاشة الصغيرة ثم كمدت دون أن تلفت الوجهين الغارقين في حلاوة وحُمرة.

كانتا في طريقهما للخارج حين لمحتْ طفول ذاك الحذاء الرياضي،

«زايد!» سارعت للحجرة الصغيرة المتاخمة للباب، حجرة معدة لتبديل الثياب ومهجورة من زمن، الآن بابها مقفل على غير عادة،

«مازلنا لانعرف لزايد أرضاً ولا سماء، والآن لكأنه كان هنا، أتظنين؟»

لم يبد على المكان أية ملامح سُكنى، حاولت طفول دفع باب الحجرة بلا فائدة،

«ما تظنين وراء هذا الباب؟ هذه الحجرة دوماً كانت مهملة ومشرعة».

حاولتا دفع الباب بلا فائدة، في سواد عباءتها يشرنقها سارعت طفول للخارج ولحقتها مريم،

«إقبال، إقبال..» وانبثق الحارس من حجرته متبوعاً بمحمد أمين،

«هل كان زايد هنا..» النظرة التي تبادلها الحارس مع السائق قالت شيئاً بَرَقَ وتلاشى، بعد صمت قال:

«هذا مافي معلوم».

«أنتَ في حارس إنتَ لازم في معلوم، زايد كان هنا؟».

«أنا في حارس مافي ربنا، أنا ماشوف». بدا منزعجاً بعض الشيء وغير قابلٍ للنقاش:

«حجرة التبديل من أغلقها؟».

«أنا ما في معلوم».

«أين مفتاحها دوماً كان في القفل؟».

«أنا مافي معلوم، هذا في كثير بزورة حقك يجي هنا يلعب، هذا في ممكن في ضيِّع مفتاح».

«وهذا الحذاء، من جاء به؟ يوم الجمعة كنا هنا ولم يكن له أثر؟».

«أنا في حارس ما في معلوم». بدا عازماً على مواصلة الانكار. في السيارة تنهدت طفول،

«حدسي يؤكد أن زايد كان هنا، وإقبال يكذب، لا أعرف لماذا».

«ربما طلب منه زايد الكتمان».

«لا أعرف أين سينتهي كلُّ هذا، غيبته طالت، وأخشى أن...» قاطعتها مريم:

«ربما رحل لمدينة أخرى بحثاً عن عمل..» رأس محمد أمين مال للوراء، يلتقط كل شاردة من ذاك الحوار، هو أيضاً يخفي شيئاً،

«أنا في ممكن كسِّر قفل وأنتَ في شوف.. ممكن هذا في مشكلة». وللحال ندم على ما صَرَّح.

«محمد أمين هل هناك مشكلة؟» الذعر في صوت طفول أربكه.

«ممكن في ممكن ما في، الله في عالم..»

«إقبال، هل حدثك عن زايد؟».

«والله هذا بني آدم في شيطان».

نفاذ صبرها حاصر محمد أمين ونظرتها إليه جعلته يقول:

«أنا مافي معلوم، أنتَ مافي وسواس خنَّاس، هذا كله ربي يجيب بركة، أنتَ سوي دُعا».

(مافي معلوم) كلمة قفل وتوارى وراءها، أدركت طفول ألا سبيل لدفعه للكلام.

غادرا طفول أمام باب بيتها، وللحال بادرته مريم:

«محمد أمين، أهناك مشكلة؟».

«أنتَ قَسَمْ مافي قول؟ هذا في ولد مسكين، جاء نوم وراح، هذا في ولد تعبان، كثير تعبان قلب. أنا مافي علوم زيادة». بذلك أغلق الحوار وبقي غياب زايد لغزاً. استرجعت مريم الوجه يقطر طيبة بأسنانه البارزة، كثيراً ماكان زايد يُحضر طفول للروضة، وفي أيام كان يوصلها مع طفول، تَذْكُرُ أولَ حوارٍ بينهم.

«سائقنا الميري! قَبَلَيٌّ عريقٌ وخريجُ ثانوي». عَرَّفَتْه طفول ليُقاطعها ساخراً:

«وكيلك خبير براشيم، وإلا لما تجاوزتُ المرحلةَ الإعدادية».

«زايد يبحث عن عروس حجازية، يقول بنات الحُجُز أكثر خفة

وبساطة، بعينٍ على الرجُل وأخرى على العالم، خرجن من القمقم، أتعرفين واحدة منكن الحجازيات خارج القمقم؟» ضحكت مريم متأملة في وجه الشاب بأسنانه البارزة، شَعَرَتْ أن شكل الرجُل لم يعن لها قط شيئاً، يتكلم فتقع في أو خارج عشقه، بينما طفول تسخر من اختياراتها.

«أنتِ مؤسسة خيرية، تجميلية، يأتيك الضفدع فتحيلينه أميراً وسيماً، أما أنا فلا أقبل إلا بالأمير لأحيله لضفدع». تذكرت مريم أن زايد حين فشل في الالتحاق بأية كلية أو في العثور على عملٍ تَبَرَّعَ يعملُ سائقاً للعائلة مقابل مرتب يقتطعه الأخوةُ. الآن ربما لايمكن الاعتماد على سائق من دمك ولحمك المحمل بالطموحات، الغريب لايُقحم توقعاته في بنزين السيارة وبين تروسها.

****

«مكتبي، من فضلكَ». من جلستها خلف خان لمحت الامتعاضَ على وجهه،

«لكن هذا في جُمعة مافي شُغل...» تجاهلتْ اعتراضَه، وجهُ خان مثل صقرٍ يُحوِّطُ وجهَها في المرآة، سترت وجهَها بسواد طرحتها وغرقت عميقاً في مقعدها، تجنَّبَتْ الدخولَ في معركةٍ جديدة، قبل ثوانٍ كانت والدتها قد اعترضتْها:

«خارجة في جُمعة وفي ساعةِ استجابةٍ؟!!» ضحكت طفول:

«يا أمي، هذه ساعة استجابة وليس قبض أرواح، نحن لا نحبس أنفسنا يوم الجمعة لِتَحَرِّي هذه الساعة، بوسعها أن تلحقنا أينما كنا...» ما إن نطقت تلك العبارة حتى قرصها شعورٌ بالذنب، فكرَّت:

«حيث أذهب الآن أشك أن استجابة قد تلحقني..» كانت في طريقها للقاء سلمان، والذي أخذ يُلِحُّ على لقائها، واليوم قررت أن تستغل إجازة مكتبها الصغير الذي تديره لتدريب الأمهات مساءً للقاء.

«يا حسرتي قليبي عا الهدا ساري...» من بقعتها في المجلس ومواجهة للمدخل تصاعد صوتُ أمها المرتعش في غناء الهجيني..

«وبنيتي ماماال قلبها صوبي، من بعد ما خذا الزمان شمعتي عيني...» مضت تهوجن، قاطعتها طفول:

«ما أفنى عيونك إلا ليالي صيد الجراد وراء شُبّان حائل...» تبسمت الأم ومضت تهوجن، بوسع هذه المرأة غناء كل حدث في حياتها وتحويله لنداء وحشٍ في صحراء، تخلط البكاء بالزجل بذاك الصوت البدائي، يُثير الذئاب بقلب طفول، يُحرّض الدمع من المغني والسامع.

«ارحمي عيونك، يشهد الله ما من امرأة عاشت حياتها في شاردها وواردها مثلكِ، يكفي أن روضَّتِ الخَوي ذائع الصيت شهريار زمانه، يجوب صحراء الجزيرة، يهبط بحواضرها وبدوها، يعرس بالمرأة ويطلقها في صباحها، حتى وقع فيكِ فما قام..» ورمت بنظرة ساخرة صوب أبيها الأسطورة النائمة على الأريكة المقابلة، بوجهه يتوارى بشماخه المرقط بالأحمر، جسد فارق شموخَه ليصير ممصوصاً كعود قصب سُكَّر، وبدأت دموع الأم تسحُّ بمَشَاهِد ماضيها العتيد، على ترجيعات الهجيني غادرت طفول لا تلوي على شيء قبل أن يُفيق الغافي تحت شماخه ويلعب دور عنتر. خلفها بقيت بِرْكة من بخور طالعة من سواد خصلاتها.

للسيارة سبقتها سحابة العود، ولمعة للأظافر، كل مافيها يضوي، عينُ خان تخترق الطرحة الرقيقة لتحفر برأسها، سلوكه مؤخراً يُرعبها، منذ ما يزيد عن الشهرين انقلبت أحوال خان المطيع المهذب لتحوله لكائن غريب بعيون نارية، تشعر به على عنقها مثل قُرَادَة، وتتجاهل، عَلَّقَ لها وجهَه على مرآة السيارة الأمامية هكذا يحفر لما تحت جمجمتها ليقرأ ما يجول هناك، لا تعرف كيف تهرب بوجهها من تلك المرآة، أينما بَدَّلت موقعها على المقعد الخلفي تجد تلك المرآة تتبعها مثل عبادة شمس، حتى ألجأها لتغطية وجهها أينما ذهبت.

«وقف حال، خان هذا يقطع رزقي في ابناء آدم، أهلي لم يُفلحوا في ارغامي على تحجيب وجهي وخان نجح...» غرقت طفول في حلكة طرحتها، كلما أوشك صبرها أن ينقطع مدَّت في حباله.

«شللُ الأطفال قد يتهدد نسبة من مواليد العالم، أما في الجزيرة فتُولَدُ الإناث بصِبْغَةٍ وراثية تُقْعِدهن بكساحٍ مزمن، يَحْمِلُنا رِجَالُ العائلة لنكبر بلا أقدام حتى نستصدر فيزا باستقدام سائق، ليتدخل الحظ فيوقعنا في سائق موبوء بفيروس التَمَلُّكِ، تلك أعراض أدمنتُها في كلِّ مَنْ طَلَّقتُ مِنْ أزواجي...» وخان يُلاحقها مثل ذئبٍ مُجَوَّع،

«توقف عند مركز تسويق الدانوب..» أرادت لصوتها أن ينهض من فولاذ بينها وهذا الوجه الملحاح، زعقةُ كوابح السيارة عبَّرَت عن احتجاجه على خط سيرها، هبطت،

«انتظرني هنا...» شعرت بعينيه تتبعانها حتى تورات، اختطفت زجاجة العنب الأبيض برغوة، وتوجهت للحساب، حين رفعت عينها اصطدمتا بعينٍ بحجم واجهة مركز التسويق، شعرت بقشعريرة تغزو جسدَها، في لمحةٍ كان إلى جوارها:

«ماذا تفعل هنا، قلت لك أن تنتظر بالخارج...» لم يُجبها تحرك إلى جوارها مثل مالك،

«خان هذا لن يهادن، سيفضحني لامحالة..» تلك عادته، كلما دخلت محلاً وجدته أمامها.

«هذه كارثة لفرصتي في الصيد، أحتاجُ مساحةً لِيَتَنَفَّس جمهوري الذي يصولُ ويَجولُ حولي».

حين ولجت للمبنى المتعدد الطوابق حيث مكتبها بقي خان على الرصيف يرقب المدخل مثل حيوانٍ مجوَّع.

«سلوكه اليوم تجاوز الحد، نظرته تقاضيني، تُهَدِّد..» وتجاهلت

تلك النظرة.

في تمام السابعة سمعت الطرق الخفيف على الباب، سارعت تفتح، بياض الثوب شَقَّ في صمتِ المكتب، ما إن انغلق عليهما الباب حتى غيَّبَها بين ذراعيه، في لمحةٍ كانت في صدر عريض يفوح بعبق (جورجيو أرماني) لم تجد وقتاً للاعتراض أو... وكان الباب يطرق بجنون، طفرت من ذاك الصدر ووقفت على بعد خطوات من الباب، كلاهما في شلل، لم ينطق أيٌّ منهما، شريط من قبيلة كاملة العتاد والعُدَّة أمتد برأسيهما، توقف قلب طفول عن الخفقان، متأهباً لانفجار الباب واندفاع أخوتها والقبيلة لتعذيرها، عاد الباب يطرق، يد سلمان أصدرت الأمر القاطع لها بتحري الطارق، مرتجفة تطفو على قطنٍ تقدَّمتْ من الباب متوقعة أن ينفجرَ في أية لحظة وتدوسها أقدامُ رجالها الأشاوس، من العين السحرية اختلست النظرَ، وشهقت، أعادت النظر، لم تصدق هوية الواقف يطرق بذاك العنف والتَمَلُّك، ليس غير خان الباكستاني بعينين يتطاير منهما الشرر، شَعَرتْ برعبٍ حقيقي، في لمحة تَقَمَّصَ الزوجَ والأب وكان عليها خشيته، لاتعرف من أين طلع ذاك الصوت ومن وراء الباب، صاحت:

«من؟».

«خان».

«ارجعْ للسيارة وانتظرني». لم تسأل ما يُريد أَمَرَتْه بالرجعة، وَقَفَ هناك لدهرٍ ربما يُراودُه أن يقتحمَ البابَ ويُجرجرها مثل رجل كهفٍ من سواد شعرها، الدهشة على وجه سلمان تحولت لسخرية.

«تذبحين على غير قِبْلَة». على مؤخر عنقها أرسل سلمان نمله، لم تسمح لجسدها أن يرتعد، أية رعدة كفيلة بنقض أمرها لخان بالاندحار، ولم تُكرِّر طفول الأمرَ، جعلته قاطعاً مثل سكين، وبعد تردُّدٍ انسحبَ خان من العينِ السحرية، تحركت طفول للحجرة الداخلية وتبعها سلمان، شيء في جسدها تحول لاسفنجة تمتص الغبار والصمت وتختنق، فارقتها

حماستها للدفء الطاغي في بياض، في أعقابها تعمَّدَ سلمان إخمادَ الأضواء، وحين طواها إليه شرقت بعطره برعدة الخوف والتوق على النحر، فجأة، وفي العتم صار سلمان كائناً لزجاً، عَلَقَة تَتَشبَّثُ بالمرأة التي جفلت وقد فارقتها نداوتُها، تركت بينهما خندقاً لا سبيل لردمه، أسقطه عنها مثل دودة.

لحظات خاطفة من الخيبة وتحركت طفول صوب النافذة، كانت بحاجة لشق نورٍ في ذاك القار المتعاظم، ومن وراءها صَرَخَ سلمان:

«انظري، أليس هذا سائقكِ خان؟» من بين شقوق الستارة وعَبْرَ الطريقِ لَمَحَا خان واقفاً بوجهه لنافذتها، مثل شبكة عنكبوت مثل منجنيق يخترقُ المسافةَ والجدرانَ ليكشف لحظاتهما المرتبكة تلك، شعرت بالأصابع تسري تَتَبَّع الدقات المجنونة على وريدها، من الوريد للوريد سرت ولم تنجح في تأليبها صوبه، في كلِّ محاولات سلمان للتَقَّربِ لم تلتقط طفول ايقاعه، لم تعثر على قلبها الذي سقط في مكان ما بين دقة الباب وذاك الصوت الباكستاني يُكرِّر (خان خان) ويُهدِّد بالذهاب ليرجع بالأب والقبيلة، كل هذا بالإضافة لصوت مريم الذي اختار تلك اللحظة ليتجسد ويُذكِّرها بقَسَمِها (لن أسمح لأي كان أن ينظر إليَّ مثل تلك النظرة التي رأيتُها في عين فهد: نظرة لفريسة تُكافىء سكينه بالمزيد من الجسد!)، تبسمت ساخرة، طردَتْ صوت مريم بفكرة:

(حُضرُمٌ بانتظارِ نظرةٍ تقولُ: أنتِ إنسان أولاً وأخيراً!)، الانفراج على وجه طفول أجَّجَ بخاراً برأس سلمان، شعرت طفول بقطعتيّ مطاط تُطبقان على ذقنها، في البدء جاءتا من مسٍّ رقيق يُشاغل، ثم فارقهما الدفء ليترك مساحة للإلحاح للحفر والنزح، صارت على يقين أن كدمة ستبقى في تلك البقعة حيث قضمت، قبل أن تبلغ الكدمة شفتيها دفعته خارجاً:

«ما بكِ!!» ومن وراء الباب جاء همسه:

«لا تتركي لمُسْتَخْدَم لديك أن يُفسد لحظتنا...» لكنها بقيت في العتم

مثل خفاش يتلقط ذبذباتٍ من أجساد المدينة، تشحنه فوضى عارمة، ذعرٌ، من حقيبتها تناولت حبة وفي لحظات بدأ الزحام ينحسر.

لا تعرف كيف انفتح حولها الليلُ وطُرقات جدة، لا تعرف كيف احتملت العين في الجمر في المرآة، لا تعرف كم ثقباً انفتح بقلبها وهي تخترق في ليل المدينة شمالاً، كلُّ طريقٍ جانبي معتم يفتح احتمالاً بانعطاف خانٍ بالسيارة، كل أرضٍ فضاء متآكلة الأسوار تفتح إغراءً لخان بولوجها بفريسته، أيُّ فريسة سهلة كانت طفول في رحلة الإغراءات تلك شمالاً! كلُّ اغراءاتِ الطُرُقِ انفتحتْ عليها، حتى وصلت، محوطة بسور بيتها تجسد الفولاذ تحت جلدها، في صمت الكراج كان خان طالع لتوه من السيارة حين سدَّت طريقَه، عِرْقٌ في الصدغ الأيمن اختلج بوجه الباكستاني، أَمَرَتْه:

«هات مفاتيح غرفتكَ والسيارة، أجِمعُ حوائجكَ وغَادِرْ، لن تعمل هنا بعد اليوم!» عدا الضخ في العِرْق على الصدغ لم يَطرفْ له جفنٌ، تَأمَّل فيها بوقاحةٍ عجيبة، في تلك النظرة رأت طفول أشباحاً تراجع تَجترُّ فكرةَ الإطباق عليها، رأت شيطاناً ينهشُ جسدها، مرَّ الشيطان من رأسها لأخمص قدميها، لم تتزحزح، أغلقت على الرعب عميقاً تحت طبقة الفولاذ وردَّت تلك النظرة، أينما زحفت تلك النظرة أجَّجت لافا وزلازل تُهدد بالإطباق على الباكستاني، لولا بنيته العظيمة والكفيلة بطمسها بضربة، تماسكت طفول مُسْتَجمِعَة كلَّ براكينها في تلك الوقفة، لا تعرفُ من أين أسعفها كلُّ ذاك الجبروت في تلك الوقفة! ببساطة كان بوسعه الالتفاف وخنقها في ذلك الكراج تحت بيتها، لاحائل بينهما غير الصمت، بينما في الأعلى كان مُجَمَّعُ بيوت الإخوة يغطُّ في نوم عميق وغفلة، لا أحدَ يَخْطُرُ له عبور الحدائق لبلوغ بوابة الكراج، وحدهاً مع خان حيث لن يُعْثَر على جثتها قبل الغد، وكان عليها أن تبدو مُخيفة تماماً ليرضخ، لم يتفوه بكلمة، تراجعتْ نظرتُه ملتحمة بالأرض تحت قدميها، ولهناك،

قَذَفَ بحَفْنَةِ المفاتيح وغَادَرَ، هو أيضاً استجمعَ جبروتاً لكبح شيطانه والتراجع.

ضغطتْ طفول زِرَّ بوابة الكراج لتنغلق، ببطء شديد انزلقتْ وفي كلِّ ثانيةٍ توقَّعَتْ يدَه تنحشرُ في البوابة وتدخل لخنقها. وقفت هناك وبجسدٍ من فولاذ يقطع ولم تعرفه من قبل، حتى انغلقت.

في طريقها للفيلا الصغيرة التي تضمها ووالديها كمنت لها ظلالٌ، تَقَصُّفُ غصنٍ أرسلها تعدو، وصوت داخلها يُحذِّر:

«لا يجب أن تأمني، قد يَتَرَصَّدَكِ في أي مكان، يحفظُ طريقَكِ وعاداتكم، يعرفُ أنكِ ستدخلين وحيدة وتعبرين هذه الجلسة، وتجتازين حجرة العجوزين النائمين، وصاعدة تتركين خيالك على زجاج النافذة العريضة هذه على السلالم، وتنتهين وحدك لحجرتك في الطابق الثاني حيث تبقين وحيدة حتى صباح اليوم التالي...» أينما تحركت طفول أوصدت، باب الجناح الخاص بها، باب حجرتها، باب الحمام المشرع على حجرتها، لم تجرؤ طفول على ولوج مساحة السيراميك الصقيل تلك، أزعجها تخيل دمها يجري على أرض صقيلة لاتشرب كتلك، تاقت لحفنة ماء تمحو ما كان على وجهها، لكن فكرة ولوج الحمام أرسلت شظايا تحت جلدها، طوحت بحذائها الأنيق،

«لأرمح مثل غزال فيمالو...» هدهدها وبرُ السجاد بين أصابع قدميها، من ركن المكتبة تناولت مقصاً كبيراً، دسَّته تحت الوسادة، عَزَمَتْ،

«حين يدخل سيجدني بانتظار». فكرة التجرد من الثياب أرسلت قشعريرة بجسدها، بكامل ثيابها اندست في أغطية سريرها، ديكٌ بعيد كان يستبق الفجرَ بالأذان، ويُرسل رهبة في الليل اللامبالي، احتمت بالأذان البدائي، وجدت فيه رفيقاً، صارت تترقبه كل عشرين ثانية يصيح صيحة ويخمد، كل خمس صيحات يأخذ استراحة، تكات الساعة على ركن المكتبة تُلازم الأذان تحبسه في دوراتها، ولم يغمض لها جفن، في كلِّ

اختلاجةٍ للنور، في كلِّ تَكَسُّرٍ لعتمِ الليلِ توَقَّعَتْ خان يَقتحمَ النافذةَ أو البابَ مُندفعاً للانتقام...

****

«طفول، أمنشغلة بتدريبِ اليوم؟». تكرر ظهور طفول بروضة مريم لتدريب الأمهات المنضمات لبرنامجها الخاص

«لا، فقط أم واحدة، وكلفتُها بمهمة تستغرق ساعات لتسجيل قائمة بالألعاب الإدراكية المناسبة لطفل الرابعة، أنا اليوم على مقام الصَبَا...».

«احتاجُكِ، دَبَّرتُ مهمةً خارج الروضة، قلتُ أننا بحاجةٍ لكتبٍ وَصَلَتْ حديثاً بمكتبةِ المأمون، تنوبين عني في انتقاء الكتب بينما أقوم بزيارة خاطفة، لساعة، نادي سائقك...».

«سائقي؟ أنا اليوم ربي كما خلقتَني عَالَة على الجميع، سَبت ورَبْط! ألم أخبركِ كيف طردتُ خان، سَرَّحتُ سائقي كمن يقطع ساقيه وينتظر من يحمله...» غريبٌ هذا السبت الثامن عشر من يونية 2004، يجيء مثل استراحةٍ بين ذروتين، مثل وقفةٍ في الوقت،

«أجننتِ تستغنين عن سائق؟ ما الذي حدث...» وحكت طفول مغامرتها الختامية مع خان وختمتها بعبارة:

«سَامَحَكِ الله يا مريم، تحتَ وَقْعِ كلماتِكِ ومراقبة السائق الباكستاني تحوّلتُ لبُنوكيو، لقد أفسدتِ عفويتي في إطلاق العنان للدمية لتحيا، انتهيتُ حصان سباقٍ كُسِرت ساقه لا بد من إطلاق رصاصة الرحمة عليه. في لمحةٍ وجدتُني أفتحُ البابَ لأدفع بسلمان خارجاً. أطلقتُ الرصاصةَ ومات قلبي».

«تُذكرينني بفيلم سي بيسكيت، ربما لستُ متحمسة للسباقات لكن فكرة الفيلم المحورية تقوم على أهمية حفظ الحياة، وأنه لا يجب أن نتخلص من حياة بأكملها لمجرد تعرضها لبعض الصدمات، والعَطَبَ مهما

بدا عميقاً فإن ذلك لا يُبيح أبادتنا للجسد المعطوب، وأن من الحيوي معاودة البناء من ذاك العَطَب».

«ليس هناك عطبٌ لا يمكن ترميمه، كلنا قابلون للترميم».

«إلا خان كان لابدَّ من إطلاقِ رصاصة الرحمة على رأسه في نفس الليلة وقبل أن يتصل بأحدٍ يعرفني».

«كان يجب أن تُبْلِغي أخوتكِ...».

«بماذا؟ أجننتِ، ليلتها كان يجب أن يُغادرَ خان فوراً دون فرصةٍ لِلُقْيَا أيٍّ من أخوتي، تَخيَّلي ما يُمكن أن يُبْلِغَهم، يا إلهي، تخيلي تقريراً عن تحركاتي....».

«كوني متيقظة، لا نعرف ما يمكن أن يفعل». وتَعَكَّر وجه طفول، أضافت،

«أتحرَّكُ بهذا الشعور بالانقباض، عزَّزَتْه هذا الصباح صُورُ الإرهابيين الأربعة، يُثقِّب أجسادَهم الرصاص...».

«للموت قناعٌ يلبس الوجوه لكي تُشبهه، لم أرَ في تلك الصور ما يُشْبهُ أصحابَها الأحياء المنشورة في وسائل الإعلام ومنشوراتِ مكافآتِ القبضِ عليهم».

«لكن جَدَّتي تُؤكِّدُ بأن مَلاكَ الموتِ عزرائيل من أعظم الملائكة بهاءً، وهي مرجعٌ موثوق في ذلك وقد رَجِعَتْ من الموتِ للمَرَّةِ الرابعة...».

«لا أُصَدِّقُ أن تلك المرأة تموت...».

«يظهرُ أن عزرائيل يوافقكِ الرأي... والآن دعينا من الموت والملائكة، لنطلب سيارةَ عفاف...».

كانت زميلتهم مُحاطة بالصغار في ركن الملعب الخارجي، لوجهها شحوبٌ بهي، مستسلمة للصغار يتنافسون على دفنها في الرمل حتى الخاصرة.

«أنا استشفي فلا تكلموني، سخونةٌ لذيذة لهذا الرمل، أنا لم أرَ فراشاً

منذ ثمانية وأربعين ساعة، جئتُ من المطار للروضة مباشرة لينتظرني مزاجُ السبت الوعر». بعناءٍ انتزعتاها من حضَّانة الرمل تلك، جاءت وفاء لِتَحِلَّ مكانها في اللعب،

«البارحة بالرياض كانت ليلة غريبة، كنا نحتفل بسفر صديقتنا المقترنة بأمريكي، عاشت بالمملكة عشرين عاماً لتضطر الآن للمغادرة نجاةً بحياتها، أنا اضطررتُ لتأجيل عودتي لجِدّةٍ لفجر اليوم، المهم، كنَّا في خلاط كهربائي، من أنباءِ ذَبْحِ بول المُدَرِّب على طائرات الأباتشي الأمريكي، مترافقة بأنباء مُحَاصَرَةِ جماعةٍ إرهابية، بفوضى الحفل، ومباريات كأس العالم بالبرتغال، ونهائيات مِسْ ليبانون! عبد الله أخي يعملُ جَرَّاحاً بمستشفى قوى الأمن بالرياض، كان يتعشى معنا حين جاءه النداء، بدأوا الإنذار بالبرتقالي ثم رفعوا دَرَجَةَ الخَطَرَ للأحمر، لم يكن مناوباً، مما عزَّز لنا فداحة ما يجري ويضطرهم لاستنفار كامل الفريق الطبِّي، أضطر لمغادرتنا ليلتحق بالمستشفى، شَعَرنا بأن مذبحةً تجري، كنا نتحرَّكُ بأعيننا لشاشة التليفزيون، ثم جاءت أنباءُ العثورِ على جثة بول مذبوحاً بأحد أحياء الرياض...» أضافت مريم، «التأهب العام تأكد بظهور الجُبير على شاشات الفضائيات مؤكداً التصفية الوشيكة...» تَلَقَّفَت عفاف كلمتها مستجيرة بحركةٍ مسرحية،

«يشهد الله طلعة الجُبير ما رَمَتْنا إلا جِنَّا، بنات نجد وتوابعها...» وشارَكَتْها طفولُ برفع أعينهما للسماءِ استجارة من الفتنة، مثل كورس رَدَّدت طفول، وشَارَكَتْها طفولُ برفع أعينهما للسماءِ استجارة من الفتنة، مثل كورس رَدَّدت طفول،

«يا بَعَدْ عمري، وبَعْدُه ما عَرَسْ؟» لتجاوبها عفاف بتضخيمٍ للعذوبة والحسرة،

«بَعَدْ، بَعَدْ ما عَرَس، مستشار مولاي، يا جِعَلْني فداه أنا وهَلَي...».

«عسى جايحةٍ تِجِسّ بنات نجد ولا ياخذونه...» تحوَّلتا لتلك الوصلة

النبطية للتعبير عن الاستلاب الكُلّي،

«وحَق خالقه، يِسْدَحْ ولا يِدَاوي». أكملت عفاف لكأنما تَتَجَلّى بالتعب،

«صَحْ لسانك يا الفازعة!».

«إيه والله، ظَهَرَ يا النشمي، في بَدْلَةٍ تِلالا، عساه ما شَقَّها ريح ولا لِحقها بِلَى،

جَافًّا ريقه، ضَارْبَتْه حُمَّى، يا جِعِلْتْ حُمَّاه وريقه...»

«وعَمَاه بَعَدُ وطِرِيقَه...» نوبةٌ أخرى من الضحك لتعود للجدية.

«الجبير ياعساه يجبر قلبي، أكَّدَ أنباءَ حصارٍ يجري بأحد أحياء الرياض، ثم، ومع الفجر جاء زوجُ أختي ليحكي لنا تفاصيلَ عجيبة، قال إن رجلين من القوات الخاصة توقفا عند محطة للبنزين، أرادَ أحدُهما شراءَ سجائر، في البقالة الصغيرة كان يدفع حين لَمَحَ زعيمَ الإرهابيين واقفاً هناك، أخرجَ مسدسَه...؟».

«مروان أخي يقول إن هذا وباء لا يُطهره إلا الاجتثاث البيئي كما حدث في مصر وسوريا، هنا من المستحيل تطبيق هذا وإلا اضطرت السلطات لاجتثاث كامل الجنوب وتسعين بالمئة من الوسط...».

«هذه قضايا تفوق استيعابي، المهم، أرأيتم ملكة جمال لبنان، ألم أقل لكم هذه سنة الدم الخليجي؟ نادين هذه دمها والله خليجي، تصلح لتكون مِس سوديا آرابيا».

«ما خَسَتْ إلا هي، أنا طفول ما سواي .Miss SA، لو ترشَّحتُ ما خَلّيتها لغيري!».

«ولو ما خَذُوكِ رَمَحْتِ مثل لاميتا؟ يا حِلِيلها الوصيفة الأولى رَكَضَتْ رَكِضْ رَامْيِتِنْ في وجوههم الروحَ الرياضية».

****

طفول وعفاف غادرتاها أمام مدخل العمارة وأسرعتا لإنجازِ مهمتهم المشتركة بالمكتبة، لم تشك أي منهما في مبررات غيابها في ذاك المبنى.

«طَلَّقَتْ ناديةُ زوجَها الرابع والنصف، وعلى شفير انهيارٍ عصبي، تحتاجني الآن». لم تبتكر شيئاً من ذاك العذر فقط حقيقةَ أن نادية تُقيم بذاك المبنى.

«بحساب الأعداد هذا أكونُ قد طلَّقتُ أربعةَ عشر رجلاً، أربعة دون دخول وفهد بعشرة وادخلوها آمنين...» المرسيدس التي طاردتهم منذ مغادرة الروضة شغلتْهما حتى عن إلقاءِ نظرةٍ على المدخل حيث اختفت.

«رقائقُ الذُرَة المُسَمْسِم هذا يصلح لآكله بالحليب على الإفطار». لوعةُ طفول فجَّرَتْ لمعةً في العربة:

«يا إلهي تتحدثين كمحترفة...».

«ما بقي لنا غير الكلام فخلّوني فيه أرمح». لتُؤمِّن عليها عفاف بلازمتها الشهيرة،

«الحقيقة!!»، المُطَارِدُ الشاب كان يُلوِّحُ لهما في تلك اللحظة بإعلانٍ بحجم ذراع عن رقمِ هاتفه.

كانت قد حدَّدَت الساعةَ التاسعة والنصف للقاء بدر في الشقة، الساعةُ على رسغ طفول أشارتْ للتاسعة. انفتح بابُ الشقة وهبَّتْ تستقبلها رائحةُ الأوركيد، من أجنحةِ طيرٍ ترفُّ حولها، شوقٌ جارفٌ للمكانِ اعترَاها ما إن اجتازت العتبة. بَسَطَ المكانُ سَكِينَتَه متأهباً لاستقبالها، تَجوَّلَتْ في تلك السكينة تَتَخَفَّفُ من فوضى البُعْدِ عن هنا، اختناق الانفصال عن هذه المساحة، دارتْ تروي النباتات، حفيفٌ مسموع لتلك الأغصان تُحاورها.

«تنغلقُ الطُرُقُ لرجعتي لهنا، وهذا يُجَفِّفُني، أنا أيضاً احتاجُ سُقيا، مرَّة في الأسبوع لا تكفي، أنتَ نبات مترعٌ به، لا تجف أبداً، إذا خَامَرَكَ فيضُ الماءِ تموتُ، لأنكَ تغتذي حضورَه، تَعَلَّمتَ الصوم عن الماء متزوداً

بحضرته هنا».

«وحَضْرَتكِ التي لا تغيب..» حركةٌ في الأوراقِ الكبيرةِ بحجمِ وجهِ طفلٍ أكدَّتْ لها أنها تأكل من حَضْرَتِها، ضَحِكَتْ:

«آكلةُ لحوم بَشَرٍ... لم أعرفْ أننا تورَّطنا في نباتٍ جَارِحٍ..» لملمت الأوراقُ وجوهَها لتلك الضحكة.

على المصطبة حيث كل روائح بدر ينامُ ذاك الكتاب المفتوح على وجهه عن الفنان الألماني (مونخ بكلماته)،

(Munch, in his own words)

تناولت الكتابَ تقرأ حيث بَلَغَ،

(Everything is motion - everything lives in stone - in crystal - in air, in man kind.)

(كلُّ شيء هو في حركة، ونارُه تُوجَدُ حتى في الحَجَرِ. هو يحيا في الحجرِ، في الكريستال، في الهواء وفي بني البشر).

(لهيبُ الحضارةِ يموتُ ليُعَادَ يُوْلَد، مثل ومضة تُقْدَحُ، تحترقُ بهدفِ أن يُعَادَ إشعالها - تحيا - تموت، في مكانٍ آخر، شرارةٌ تومض تخفق من بعيد ومهيأة للقدح).

قرأتْ مريم تلك العبارة لوجوه النبات التي مثل سحنات أطفال خضر، بدا لها أن الكلمةَ كبيرة وأن الوجوه الخضر لم تفهم، أعادت تفسير الكلمات بمعانيها هي:

(أحلامُنا، كلماتُنا، مثل جوهرة صغيرة، تحترق بهدف أن تحيا من جديد، تحترقُ كلما ارتجفت تَخْلقنا لِنَخْلقها).

«مثلي، مثل جوهرة صغيرة ومهيأة للاشعال أجيء هنا...» من بعيد جاءت موسيقى تسعى، كفوهةِ بربخ عظيم في لحظةِ الخلق انفتحت موسيقى فخمة من أصداء قيعان المحيط، تبدأ عميقاً من آخر الأرض

لتنتهي تحت الأقدام وفي الصدر، اندلعت في صدر مريم الموسيقى، تَلَفَّتَتْ حولها،

«من أين جاء طوفان الموسيقى؟» تَرَكَّزَتْ شكوكُها على الشاشة بآخر المكان وبعرضِ الحائط المحاذي الباب، على اتساعِ الأبيض كان ظلٌّ لوجه امرأة، هو وجه مريم يُسقِطه جهازُ البروجيكتور، مجرد ظلّ يُظْهِرُ جانبَ الوجه الأيسر، تعرفُه، هو ظِلٌّ جانبي لوجهها، تَذْكُرُ كيف تَتَبَّعَها الفنانُ الباريسي على الجسر العابر للسين صوب متحف اللوفر للإمساكِ بظِلِّ وجهها، بعنايةٍ وَقَفَ في ذَهَبِ الشمس الباريسية يقرأ خطوطَ الظِلِّ ويَقَصُّ، حتى خرجَ ظلُّ وجهها بين يديه مثل أرنبِ بريٍّ تستدرجه خارجَ جُحره الشمسُ، وقَدَّمَه لها، الآن هاهو بدر يُعِيدُ بَعْثَ ظِلِّها ذاك على الحائط، ناظراً أبداً صوبَ الباب، يُبيحُ له مساحةً ليُفلتَ في شوقِ الخارجِ. على الظِلِّ ظهرت تلك النملة تسعى، كبيرة بحجم عُقَلَةِ إصبع، ظهرت من أسفل ركن الشاشة الأيسر عابرةً بتأنٍّ وجهَ الظِلِّ مِنَ الذقنِ للصدغِ متجاوزة مَسَاقِطَ الخصلات لتتوارى بأعلى ركن الشاشة الأيمن، مع تَقَدُّمِ مسيرتها كانت أصداءُ قاعِ البحرِ تتصاعد، حتى توارت وغاب صوتُ البحر، شعرت مريم بدبيبِ تلك النملة يسعى بخَدَرٍ على وجهها.

«من أين يجيء النمل؟ انتهز غيبتنا ليسري في المكان». وقفتْ تتأمل أين توارت تلك الحشرة، ولم يكن غير الصمت يمتدُّ في صبيحة المكان، خُيِّلَ إليها أن النملة طالعة من مخيلتها، كادت تستديرُ حين ظهرتِ من جديدٍ تلك النملة، تستدرجُ وراءها أصداءَ البحرِ عابرة ظِلَّ وجهها من الأُذن اليسرى للعنق لتتقاطع مع النملة الأخرى التي عاودت الظهورَ من مكمنها بالركن الأيسر، حتى تلاشى النمل فتلاشت الموسيقى، خَامَرَ مريم أن النمل يسرى بالمكان يسوق أمامه الموسيقى لمخابئه، أخذت تُفتشُ في الجدار عن جُحرٍ تسلكه تلك الحشرات لظِلِّ وجهها الجانبي، لم يكن في الحائط مِنْ ثُقبٍ، تأمَّلَتْ طويلاً في النورِ الساقط على الحائط من جهاز

البروجيكتر، لكأنها تنظرُ لقلب الحائط،

«الحائط مسكون ببيوت النمل، برحلات للنمل، الحائطُ حين ينصتُ تسكنه الموسيقى».

تأملت في رحلات النمل التي تظهر وتتلاشى،

«الصورة ثابتة، بينما وفقط هذا النمل يسري... ليست بصورة فيديو، هي صورةُ وجهها ساكناً بينما قلبها في ديناميكية مذهلة وبموسيقى تصويرية. ما التقنية التي تسمح بتحريك القلب وتسكين الظاهر؟» فَكَّرَتْ أن جسدَها يُعاني ذاتَ التَخَفّي.

«حواسي لا تجرؤ فتغيب في حضرتِه، هاهو سمعي الذي يُفارقني بلا هوادة يَحتدُّ، يُفارقني شبحُ الصمم، يصير بوسعي سماع دبيب النمل بقلب الحائط. عليَّ ملازمة بدر إن شئتُ أن يندحر الصمم خارج صندوق رأسي».

تركتْ للشاشةِ أن تَطغى في الخلفية وتحرّكتْ صوبَ المصطبة، بين الوسائد روائحُ بدر، رائحةُ دهن العود تترك مجالاً من الطاقة، كلَّ مساءٍ ما إن يدخل حتى يبدأ فيُبخِّر من خشب العود ليسكن تلك الوسائد، يستحضرها ويترك لها أثراً تتبعه إليه وقتما جاءت، دسَّتْ أنفَها في المجال يُدغدغها.

«بوسعي تأجيج حساسيتي للعطر وطمس وجهي ببثور من رائحته، منه..» طويلاً استرخيا على هذه المصطبَّة، في لملمةِ لشوارد الطاقة، قربهما يُؤجج إشباعاً بقدر ما يؤجج جوعاً.

«حين نلتقي جسداً وروحاً تتولد طاقة كفيلة بدفعنا في الفضاء، بتوليد مجالات لا تُطاق». بين الوسائد ديوانُه الأخير (من الحيِّ)، قَلَّبَتْ صفحاته، استرعتها عبارةُ (اجعلْني شَرْبَةً من ماء الحي)، يدور حول صلاةٍ صَلَّتْها يوماً في نومها، في وحدتهما على الطرف الأخير للبحر الأحمر، أكَّدَ لها ذلك يوم صدوره. والآن فيه من الحنين ما يُغشي بصرها، لتلك اللحظات وفقط جاءت لتفرح، خَلَّت الديوانَ جانباً.

على طرف المصطبة كان قرآنٌ مُطَهَّم، تعرفه يفتحه كلَّ جُمعَةٍ على سورة الكهف ويُخرج المزيد من ظلماتها الحميمة ويُحَوِّطها مثل جنين في رحم، مثل نائم دَهْريّ يستجمعُ شبابَه، توقَه، للانبعاثِ الأبدي.

ما أن مسَّت المصحَفَ حتى بَسَطَ لها فاتحتَه، مُطَهَّمة هي الكلمات بقناديل حُمْر، بتشكيلٍ مُذَهَّب:

«هو هدية من أمي، دسَّتْه بين يدي على فراش موتها، وأوصت: تقرأ فيه وتُرسلُ من أرواحه لإيناس وحشة قبري، لتعلية غرفاتي في عدن».

عرفتْ مريمُ الورقَ الأزلي،

«هو مصحف مكتوب في أزل، على لِحَاءٍ من طوبى شجرةِ عَدْن، وإلا فمن أين يجيء بهذا العطر السماوي الذي يسري مثل سِرٍّ لقاعِ النفسِ ويرفعها بطِيبه». لم يسبق والتقت مثل هذا العطر، في طِيبِ قرأتْ:

«مالك يوم الدين. ما الدين؟ ومايومه؟ لكأن يوم الدين هو يوم لا يجيء في آخر الزمان إنما هو يوم قائم فينا منذ الولادة، هو يوم من لحظةٍ بعمر دهر، لحظة العقيدة، لحظة تنظرني أنظرُ إليكَ دنيا وآخرة، لحظة تجسد الأعظم فينا مثل صراط نعبره في كل ثانية في كل خيار نأتيه فيعبر بنا للدَّيَّان أو تبتلعنا هوةُ الغفلة عنه، مع كل خيار يُوزَنُ الديانُ فينا، يُنصبُ الصراط إليه فإما أن نعبر أو نهوي، إما أن نراه في لمحةٍ أو نعمى، الديان هو مقَطِّر الدنيا والدين، وقفةُ الاختيار وصَعْقَةُ الرؤيا، كيف نأتي تلك الصعقة كيف نُربيها لتتجسَّد في أجسادنا وبصائرنا، مثل ماء يَقْذِفُ بقوسه، يطلع من مرابض الحي بظهورنا ويأخذنا في نشوة لا تحط حتى تُولِّد وتتوالد وتنصب عروشها، فإذا خاننا استنباط الماء/ العرش في اللحظة، كلَّ لحظة، انغلقت علينا السبل وليس غير الهوة، الجفاف لا يليق بنا».

احتاجتْ وجودَ بدر الجسدي لتطرية مسامها، بنظرة يمكن أن تُترع، تعرف مريم ذلك، كلمة منه، نظرة كفيلة لترويها.

راجعها حوارُهما حول الوصول، يومها قالت،

«لا تُخرجني منكَ ولا تخرج، واصل قيامكَ فيَّ، لا أعرف كيف أصوغ هذا الذي يعتريني فيكَ ومنكَ... ربما لأننا حين نريد الوصول من الخارج تطول الطرق وتضل، لا وسيلة للوصول إلا من الداخل، من باطن الباطن. اكتشفتُ أنني، حين أركع في صلاتي، وأُسَبِّح العظيم، أشعر بكلمتي تسلك طريقاً يلهو ويتشتت ولا يصل للسماء، حتى أحبس العظيم في جوفي مع النَفَس، أنفث من جوفي لجوفي، أغمض عيني وأرسل بخار الكلمة المحبوس كما دخان بجوفي، عندها أشعر ببخارها يتجمع في قبة بمنتصف حجابي الحاجز، وأشعرُ بالعرش يتجسد في نقطةٍ بقلب تلك الدائرة مُعَلَّقاً بجدار ظهري، ربما من منبع الأجنة فينا، عندها أبلغه ببخار الكلمة لا بصوتها، أراه ويراني يُغَيِّبُني عني».

على طاولة الإفطار العالية استرعاها الخزفُ طافحاً بثمار المانجو الضخمة، مترعة بالأحمر والأصفر، لفرطِ كمالها تُوحي بثمارٍ اصطناعية، خَطَرَ لها أن تُعِدَّ لطقس صيفِ صباحي، لا تُريد لحواسها أن تنسى ما تُبيحه هذه الشقة، هذه اللحظات من إعادةِ تخليق المُعَاش.

اتجهت لخزانةِ الثياب، في كل خطوةٍ تُسْقِطُ ورقةً من ورقِ التوت، حتى تجرَّدَتْ من كاملِ ثيابها في المسافة للخزانة، بينما النملة لا تزال تسري بأصداء البحر على الظِلِّ، وَقَفَتْ للمرَّةِ الأولى عارية في تلك المساحة، وتحت وطء قدميها دَبَّتْ في جِلَدِ الحَيَّة الأكوانَ سارت تسري بالمكان صوب غيبة، سَكْتَةٌ أوقفت تنفُّسَ النبات والكتب والأرفف، تَمَدَّدت شفافيةُ حائطِ العرض لتفتح كاملَ جدران الشقة وتسمح للعالم بالتلصص على تلك المشية، مشية حواء في عدن.

ما إن فتحت الخزانة حتى غَمَرَتْها بفوحِ عطرِها متمازجاً بدُهنِ عوده، بِضْعٌ من ثيابها يَتَمَاسُّ ويندسُّ عميقاً لثيابه في كتمانِ الخزانة، هي ثيابٌ لم تُمَسّ مِنْ قَبْلُ، موقوفة لتأكيد انتمائها لذَكَرٍ وانتمائه لأنثى. تناولت ثوباً من حريرٍ أبيض شفاف، أقرب ما يكون لوشاحٍ لا تربطه أزرارٌ ولا خياطة فقط

عقدةٌ على الكتف الأيسر، انسدل البياضُ الشفيف ليُحيلَ الجسدَ لنورٍ طالعٍ للتو من معبده، لايطرد العينَ بقدر ما يُغرقها بجريانه. بكتف عارٍ وكتفٍ يترقرق بماء البياض سَرَتْ مريمُ في المكان، كان بوسعها التجوال هكذا لخاتمة الوقت، مستجلبة جريانَ عيونِ الأرض عليها، غارقة هكذا في تَرَقُّبٍ لحظةِ إطلاله عليها، بكتف عارٍ جلست لطاولةِ الإفطار وانشغلت بتقطيع المانجو، حلاوةٌ شَرَّتْ من أصابعها تَلَقَّتها باللسان لتزحف بطول الرسغ للمرفق، رجفةٌ سَرَت بذاك الوجه تُلطِّخه حلاوةٌ استوائية، اشرأبت أذناها مثل أرنب بري، بحواسها صوب الباب حيث جاءت تلك الحركة الخافتة. كانت التاسعة والربع حين دارَ المفتاحُ في القفل وتَوَقَّفَ قلبُ مريم لِطَلَّتِه المبكِّرة،

«أون أون أون...» كانت على طرف لسانه وماتت، لتجاوبه مريم،

«أون أون أون...» لكن أون ماتت على شفتيه، بنظرةٍ واحدةٍ أَدْرَكَ النداءَ: الثياب ترسم خطاً متقطِّعاً مثل ضربات قلب، فردة حذاء وأخرى، قميصٌ بقبة عالية، ذيلٌ من زهرٍ واسع، خطفة دانتيل وساتانٍ هنا وأخرى من قُبَّتين هناك، صراطٌ من حرير عنكبوت، نثارٌ يلهثُ في حجٍّ في حشرٍ صوبه في طوافٍ به في غيبةٍ بالبياض يترقرق ويُغري لعمق العمق، رائحة الحلاوة الاستوائية، الكتاب المبعثر على الوسائد، النملة تسعى من خيالها لجذعه هبوطاً، لمَقْتَلٍ من قلبه.

أيهما طَوَى المسافةَ للآخر، أيٌّ منهما لا يعرف، المسافة انخسفت بغتة وألقتهما معاً في ذاك الالتحام، ثمرة مانجو عُصِرَتْ بين ذراعيه ولحواسه، انطوى لها أعمق وأعمق، كلُّ ما فيها عصارة كثيفة معطرة، بينما شيءٌ في أضلعه تَقَصَّفَ، مثل انكسارٍ للقشرة الأرضية لأعماقها المنصهرة، مثل زلزالٍ يجيء بعد طول جفافٍ وتَمَاسُكٍ للسطح الرقيقِ، صهارةٌ ما بينهما. بألم انتزعها من جسده، وبحشرجة تَتَهدَّجُ رَدَّها أبعد أقرب، لم تعد تعرف أو يعرف أين وإلامَ.

«أوه أنت تقتلينني...» واندلعت جيوشُ نملٍ لم تُبْقِ ولم تَذَر من الجماد والحي غير تلك الأصداء الكونية يُرجِّعها جسدٌ في المرآة.

«كمن يلتقي وجهَه، كمن يدخلُ جسدَه، ويرقب العالمَ واحداً متوحداً، كما لا يحدث إلا في حُلُمٍ.. إلا في قبرٍ جماعي...» كلُّ ما في المكان يتهدَّج، مِنْ طولِ انتظارٍ،

«كم من الأسابيع حَجَبْتِكِ عني؟ ثلاثة أربعة؟ كلُّ يوم أجالسُ شوقي إليكِ كدهرٍ، لكن ذلك لا يجب أن يدفعنا لحرق ساعتنا الأولى». تأمَّلَ فيها، غابَ:

«ساعة واحدة لا تكفي، حين يجيء ما يجيء بيننا لا يمرُّ كسرقةٍ صغيرة، يسرقنا ولا نسرقه...» جَاهَدَ لالتقاط أنفاسه، لكن قلبَه ظَلَّ في غَرَقٍ عن نجدته،

«يجيء... ربما كاحتلالٍ تستغيثُ منه حتى الأرض، بصراعات للإبادة والتحرر....» تَرَجَّعت الكلماتُ تُهَدهد الإيقاعَ عبثاً، كلماتٌ تُدافع كلماتٍ.

****

«سَبتٌ ورَبْطٌ!» هذا ما أعلنته طفول؟ لكن عزائمَ ذاك السبت انقلبت لِفَكِّ الرَبْطِ عن عنق مريم، عن مُخَيِّلتها، عن توقها للوجود، عن حياتها في عَلَنٍ. السبت التاسع عشر من يونية 2004 وبعد مايقارب الثلاثة أعوام من التيه خرجت مريم عن وَقْفِها.

في رجعتها من الروضة وزيارةِ بدرٍ ظهيرة ذاك السبت، أفرجَتْ مريمُ عن الورقة التي تقرنها ببدر والتي طال صمتُها، حين عرضت الورقةَ بُهتت والدتها، تَسَارَعَتْ تَكَّاتُ الساعة على ركن السرير بين حشد الأدوية، في حجرة والدتها لاتسترخي الساعات أبداً لا تلين تُسابقُ عُمْرَ المرأة التي تشيخ سراعاً، ديكٌ بعيد كان يؤذِّنُ خارج فَجْرِهِ،

«تعرفين، ليس بوسعكِ إبراز هذه الورقة لأيِّ كان، ستنقلبُ الدنيا

على رأسِكِ». لم تتمالك مريمُ ابتسامتَها، طريفةٌ تلك العبارة، ترسمُ الدنيا حقود وعلى ضِيقٍ، دُنيا تُخلّي مشاغلَها وأحوالَها لتجيء تجتمع على رأسها، لم يكن في صبر الأم مساحة لتلك الابتسامة.

«لامجالَ للهزء هنا، علينا أن نُعيدَ كتابةَ هذا الكتاب وربطَ هذه العقدة، أمستعد هو لذلك؟» اتسعت ابتسامتُها ولم تُجب بغير هزة للرأس المُهَدَّد بوقوع الدنيا،

«حسناً، سأهبط الآن لمفاتحة مروان، هذه مسألة طال تعليقها». تحرَّكت بعزيمةٍ صوبَ الباب، وهناك ألقتْ بنظرةٍ أخيرةٍ على مريم. شعرت مريم بشفقة تغزوها صوب جسد أمها الممصوص، تخيلت اجتياز ذلك الجسد للباب الزجاجي في الأسفل، اختراقه لسحب البخور، لمعارك مروان المعلقة مع طواحين أسطورية تخترق في أزمنة ضوئية كونية لتعبر شاشةَ الكمبيوتر كل ليلة لتحتشد وتفصلهم عن الأخ، أرادت أن تصرخ لتستوقفها:

«مروان يحيا في أزمنة وفضاءاتٍ ضوئيةٍ لا نبلغها ولا تبلغنا، لا نفك شفرتها، الداخل فيها مفقود والخارج مولود، مروان ضال في لعبة اليكترونية تُحرضّه لقتال حتى ظلاله، حياة مروان معركة أبدية فلا تتورطي وتورطينا فيها». أرادت أن توقفها فلم يُسعفها صوتُها.

أطلقتْ مريمُ النَفَسَ المحبوس بصدرها لأسابيع، هاهي ذا تُخْلِي ضميرَها من أثقاله، لأول مرَّةٍ تُغادرُ حُجرتَها دون أن يُعرقلها عَتَبُ والدتها. استجابةُ أخويها لاتهم الآن، مع أن كلَّ خطوةٍ تأخذُها للخارج تَتَرَقَّبُ تلك الاستجابة، كلُّ ما في المكان يَتَرَقَّبُ نهايةً ترسو بها في قفرٍ أو مأوى! تَحَرَّكَتْ في حجرات البيت، كلُّ ما في المكان يحبس أنفاسَه، لايتنفَّس الصُعَداء إلا تلك الصورة على رفِّ المكتبة، مضى زمن لم تُخاطبها منه صورة، حتى شَكَّتْ أن الصَوَرَ تُغمضُ حواسَها حين تعبرها وأما الآن فهناك حماسة للاستئثار بأطول نظرة منها، بنظرةٍ يُمَيِّلُها افتتان، صُورٌ كما لو

اَلتقطتْ للتو، بضَّة بماء الحياة بحرارة الخيال البشري، بدخوله فيها، باستعداده للقيام أبداً فيها، صورةٌ تستدعي صفَّ الصُورِ على الرفِّ، وكلها لأبيها، هاهو العقيدُ يَتَنَفَّسُ، شيءٌ في أرواح المكانِ التقطَ إشارةً كونيّة وحَنَّ، الحنينُ في الهواء ملأ مريمَ حزناً، لأول مرَّةٍ من دهرٍ تجرؤ فتمدُّ كفَّها للصورة المنسية، تَنَاوَلَتْها بين ذراعيها، تتأمَّلُ الزمنِ المحبوس في تلك الصورة، تسرقها شاراتُ البهاء على الوجه، نضرة حياةٍ لا تُضاهي،

«بمثل هذا الماء بَذَرني، لا شك في ذلك، بمثل هذا البهاء يمكن لرجلٍ أن يُخَصِّبَ امرأةً أو حجراً أو نخلة!» تَبَسَّمَتْ وجَاوَبَتْها ابتسامةٌ على وجهِ العقيدِ في زِيِّ الطيران الحربي، حيويةٌ مباغتةٌ سَرَتَ في صوره، تُشاغِلُها كلُّ واحدةٍ عن الأخرى، لكأن نسمةً هَبَّتْ من مكانٍ بعيد لتزور هذه الحجرة، لتُحاورها للمرَّةِ الأخيرة، لتُقبّلها، مسَّتْ بشفتيها الأنفَ الشامخ بالصورة، لملمها حنينٌ لم يسبق وعاينته في شفقتها ذنبها محبَّتها تجاه لأب، لكأن عُصَارَةً من قلبه جاءتْ لتعصرَ قلبَها بهذا الحنين، لم يستخلصها منه غيرُ شقاوةِ صورته في الثانوية مثل نجوم السينما، له وجهُ مارلون براندو، وجهٌ للعشق وتحطيم العشاق، راجَعَها افتتانُها الطفولي يُلاغيه، الصوتُ الذي أصدرَتْه حنجرتُها كان لطفلةٍ صغيرةٍ تَتَدلَّل،

«سعيد أنت تسمعني عن بعد، لابد وأنكَ تشعرُ بي، صممي يتسارع، كل يوم يسكت المزيد من الأصوات حولي، والآن ليس بوسعكَ لومي، عرَّابُ هذا الصمت أنتَ، بوسعي التَنَصُّلَ وبضميرٍ مُتَخَفِّف مِنْ كافة الأبوابِ التي تَمَسَّكتُ بها في السر، وصلَّيتُ لكي تقود لانفراج في وضعكَ... أقربُ المقربين إليكَ فقدوا عنوانكَ، بوسعك أن تَضِلَّ تَتَلاشَى تموتَ كحيوانٍ مسعور. نحن جميعاً مقبلون على فَنَاءٍ وشيك إلا أنتَ يا يحيى العقيد المتقاعد والمحبوس في حجرةِ مستشفى، نحن في الخارج نسعى للتزاوج والتكاثر والفناء بينما أنتَ انسحبت من اللعبة، تدهورُ الوضع العالمي والإرهاب ودعاوى الإصلاح تطال الجميع عدا الراقد في

القيود وَسَطَ بياضٍ منسي، لا أحد يُفكر في تفجير حجرةٍ بمستشفى تحوي جسداً مخدراً في القيود، لا قنبلة تَعْبَأ بتفجيرِ قوقعةِ سمَّاعتكَ الاصطناعية، لا أحدَ يَحْفَل بتقليصِ عالم من بياضٍ مكتملِ التقلُّصِ، لا تغيير يجرؤ على الدخول إليكَ، وبوسعكَ أن تُعَمَّرَ للأبد، أنتَ بجسدكَ الذي يَنْدَكُّ ويَقْصُرُ مُرَشَّحٌ للصمود للأبد حتى تُتمَّ سَحْقَ. ليس عِظام وجهك فقط. وإنما هيكل مُمرِّضكَ العظمي كاملاً، مثلكَ مُرَشَّح للصمود. ستبقى منسياً في غربة البياض والممرضين والعقاقير المخدرة... نهاية جحيمية تليق بمقاتلٍ أناني مثلك يا أبي».

****

دخولُ والدتها قَطَعَ تلك النجوى، دَخَلَتْ واجمة في سحابةٍ تُغْرِقَها،

«مروان يمر بمرحلة عصيبة سواءً في حياته الشخصية أو العملية، ويحتاج وقتاً لاستجماع قواه لقضايانا...» لم ترتطم تلك العبارة المُتجلدة بأبخرة العود بسقف الحجرة حين رنَّ جرسُ الهاتف، رنَّة مثل صرير الأُذن لحظة سقوط أقدار الموت من السماء، لا تُفسِّرها الحواسُ البشرية، تَصَاعَد الرنين يلطم وقفةَ المرأة وابنتها، مروان على الطرف الآخر، خُيِّل لمريم أنه يُسارع لِتَدَارُكِ لحظةِ اليُسر تلك، لكن شحوبَ والدتها فَاقَ كلَّ شحوبٍ، تَهَاوَتْ، سارعت مريم تلتقطها، لم يكن بوسعها التنفس، احتاجت بخة (فينتولين) لتوسيع شُعَبها الهوائية، حين أفاقت، بدا لسانها جافاً وعالقاً مثل لحاء شجرةٍ بسقف الحلق،

«يحيي، فرَّ من ممرضه، ووجدوه ميتاً، سَقَطَ في إحدى ممرات حديقة المستشفى». قرقعة اندلعت على طبلةُ أُذن مريم، في تلك الكلمة تَحَجَّر السندان بقوقعة أُذنها على طبلته وما عاد يَرْجُفُ، بعدها عمَّ صمتٌ، في تلك اللحظة دَاخَلَها شكٌّ:

«ما الصمم؟ أهو رفض العالم أن يُحدثنا؟ أم اختيارنا ألا سمع؟ أم

سماحنا للأصوات أن تنزلق عن جلودنا دو ن أن تحفرنا، أم استسلامنا للفوضى؟» لم تعد قضية الصمم مخيفة وحاسمة، تحولت لاعتكافِ للإنصات لبقايا الراحل، أغلقت مريم على العالم في الخارج وانفردت بأصوات والدها، تَلَفَّتت حولها تُفتشُ عن آخر ضحكاته، عن لمحةِ الحنان التي لتلك الضحكة، عن الأنف الذي قبَّلَته ولا تزال مخطوفة شفتيها لدفئه،

«لأول مرَّةٍ حين جاء قبل قليل لم يكن مثلجاً من التكييف المركزي بالمستشفى».

«كان هنا... أبي كان هنا...» هذا ما أرادت لهم أن يعوه، تلفتت حولها عبثاً، حتى الكلمات خانتها. حتى الصور على رفِّ المكتبة ذَوَت فجأة مثل ورقة شاي تُجَفَّف ملفوفة على سوادها، وقد غادرتها حيوية حضوره وفقط قبل قليل، في اللحظات القليلة التي فصلته عن جسده الراقد بتلك الحديقة المشبعة بالديتول وقطرات البول المنسية والدم في طَيّات الشاش والعقاقير التي تفوحُ بلا قلب، العقيدُ كان هنا في اللحظة التي أتمَّ فيها تَحَرُّره.

«فاتته الجُمعة، لو تَقَدَّمتْ موتتُه قليلاً لربما صَادَفَتْ ساعةَ استجابة». هذا ما بقي في رأس الأم، وربما الابنة، السبتُ لافتتاح المصَارِف لا المقابر.

«القبرُ وقفةٌ مصرفية، يُراجعُ فيها الميِّتُ أرصدته، يَسحب أو يُودعُ، وربما يستلمُ دفترَ شيكاته، لا، بطاقة الصرَّاف تأتي مع البريد، أما كشف الحساب فلا بد من مراجعته مع الموظَّف!».

الجنازةُ غامتْ بالأقل من الدمع، الأخوات وبنات الأخوات والأبناء الكل على قناعة تامة بحيوية تلك الموتة، قناعة كفيلة بتجفيف كل منافذ الشفقة أو الحزن، كل الحزن تجمع في صمت مريم وصَممها.

لم يسمحوا لهم برؤيته،

«لماذا؟» لم يسأل أحد،

«لِنَذكره كما رأيناه آخرَ مرَّةٍ، في كامل نياشينه وبهائه...» من الذي رآه

في النياشين؟! عندما عَلَّقَها الجنونُ ليصرع أهلَ بيته هائماً للطريق؟! تَعجَّبتْ مريم، أخواها يُكَرِّران تلك العبارات مثل ببغاء، ترافقهما سحبُ بخورِ العود والكافور وتراتيل القرآن التي لا يُصلِّيها أي منهم.

«من سَمَحَ باستعمالِ الكافور، أنه يُصيب بالعقم...» لم تجرؤ مريم على الاعتراض، لكأنهم أرادوا ضَمَانَ ألا يَتناسلَ العقيدُ في قبره، وجهه لابدَّ أَكَلَه الغيظُ، سَحَقَ وجهَه بالقَرضِ المتواصِل، بالحُنقِ الذي تَنَازَلَ الجسدُ عن التعبيرِ عنه واستلمَ الرايةَ الوجهُ، لا أحد يملك فيضع أصفاداً على تعبير وجهك، بوسعهم تقنيعكَ، عدا ذلك فبوسعكَ إعلان السخط والغيظ والكراهية والحب.

«كان يجب أن أراه لمرَّةٍ أخيرة، لربما تَمَكَّنَ وجهُه من تسريبِ عاطفةٍ صوبي، احتاجُ رؤيته في الكفن، لم يبق من نياشينه من لمعةٍ في ذاكرتي، لذا فبوسعي رؤيته حيث انتهى ضعيفاً مأكول عَظْم الفَكِّ بوجهٍ مَنْقوضِ الأعمدةِ والقواعد..» لم تجرؤ على التصريح بذاك الالتماس، تَرَكَتْ لتلك الهواجس والرغبات أن تطحن عميقاً بعظم رأسها.

و لا أحد اعتنى بفَكِّ أكفانِ المستشفى، الإبن الأكبر مروان غائب في فضاء ضوئي يصارع طواحينه بينما الإبن الأصغر يُراجع تفاصيل هجرةٍ، والأقارب في عجلة والزوجة في خنوعٍ، دفنوه في أكفان بيض - لم تُطَيِّبها يد زوجةٍ ولم تلفها عينُ حبيبٍ ولم تُرقِّقها دمعة لوعة - خِرَقٌ من مُخْرَجَات المستشفى، لفوه من ذات السجن الأبيض. لم يبقَ برأس مريم غير فكرةٍ وحيدة:

«أين انتهت قوقعةُ سَمْعِ أبي؟ ليتهم يُجيبون وصيّته الأخيرة ويدفنونه بتلك القوقعة، علامَ تتنصَّتُ تلك القوقعة الآن؟ وعلامَ استقرَّ لونُها؟ ماذا بعد أن تحوَّلَتْ من الأصفر للرمادي، أبوسع طين القبر والرَّجُلِ أن يُحيلها للوردي، وتُهمهم بصلاةٍ صغيرة مثل أغنية في مَهْد؟» وبقيتْ بانتظار رجعتهم بأشيائه الصغيرة لبيته،

«حين لا يرجع الرجل ترجع أشياؤه، ليتقاتل على وراثتها الأحياءُ، لتطفر دمعة برثائها». لكن لمحةً منه لم ترجع، حُمىَّ الكَرَم والتنصُّل من ذكرى الرَجُلِ جَعَلَتْهم يتصدَّقون بكل لمحاته،

«في أي غربةٍ تنام أشياؤه الآن؟ ربما ما يُعزِّي الميت وفقط سَكَنُ أشيائه في أحبته، تَعَلُّقها بأجسادهم بخزائنهم، بثيابهم، بدفئهم، تتلصَّصُ على ما بقي من أعمارهم، صغائرهم، سخافاتهم، بهائهم، أحلامهم، فما الغربة التي تتلصَّصُ عليها أشياءُ أبي الآن؟».

الجنازةُ الأقل ألماً وعويلاً، حيادُها فَتَحَ الفرصةَ لإعطاءِ أطفال العائلة الذكور درساً في الموت والدفن، شَارَكَ كل صغار العائلة في الوقوف على قبرِ العقيد المتقاعد. في وقفةٍ مهيبة أحاطَ الصغارُ بالقبر الفاغر، في الأسفل هَبَط مستور زوجُ ابنة الأخت المشهور بالمتطوِّع لدفنِ من لا دافن له، يجدونه على أبواب مساجد الراجحي حيث يتأهَّل موتُ المقطوعين من شجرة، بلامقابل يُغَسِّلُ من لا ماء لغُسله، ويُكَفِّنُ من لا خرقةَ تستره، ويُحْمَلُ ميتاً من لم يجدْ حَيّاً يُلقي إليه بنظرةٍ. هناك يُشمِّرُ مستور عن ساعديه ويغسل ويُكفِّن ويحمل حتى مال كتفه الأيمن، ويهبط قبل كلِّ أموات المدينة لقبورهم، يستشكف يزن درجةَ الحرارة، احتمالاتِ الحيّاتِ وألسنةِ اللهب أو نوافذَ عَدْن، تَحَوَّرَتْ أطرافُه فما أن تَمَسَّ تُربةَ القبر حتى تقرأ المُضْمَرَ من رُسِلِ الحساب والعقاب والثواب. بوسع مستور أن يستشعرَ ثُقلَ الموازين على كتفه الأيمن، تأرجحَها من ضفةٍ لأخرى. ولكنه قط لم يُفصح، لذا يستأمنونه على أبواب آخرتهم.

«هبوط القبر يتطلب جَنَاناً من حديد، أو من محبة إلهية..» ومروان وأنور لم يدركا في طريقهما من ذاك الجَنان، لذا تَلَقَّاه في القبرِ مستور المتطوع بقناع المحبة، وبعناية فكَّ الأربطة عن جسده المتخشب، الرجفة التي سرت بجسد مستور حين أسفرَ عن الوجه لا علاقة لها بهيبة جوف القبر ولا قراءات الرُسل المحشورة بانتظار مغادرتهم، لأول مرة تشغله هيئةُ

الميِّت عن قراءةِ بوابات آخرته! أرسل حفنة تراب في المَحْجَرِ/ الحفرةِ العرضية التي ظهرت له مكان محجر العين، شُقَّ واحد طولي، لم يُسفِرْ مستور عن تلك الرؤيا لأحد،

«رعاية لحرمات الموتى...».

حين صَعَدَ مستور تَأهَّبَ الصغارُ، صفٌّ من الغُتَرِ المُنشاة والثياب الناصعة، صفٌّ طواويس نورانية تَحَلَّقَ حول القبر، حرصوا لا يُلقون بنظرةٍ لجوف الحفرة، مهمةُ التراب الغوص لتلك الطبقات من الكشف، وتَعَاقبوا كلٌّ بدوره، ألقوا بحفنات التراب لمثواها الأخير على جثته، رجعوا بذكرى بياضٍ راقدٍ في الحفرة على تراب عارٍ.

في رجعتهم ألقوا بِغُتَرِهم ليتوسعوا في استرجاع أوكار عزرائيل التي يدسُّهم لها في هيئةِ غنائم، يَروون ومريم لا دليل ما إذا كانت تسمع، ولا دمعة لاحت في العين ولا رجفة، مازن كان يقول:

«ثلاثة قبور مفتوحة وراءنا، وكان على أصحابها أن يأتوا، لكن جدي سَبَقَ الموتى، لو لم نخرج». ثمّ عَلَّقَ يوسف ابن التاسعة،

«الشمس، يا الله، الشمس كانت نازلة على رؤوسنا مثل ساطور، ذَبَحَتْنا لتدخلَ قبرَ جَدِّي مثل حجرةِ نومكِ يا مَايام، أدفأ حجرة في الأرض». ذاك أسم التَحَبُّب الذي اخترعه يوسفُ لها منذ بدأت تُشاغِلُه الكلماتُ (مَايام)، وحَرَصَتْ - فيما تَلَى من تَمَرُّسه في الكلام - ألا يُثْقِلَه بغَرغرةِ الراء في مريم.

وجحظتْ فيها العيون، حَاصَرَتْها دهشةُ المشيعين والدخلاء واللاهين مستنكرة بينما ساطور الشمس يشق بجمجمتها.

****

في ذلك اليوم الوحيد اجتمعوا في المحكمة (مريم، بدر، صالح، وصديق آخر مُقَرَّب باسم عبد الله)، نظراتُ الذكور طالعة من كهف

محروس برابض، يُعميها حضورُ الأنثى المباغت في ممر أو على سُلَّم أو باب، لكأن دور القضاء من معسكرات الرجُلِ الحصينة، حيث لا يُؤَذنُ للحقوق مالم تُعلن هويّةَ صاحبها المُذَكَّرة. عيونٌ روابض تستنكرُ حركتَها السَلِسَة النديّة بين شاهديها والزوج، كان عليها أن تُكَبِّلَ الكثير من تلك الحركة تُلفلفها جيداً في طيَّات عباءة سمكية وحجاب، كفاها بقعتا عسلٍ تستدرجُ هوام البصر والرغبة، دسَّتْهما جيداً، اختارت طرحة سميكةً لإغلاق وجهها، صارت خفَّاشاً يتلمَّسُ طريقَه على السلالم الضيقة للمحكمة، تلمَّست في صعودها الحاجز وتركت للذكور الدخول في الجدار للنجاة من عماء شيطانها، ماذا في امرأةٍ تصعدُ سلالمَ محكمة؟ هي بلاشك لوحةٌ مُرَكَّبَةٌ، تُضمرُ شياطيناً تسري بفتنةٍ مُهْلِكة.

تركوها في حجرة انتظار السيدات، خلف ذلك الباب حيث يقف كلُّ ذَكَرٍ ليَهشَّ أنثاه لقطيع الداخل، يهشُّ دون أن يُلقي لعاره نظرة، في خطفةٍ يُريد لعاره أن يختفي عن أعين الآخرين، أمام ذاك الباب تسقط علامات التجسيد، تسقط صلات القربي وعقود النكاح ودماء الأسرة وتتحول الكتلة المؤنثة السوداء لعدم، لغيابٍ لابُدَّ يرجعُ لغيابه ويتلاشى من الوجود، خلف ذاك الباب غابتْ أجسادٌ في سوادٍ لا يبين منها طرفٌ حي، لا تتحدد لها ملامح خلف الطرحة الأشد سماكة من قبر، لوراء ذاك الباب تحولت الكتلُ السوداء لسائل كثيف يغور في النسيان، حتى يجيء أوان توقيع المرأة على صكٍّ، عندها تأتي تلك الخربشة الخفيفة على باب الطمس، ويُهمهم صوتٌ أجشُّ ينادي باسم الراعي، فتخرج النعجة من بقعة الطمس، تُسفر عن أصبعين يوقعان أو أصبع يبصم، وتنتهي مهمتها. لا تسترد العباءاتُ أجسادَها المؤنثة إلا في مغادرة المحكمة في أذيال الراعي. رَاوَدَ مريمَ أن تشجبَ وجودَ الحجرة وبابها، أن تتجاهلها لتقف بالانتظار في الخارج لكن فضولاً دفعها للولوج، ما أن عَبَرَت الباب بالحاجز الخشبي وراءه حتى باغتتها الحركة الدائبة في الداخل، فتاةٌ في العشرين تُنظِّمُ مع رفيقتها

الأربعينية مقاعدَ الانتظار، عمَّالٌ يروحون وراء الحاجز ويجيئون يستبدلون الكراسي القديمة بأخرى جديدة، ثلاث بُقعٍ سوداء لسيدات ممتلئات يرقبن العملية من وراء براقعهن بفضولٍ كبير وريبة، لا وجه أسفر عن ملامحه رغم حصانة الحجرة ضد عيون الرجال، في سوادٍ أسفرت مريمُ عن وجهها، ما إن لمحتها المرأة الأربعينية حتى سارعت كمن يتمسك بقشَّة:

«من فضلك، هل يهمك المشاركة في حوار صحافي؟».

«لا أظن». خلف طبقةٍ كثيفة من السواد من الرأس للقدم حاولت إقناعها،

«أُعَرِّفُكِ بنفسي، أنا ممثلة لجنة حقوق المرأة بجدة، نحن لجنة حديثة التأسيس، ومهمتي البحث في حقوق المرأة المهدَرَة بالمحاكم وكتابة تقرير للجهات العليا عنها، مهمتي أيضاً التوعية بالحقوق الشرعية للمرأة». بدا على مريم الاهتمام، إذ لم يسبق لها وقابلت عضوة في تلك اللجنة التي أُعلن عن تأسيسها مع بداية السنة، مضت المرأة،

«نستقبل اليوم وفداً من الصحافيات الأجنبيات، للتحاور حول دورنا كلجنة، وحول موقف المرأة السعودية في دُورِ القضاء، نحتاج عيِّنة عشوائية تتطوع لتمثيل أصحاب القضايا، الأخوات هنا اعتذرن، فماذا عنكِ». واعتذرت مريم:

«تتوقف مشاركتي على موقف القاضي من قضيتي، ربما لن تخدمكم قضيتي في الموقف أو الصورة التي تسعون لطرحها بحواركم».

«ما قضيتكِ، قد أستطيعُ خدمتكِ».

«لا ولاية على العاقل البالغة...» غادرت مريم تلاحقها الدهشةُ في وجه المرأة ممثلة الحقوق.

تَنَحنح شيخٌ عن يمين القاضي، بينما انهمك القاضي في إضافة تعديلات على ملف في الكمبيوتر عن يساره، بدت أصابعه طويلة ورشيقة في حركتها على لوحة الأزرار،

«السلام عليكم». رجال اقتحموا وأجابتهم غمغمة الجالس لليمين، وردُّهم القاضي بحزم،

«انتظروا حتى يُنَادى عليكم». نظرة ألقاها صوبها وبدأ يتأمل في معروضها، بدا لها القاضي مثل قرص نور، لوجهه نصاعة عجيبة، اليقظة في تلك العين تُعدي براحةٍ عجيبة، أخذت برأس مريم ونأت به عن قلق تلك اللحظة، تأملت مريمُ تستزيدُ من تلك النصاعة،

«تمد راحتَها لقلبكِ وتمسحه، (يد الله باردة) عبارةٌ تُعلنُ في كلِّ حُرقة قلبٍ، وجهُ هذا الشيخ من ذاك البَرَد!» واسترسلت،

«بوسعي الوقوع في حبِّ وجه كهذا، مثل وجه شاهين متيقظ يرى الماء بأعماق الأرض، يرى الفريسة بقلب السماء... لو أنه يقرأ ما يدور برأسي». وتحت أبصار المراجعين تَنَفَّس قرصُ النورِ، مُوَجِّهاً السؤالَ لبدر،

«عقد نكاح؟».

«نعم».

«ليتقدم كلٌّ من الزوج والشهود ببطاقات أحوالهم المدنية». اصطفت البطاقات بحجم بطاقة الاعتماد البنكية أمام القاضي.

«بدر... أنتَ الزوج؟».

«نعم».

«أين دفتر العائلة؟» وتناول الدفتر بطول ربع ذراع.

«أين الولي؟».

«أنا ولية نفسي، بالغة عاقلة وثَيِّب...».

«أليس لكِ محارم؟».

«عند الحنفيَّة أن البالغة العاقلة سواء كانت بكراً أو ثيباً فليس لأحد عليها ولاية النكاح، بل إن لها أن تباشر عقد زواجها ممن تحب بشرط

التكافؤ، وإلا كان للولي حق الاعتراض وفسخ العقد، وهذا رجل كفء باعتراف الدولة وما يتقلده فيها...» اعتدل القاضي في جلسته. أدرك أن عليه استجماع علمه.

«نعم، لكننا لا نفعل ذلك، لا حاجة لكِ للخروج عن أهلك، هل يعضلونك؟».

«القضية أنني قد مُنحتْ حق تزويج نفسي فما يمنع من ممارستي لهذا الحق. ثم، بوسعك تنصيب نفسك ياشيخنا وليّاً لإقرار هذا الحق الشرعي».
بعد تردد استسلم،

«الله يستر عليك، لا تفتحي علينا باباً».

****

كانت مريم قد غادرت للتو مبنى المحكمة، كانت تعبر بوابة المحكمة محوطة ببدر عن يمين والشاهدين عن يسار.

«لا تدعي موقف القاضي يُزعجكِ، اتفقنا قبل الحضور أنها تجربة، اختبار لا أكثر، هناك سبلٌ لإتمام هذا الأمر غير المواجهة». اجتهد بدر لامتصاص خيبتها، مشاعر متضاربة تمركزت حول قلبها، بين النصر والخيبة، بين التحدي والانكسار، في تلك اللحظة لمحت مريم التاكسي يتوقف على بعد خطوات، كمن يعرض عليهم الركوب، وكادت تُشير له صارفة حين استرعاها وجهُ السائق، تعرفه..

«زايد!!» الاسم لم يَتِم حين لمحت في ذات اللحظة العربةَ المغلقة، والرجالَ يهبطون بشقرتهم وكاميرات التصوير، وتلك الشقراء في عباءة، CNN لمحت شارة المحطة الفضائية في قاعدة المايكروفون المُدبَّب، تذكرت أمر الوفد الصحافي، وفي لمحة أدركت أنها واقفة بين التاكسي وعربة الصحافيين والأطفال الأفغان يعرضون فوطاً وأقفاص عصافير للبيع، وتلك النيجيرية في ملابسها الفاقعة والتي افترشت الرصيف بملاءة

بسطت عليها أكياس اللوز التكروني والفصفص وحبات الدوم والألعاب الرخيصة، حشد العربات أمام إشارة المرور، الوجوه السمراء والصفراء والبيضاء خلف كل مقود، الياباني الراقد في المقعد الخلفي لتلك العربة الصقيلة بشارة شركة الربيان الوطنية، وفي ذات اللمحة مرَّ برأس مريم شريطٌ خاطف عن زايد، تَذْكُرُ الحذاء الرياضي والحجرة المغلقة في الاستراحة، تَذْكُرُ أن أم طفول فقدت عينها الثانية بكاءً على اختفاء هذا الولد، في تلك اللمحة الخاطفة تحول وعيها لموشور يُفتتُ المَشَاهِدَ لِحِزَمٍ ضوئيةٍ خاطفة تعبر رأسها، وفي ذات اللمحة كانت تتقدم صوب التاكسيَ لتبادل زايدَ كلمةً حين سمعتْ ذاك الدوي، توقف الزمن برأس مريم، تمددت اللمحةُ وبقلبها كان ذاك الوجه يطير في الهواء، لا يقين، أيُّ وجهِ ذاك الذي تمزق، الدوي اجتاح بوابةَ المحكمة، اجتاح عربةَ الصحافيين، عَجَنَ الملاءةَ البرتقالية ببائعة اللوز النيجيرية اجتاح الكُتَلَ البشرية في فيضه، في لمحةٍ لم يكن للتاكسي من أثر ولإشارة المرور، كتلةُ لهبٍ ودخان غطّت المكانَ، ليس غير بياض ذاك الحذاء الرياضي المعفر بدم وسخام والمقذوف بقلب السواد، ليس كالأحذية يعبر الجحيم.

زجاجٌ استمر يهطلُ في هتَّانٍ خفيفٍ على المارة المذهولين على الأشلاء بلا آخر، أُغلقت المنافذ بسيارات الإسعاف والشرطة والقوات الخاصة.

النهاية

رجاء عالم

سِتْر

[مرت بلسانها على شفتيها، دغدغة من رغوة القهوة لا تزال عابقة هناك، تحب أنفاسها مضمخة بالقهوة، تشعر أن إغراء شفة مغمسة بالقهوة لا يُقاوَم، تذكر شفتيه في آخر رشفة قهوة، يسقيها كل صباح لعقة، لينهبها كافيينها طوال غيبته، بابتسامة سكرى أخفت ذاك المذاق.

«كإدمان الألماس. عَشِقَّني خشبُ العود الذي يأكل حسابي البنكي لكن ليس مثله يُشعل قريحتي. بالبخور أنا كاهن من عالم آخر، أستطيع أن أرسم لكم خارطةً مُفَضَّلَة عن مستقبلكم العربي، نحن أمة توأمُ الناسَ للخراب». يستفزُّ كلَّ من يحضر له مجلساً ويرجع لوكره، يُعَاقرُ المزيدَ من البخور حتى أصاب زوجته الجميلة بالعقم، واستبدل هواءَ المدينة بغمامٍ يغرقُ فيه ويتغرَّب].

تكتب رجاء عالم بلغة الشغف بالكتابة، تكتب بمتعة تتسلل إلى قارئ مهيئ للخضوع لسحر الكتابة واللغة، وعندما يصل هذا الحد يقع أسير عوالم يركض خلفها ولا يستطيع رؤيتها على حقيقتها، عليها غلالة من روح باطنية، غلالة تضعُك دائماً في حالة العجز عن اللمس.

لوحة الغلاف: شادية عالم

المركز الثقافي العربي ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 – الدار البيضاء – المغرب
ISBN:9953-68-091-4